بلزاك

الملهاة الانسانية

المرأة في الثلاثين

دراسة طبائع

مشاهد من الحياة الخاصة

ترجمة

ميشيل خوري

مكتبة بغداد

@BAGHDAD_LIBRARY

ج.ج.ع.ح

روايات بلزاك ٣٦

twitter @baghdad_library

بلـزاك

الملهاة الإنسانية

المـرأة فـي الثـلاثيـن

دراسة طبائع

مشاهد من الحيـاة الخاصـة

ترجمة

ميشـيل خـوري

منشـــورات وزارة الثقـــافة
في الجمهورية العربية السورية
دمشق ٢٠٠١

مكتبة بغداد
@BAGHDAD_LIBRARY
ج.ج.ع.ح

العنوان الأصلي للكتاب :

BALZAC

La Comédie humaine

LA FEMME DE TRENTE ANS

Études de Moeurs

Scènes de la Vie Privée

المرأة في الثلاثين: دراسة طبائع مشاهد من الحياة الخاصة = La Femme de Trente ans / بلـــزاك ؛ ترجمة ميشيل خـــوري . — دمشق : وزارة الثقافة ، ٢٠٠١ . — ٢٢٣ ص ؛ ٢٤ سم .— (روايات بلزاك ؛ ٣٦) .

١ - ٨٤٣ ف ب ل ز م ٢ — العنوان ٣ - العنوان الموازي

٤ — بلزا ٥ — خوري ٦ - السلسلة . مكتبة الأسد

الإيداع القانوني : ع — ٢٠١٥ /١٠/٢٠٠١

روايات بلزاك

«٣٦»

twitter @baghdad_library

الإهداء

مهداة إلى

لويس بولانجه*،

الرسام

* ظهر هذا الإهداء في طبعة فورن وهو موجّه إلى الرسام د. بولانجه (١٨٠٦-١٨٦٧) الذي رسم صورة بلزاك في ثوب راهب، عرضت في صالون ١٨٣٧.

twitter @baghdad_library

مقدمة طبعة بيشه BÉchet

(١٨٣٤)

تساءل عديد من الأشخاص عمّا إذا لم تكن بطلة الموعد، وامرأة في الثلاثين، وإصبع الله، واللقائين، والتكفير عن الذنب، الشخصية نفسها بأسماء مختلفة. ولم يستطع المؤلف أن يعطي جوابًا. لكن فكرته ستتوضّح على الأرجح في العنوان الذي يضمّ هذه المشاهد المختلفة؛ فالشخصية التي تَعْبُرُ إن صح القول اللوحات الستة التي تتألف منها الحكاية نفسها* ليست وجهًا إنّما هي فكرة. وكلّما اكتست هذه الفكرة بألبسة أكثر تباينًا عبّرت بشكل أفضل عن نوايا المؤلف. وهو يطمح أن ينقل إلى الروح حالة مبهمة من أحلام اليقظة تستطيع النساء من خلالها إيقاظ بعض انطباعاتهن الحية التي احتفظن بها، وأن يحيي الذكريات المتناثرة في الحياة، ليستخلص منها بعض العبر. وقد وُجدت فجوة كبيرة في هذا التصميم بين **الموعد والمرأة في عمر الثلاثين** ملأها المؤلف بفصل جديد يحمل عنوان **آلام مجهولة**. ستنهي النساء دون شكّ المراحل الانتقالية غير المكتملة، لكن الشيء المستحيل هو أن يفهمها الجميع بالطريقة نفسها. أين الديانة التي لم تكن مادة لأقوال متناقضة؟ أليس من الجنون أن نطلب لمؤلّف هزيل، أعدّه إنسان، الحظوة التي لم تحصل عليها مؤسسات إنسانية. مثل الديانات. وُجّهت للمؤلف ملامات أخرى تتعلق بالاختفاء المفاجئ لشابّة في **اللقاءان**؛ لكن يوجد في المؤلف كلّه عدم ترابط أكبر من ذلك إن أراد المؤلّف أن يتقيد بمنطق لا تمتلكه أحداث الحياة. ويمكنه أن يقول هنا إن التحديدات الأكثر أهميّة تتخذ دائمًا في لحظة؛ وإنّه أراد أن يظهر الأهواء السريعة، والتي تخضع كلّ الوجود لفكرة يوم واحد. لكن لماذا يحاول أن يشرح بالمنطق

---

* الحكاية نفسها: هو العنوان المعطى أولاً لهذه الرواية ثم حل محله العنوان الحالي امرأة في الثلاثين (م. المترجم).

ما يجب أن يفهم بالعاطفة؟ عدا عن أن كل تبرير سيكون خاطئًا أو دون جدوى في نظر أولئك الذين لا يستوعبون الفائدة الخفيّة في اللقاءين، والتي تشكل عناصرها المقطعَ المعنون إصبع الله المزيد في هذه الطبعة بفصلٍ يعلّل على الأرجح، بشكل أفضل، هرب الابنة الشرعية المطرودة بحقد أمٍّ صارمة لا تريدها أن تقرّ بذنبها. هذه الأنواع من الأحداث أقل ندرة مما يعتقد. بالرغم من أنّ للحياة الاجتماعية، كما للحياة الطبيعية قوانينها التي تبدو في الظاهر ثابتة، فإنكم لن تجدوا في أي مكان الجسم أو القلب المنتظمين كما في علم مثلثات لجندر*. وإذا تعذّر على المؤلف أن يرسم جميع نزوات تلك الحياة المضاعفة، فيجب أن يُسمحَ له على الأقل بأن يختار منها ما يبدو له الأكثر شاعرية.

بلزاك

باريس ٢٥ آذار ١٨٣٤

---

* جندر Le GENDRE، أدريان ١٧٥٢ ـ ١٨٣٣: عالم رياضيات فرنسي (المترجم).

twitter @baghdad_library

I

الأخطاء الأولى

كان ضحى أول يوم أحَد من شهر نيسان ١٨١٣ يَعِدُ بطقس جميل رأى فيه الباريسيون لأول مرّة من السنة شوارعهم دون وُحول، وسماءهم دون غيوم. ومرّت قبل ظهر ذلك اليوم عربة فخمة يجرّها حصانان مطهّمان من شارع كاستيغليون إلى شارع ريفولي، وتو قفت خلف عدة عربات متماثلة اتخذت مكانًا لها خلف الحاجز المشبّك الذي فتح مجدّدًا وسط مصطبة دير فويان. وكان يقود هذه العربة الرشيقة رجل ذو مظهر سقيم مهموم، يكاد شعره الرمادي لا يغطي صلعته الشاحبة فيبدو عجوزًا قبل أوانه، ورمى الرجل أعنة الخيل لخادم يتبع العربة على حصان ونزل ليأخذ بين ذراعيه فتاة لَفَتَ جمالها الناعم أنظار المتنزهين على المصطبة، استسلمت له بلطف كي يمسكها من خصرها وهي على حافة العربة وأحاطت بذراعيها عنق مرافقها الذي وضعها فوق الرصيف، وكان حريصًا حرص العاشق على ألا يدعك حليات ثوبها الأخضر. كان ذلك المجهول والد تلك اليافعة التي تأبطت، دون تكلّف أوشكر، ذراعه وقادته بسرعة إلى الحديقة. ولاحظ الأب الكهل نظرات الإعجاب تشعّ بها أعين الشباب فامّحت للحظة علائم الحزن التي تكسو وجهه؛ وبالرغم من أنه تجاوز، منذ مُدة طويلة، السن الذي يجب فيه أن يقتنع الرجال دون مظاهر المَنَع الخداعة التي يمنحها الزهو، فإنّه أخذ يبتسم، وانتصب مختالاً بقامته ومشى متباطئًا وهمس في أذن الشابّة المنزعجة من تمهله:

- يبدو لي أن المارّة يحسبونك زوجتي.

إنه يدلّل كثيراً ابنته، ويستمتع أكثر منها على الأرجح، بغمزات الفضوليين وهم ينظرون إلى قدميها الصغيرتين في حذائها العالي الكعبين[1]، القاتم اللون، وقامتها الممشوقة التي يرسم معالمها ثوب دون كمين يكشف عن عنق نضر تحيط به قبّة صغيرة مطرّزة، وحركة السير ترفع أحياناً هذا الثوب وتتيح رؤية استدارة ساقي الشابة المسبوكتين في حسن تكوين ضمن جوارب مخرّمة. وهكذا كان أكثر من متنزّه يتجاوز الأب والابنة ليتأمل بإعجاب وجه الفتاة الناعم وبعض خصلات شعر ملتفة تتموّج حوله بلونها الكستنائي اللماع بينما يزيد من بياضه وتضرّج حمرته انعكاس بطانة قبعة وردية أنيقة، والشوق ونفاد الصبر المتقدان على قسمات تلك الشابة الفاتنة، بينما يشعّ بعض مكر ناعم من عينيها السوداوين اللوزيتين الجميلتين بحواجبهما المقوّسة وأهدابهما الطويلة ولمعان بياضهما الصافي. كان الشباب والحيوية سخيّين بكنوزهما على ذلك الوجه المرح والصدر العامر رغم الزنّار المحيط بأسفل الثديين. كانت الفتاة لا مبالية بإعجاب مَنْ حولها، وهي تنظر بقلق تجاه قصر التويلري، وهو دون شكّ هَدَف نزهتها المندفعة. كانت الساعة الثانية عشرة إلا رُبعًا، ورغم هذا الوقت المبكر فإن عدة نساء، كُنّ جميعهن في زينة كاملة، وهن يَعُدْن من القصر، ويتلفتن إلى الخلف بمظهر حرِد، وكأنهنّ نادمات لحضورهن متأخرات، ففاتهن المشهد الذي يرغبن بالاستمتاع به، وبدرت عن تلك المتنزهات الفاتنات الخائبات الأمل كلمات تعبّر عن مزاجهن المتعكّر، وصلت بعضها إلى مسامع الفتاة المجهولة فأقلقتها. وكان العجوز يرقب بنظرة يتعدى الفضول فيها السخرية، مظاهر نفاد الصبر والخشية التي تبدو على وجه ابنته الجذّاب، بل ويلاحظها بمزيد من العناية مستبعداً بعض المقاصد الخفية الأبويّة.

كان هذا الأحد هو الثالث عشر من أيام آحاد سنة ١٨١٣، وانطلق نابوليون بعده بيومين في تلك الحملة المشؤومة التي خسر فيها على التتابع بسيير ودوروك•

---

(١) حذاء مسطح يُعَدُّ من قماش صوفي أو حريري ويربط بشريط ويرتفع حتى وسط الساق.

• ١). بسيير: (١٧٦٨ ـ ١٨١٣): مارشال فرنسي قتل عشية معركة لونزن.

٢). دوروك (١٧٧٢ ـ ١٨١٣) جنرال فرنسي من كبار قادة نابوليون.

twitter @baghdad_library

وربح معركتي لوتزن وبوتزن التاريخيتين ، وفوجئ بخيانات النمسة وساكس وبافارية وبرنادوت**، ونافس خصومه في معركة لايبزيغ الرهيبة . ووجب أن يكون العرض الرائع الذي يقوده الامبراطور هو آخر تلك العروض التي أثارت لمدة طويلة إعجاب الباريسيين والأجانب . فالحرس الامبراطوري القديم سينفذ لآخر مرّة المناورات البارعة التي أدهشت بعظمتها ودقّتها أحيانًا هذا العملاق بالذات؛ وهو الذي يتهيأ آنذاك لمبارزة كل أوروبة؛ مما ولّد شعوراً بالحزن في نفوس تلك الجماهير الفضولية الغفيرة المتزاحمة أمام قصر التويلري، فقد بدا كل واحد وكأنه يخمّن المستقبل، وقد يتوجّس خشية من أن يضطر الخيال أكثر من مرّة لرسم مشهد تلك اللوحة، عندما كانت تلك الأزمنة الفرنسية البطولية قد التزمت، كما في الوقت الحاضر، بألوان شبه أسطورية .

- قالت الشابة بنبرة متدلّلة تستحث أباها : أسرع يا أبي، فأنا أسمع قرع الطبول .

- أجاب الأب : إنّها الفرقُ التي تدخل إلى التويلري .

- عقبت الابنة بمرارة طفولية دفعت الأب إلى الابتسام : أو تلك التي تسير في العرض فأنا أرى الناس يعودون .

- قال الأب وهو يسير خلف ابنته النزقة : لن يبدأ العرض قبل الثانية عشرة والنصف .

يخال لمن يرى حركة يدها اليمنى أنّها تدفع أباها إلى الركض، وكانت تدعك بنفاد صبر بين أصابعها المكسوّة بقفّازمنديلاً فيبدو ذراعها أشبه بمجذاف زورق يضرب الأمواج وكان الأب الكهل يضحك بين الفينة والأخرى، لكن بعض مظاهر الغمّ تلوح بشكل عابر على وجهه الضامر الجاف، فحبّه لتلك المخلوقة الجميلة يدفعه إلى

** برنادوت : (١٧٦٣ ـ ١٨٤٤) مارشال فرنسي، نصب ملكًا على السويد، تحالف مع روسية ضد نابوليون وفرنسة بلاده .

الإعجاب بالحاضر والخشية من المستقبل؛ وكأنه يقول في نفسه: إنّها سعيدة اليوم، فهل ستبقى كذلك؟ فالشيوخ ميّالون إلى طرح همومهم على مستقبل الشباب.

بعد أن وصل الأب والابنة إلى باحة الرواق المعمّدة حيث يرفرف في أعلى واجهتها العلَم المثلث الألوان والمتنزهون يتجولون ذهابًا وإيابًا بين حديقة التويلري وميدان الفروسية، سمعا أصوات الموظفين يصيحون بصوت أجش: قف، لا يُسمح بتجاوز هذا المكان.

اشرأبّت الفتاة بعنقها وهي تقف على رؤوس أصابع قدميها فرأت مجموعة من النساء المتزينات يقفن على جانبي الرواق الرخامي ذي القناطر المتوقع خروج الامبراطور منه.

- أترى يا أبي، وصلنا متأخّرين.

كشف الحرد الظاهر على ملامح وجهها ما تعلّقه من أهمية على مشاهدة هذا العرض.

- إيه! وبعد يا جولي، أنت لا تحبين أن يزحمنا جمهور المتدافعين.

- لنبقَ يا أبي، يمكنني من هنا أن أشاهد الامبراطور، فإن يهلك في الحملة القادمة فلن أندمَ على تفويت فرصة رؤيته.

ارتعش الأب وهو يستمع إلى هذه الكلمات الأنانية المتشائمة. كانت بحّة بكاء تختلج في صوتها، ونظر إليها وبدا له أنه يلاحظ تحت أجفانها المقطّبة بعض دمعات لم تنتج عن الغيظ، بل عن تلك الهموم الأولى التي يسهل على الأب الخبير بالحياة كشف سرّها.

وفجأة توردّت وجنتا جولي وأطلقت صيحة امتزج فيها الفرح بالتعجب، لكن لم يدرك مضمونها الوالد الشيخ ولا الحراس الواقفون، وعندها التفت ضابط كان ينطلق بسرعة من باحة القصر إلى السلالم وغيّر اتجاهه بسرعة نحو رواق

twitter @baghdad_library

الحديقة ذي الأعمدة، فقد عرف صوت الشابة المحتجبة خلف قبعات القذافين ذات الشرّابات الكثيفة؛ وخالف من أجلها التعليمات التي أعطاها هو نفسه دون أن يبالي بهمهمات الجماهير المتأنّقة المحيطة بالرواق وقاد بلطف الأب والابنة التي بدا عليها الحبور للقياه.

- قال الأب للضابط بلهجة تحمل الجدّ في معرض الهزل: لم أفاجأ بغضبها ولا باندفاعها. إذ إنك الآن على رأس عملك.
- أجاب الشاب: سيدي الدوق إن أردت أن تحظيا بمكان مناسب، فهيّا ولا نضع الوقت في الكلام، فالامبراطور لايحب الانتظار، وأنا مكلّف من قبل المارشال بالذهاب لإعلامه بجاهزية البدء بالاستعراض.

أمسك بيد جولي بنوع من الألفة وهو يتكلّم وقادها بسرعة إلى ميدان الفروسيّة؛ وأبصرت الشابة بدهشة جماهير غفيرة ترتصّ في المساحة الضيّقة الواقعة بين أسوار القصر القائمة والسلاسل الممتدة بين الصوى التي ترسم مربعات واسعة مفروشة بالرمل وسط فناء التويلري وكان صف الحرس القائم لإفساح المجال لمرور الامبراطور وأركان حربه يجد صعوبة كبيرة كي لا تخترق صفه الجماهير المتزاحمة والهادرة كقفير نحل. سألت جولي مبتسمة: سيكون العَرْض على هذا القدر من الجمال إذن؟. هتف الضابط الذي أحاط خصر جولي بذراعه ورفعها بجرأة وسرعة ليحملها إلى قرب أحد الأعمدة: خذي حذرك.

لولا هذه الحركة المفاجئة لصدم هذه النسيبة الفضولية الحصان الأبيض الجموح ذو السرج المخملي الأخضر المذهب الذي يمسك مقوده مملوك نابوليون قريبًا من الرواق المعمّد وعلى بعد عشر خطوات من جميع الخيول التي تنتظر كبار القادة مرافقي الامبراطور. ووضع الضابط الشاب الأب والابنة قريبًا من أول صوة على اليمين أمام الجمهور المحتشد، وبإشارة من رأسه أوصى بهما اثنين من الجنود القذافين القريبين من الصوّة. وعندما عاد الضابط إلى القصر أحسّ بمسحة من السعادة والسرور تزيح عن وجهه الذعر المفاجئ الذي سبّبه تراجع الحصان؛ وكانت

جولي قد شدّت على يده خفية، سواء لتشكره على الخدمة الصغيرة التي أداها لها أو لتقول له: أخيراً ها أنا أحظى برؤيتك! بل إنّها أحنت رأسها بعذوبة لتحيّته الموقّرة التي ألقاها عليها وعلى أبيها، قبل أن ينصرف سريعاً إلى تأدية مهمته. أمّا الأب الكهل الذي ابتعد عن الشابين عمداً، فقد حافظ على مظهره الرزين خلف ابنته، لكنه كان يرقبها خلسة محاولاً أن يوحي إليها بأمان مزيّف متظاهراً بالانصراف إلى تأمّل مشهد ميدان الفروسية! وعندما التفتت جولي إلى أبيها بنظرة التلميذ المتوجّس من مهابة معلمه ردّ الأب بابتسامة جزلى متسامحة، لكن عينه الثاقبة كانت تتابع الضابط حتى نهاية الرواق ولم يفته أي حدث من ذلك المشهد السريع.

- همست جولي وهي تضغط على يد أبيها: يا للعرض الرائع!

أطلق آلاف المشاهدين صيحة تعجب مماثلة، والدهشة تعلو وجوههم لدى رؤية المظهر المهيب والظريف الذي يقدّمه في تلك اللحظة ميدان كاروسل للفروسية[1]. وشغل صف متراص آخر من الناس كذلك الصف الذي يقف فيه الرجل الكهل وابنته، وعلى خطّ مواز للقصر، المساحة الضيّقة والمرصوفة التي تمتد على طول شبك ميدان الفروسية. وأنهت هذه الجموع، بتنوع زينة النساء، الرسم البيّن للمربّع الواسع الذي تشكله أبنية التويلري وذلك الشبك الموضوع حديثاً. وكانت كتائب الحرس الامبراطوري القديم التي ستقدّم العرض تملأ ذلك الميدان الفسيح، حيث تظهر في مواجهة القصر خطوط هائلة زرقاء من عشرة صفوف ممتدة في العمق. وماوراء الأسوار وفي الميدان توجد على خطوط أخرى موازية كتائب مدفعية وخيالة مستعدّة للسير في العرض تحت قوس النصر الذي يزيّن وسط

(١) ميدان الفروسية كاروسيل: ميدان قرب قصر التويلري كانت تتم فيه الاستعراضات العسكرية خاصة زمن الامبراطورية. وقد شيد فيه نابوليون بين عامي ١٨٠٦ و ١٨٠٨ قوس نصر كاروسل للمدخل قصر التويلري. وكان التويلري الذي بدئ ببنائه في العام ١٥٦٤ مقر ملوك فرنسة ووسّع عدة مرات حتى غدا قصوراً لكن لويس الرابع عشر فضّل عليه فرساي، وعادت إليه السلطة التنفيذية زمن الثورة واستمر مركزاً لها، وأحرق قسم منه من قبل «كومونة باريس» الثورية، العام ١٨٧١، وهدم القصر نهائياً في العام ١٨٨٢، وقامت على قسم من موقعه حدائق التويلري الحالية.

twitter @baghdad_library

الشبك؛ وفي ذروتها ترى في تلك الآونة خيول البندقية الرائعة[1] وكانت الفرق الموسيقية لتلك الكتائب متجمعة في أسفل أروقة اللوفر وهي محتجبة بالرمّاحين البولونيين القائمين على الخدمة. وبقي قسم كبير من المربع المفروش بالرمل فارغاً كحلبة مخصصة لحركات هذه الكتائب الصامدة ذات الكتل المنتظمة وفق تناسق الفن العسكري التي تعكس أشعة الشمس بالبريق المثلث لعشرة آلاف حربة. وكانت هذه الصفوف العريقة الصامتة والبراقة تعرض آلاف التباينات الملوّنة الناتجة عن تنوّع البزات العسكرية والزينات والأسلحة والأشرطة المجدولة المزخرفة. هذه اللوحة الواسعة تمثل ميدان معركة مصغّر قبل بدء القتال وهي محاطة شاعرياً بجميع توابعها وأحداثها الغريبة بهذه الأبنية العالية المهيبة التي يبدو أن القادة والجنود يقلّدون ثباتها، فالمشاهد يقارن لا إرادياً هذه الجُدُر من البشر بتلك الجُدُر من الحجر. وكانت شمس الربيع التي تسكب فيضاً من أشعتها على هذه الجدران البيضاء التي بنيت في العشيّة وعلى تلك الجدران العائدة إلى قرون ماضية تضيء كلياً هذه الوجوه المسمرّة العديدة التي تتحدث جميعها عن الأخطار الماضية، وتنتظر برصانة الأخطار المستقبليّة. وكان عقداء كل كتيبة يسيرون ذهاباً وإياباً أمام الجباه التي يشكلها هؤلاء الرجال الشجعان، ثم خلف كتل هذه الفيالق المبرقشة بالفضة واللازورد والأرجوان والذهب، وتمكن الفضوليون من مشاهدة الرايات الثلاثية الألوان ترفرف فوق رماح ستة فرسان بولونيين أشداء لايعرفون الكَلَل أو الملل، وهم أشبه بكلاب تقود القطيع على طول حقل شاسع الأطراف وهم يخبُّون دون توقف بين الفيالق العسكرية وجماهير الفضوليين ليمنعوا هؤلاء من تجاوز الحيّز الضيّق المخصص لهم قرب شبك القصر الامبراطوري؛ حتى ليظن الناظر لهذه الحركات أنه في قصر حسناء الغابة النائمة، وأنسام الربيع التي تداعب شرّابات قبعات القذافين تشهد على ثبات الجنود، بينما تشير تمتمات الجماهير إلى صمتهم. وأحياناً فإن قرع أحد الصنوج، أو ضربة خفيفة

---

(١) كان يعلو فوس نصر كاروسل تمثال عربة قتال من البرونز ذات دولابين وتجرها أربعة أحصنة وقد أتى نابوليون بهذا التمثال من كنيسة القديس مرقص (سان مارك) من البندقية، العام ١٨٠٩ لكنه أعيد إليها في العام ١٨١٥، في عهد الملكية الثانية، واستبدل به تمثال مماثل من صنع المثال الفرنسي فرنسوا جوزيف بوزيو.

تحدث سهواً على أحد الصناديق الكبيرة يتردّد صداها في أنحاء القصر الامبراطوري أشبه بهزيم رعد بعيد يعلن قدوم العاصفة. ويتفجّر عندئذٍ حماس لا يوصف بين الجمع الغفير المنتظرة ففرنسة متوجهة لوداع نابوليون عشية حملة يشعر بأخطارها أيّ مواطن، حملة على نتائجها يتوقف مصير الامبراطورية الفرنسية هذه المرة فإما أن تتوطد أو أن تزول، تكون أو لاتكون. كانت هذه الفكرة تحرك الجموع المدنية والجموع العسكرية، التي تتزاحم على حدّ سواء صامتة ضمن الحرم الذي يحوّم فوقه نسر نابوليون وتهيمن عليه عبقريته. هؤلاء الجنود أمل فرنسة والنقطة الأخيرة من دمها، هؤلاء الجنود سبب رئيس لفضول المشاهدين القلق. فبين معظم الحضور والعسكريين كانت تتبادل كلمات الوداع التي قد تكون الأخيرة؛ لكن جميع القلوب، حتى الأكثر عداء للامبراطور، كانت تتوجّه إلى السماء بأحرّ التضرّعات لتحقيق نصر الوطن. والرجال الذين كلّوا من الصراع الناشب بين أوروبة وفرنسة تخلّوا عن أحقادهم وهم يمرون تحت قوس النصر، وقد أدركوا أن نابوليون هو كل فرنسة عندما يحيق الخطر بها. وعندما رنت ساعة القصر تعلن الثانية عشرة والنصف توقفت تمتمات الجماهير، وعمّ الصمت العميق حتى لاتسمع كلمة طفل. وأمكن للرجل الهرم وابنته وكلّهما أعين، أن يميزا ضجّة المهاميز وصليل السيوف وهي ترنّ تحت رواق القصر ذي الأعمدة.

وفجأة برز رجل قصير القامة، ممتلئ الجسم يرتدي سترة عسكرية خضراء وسروالاً أبيض اللون وينتعل جزمة فروسيّة، ويعتمر قبعة ثلاثية الفرون تتجلّى فيه مهابة مثال مهابة الرجل؛ وشريط جوقة الشرف الأحمر العريض يختال مزهواً على صدره، وسيف قصير يبرق على جنبه؛ وتوجّهت جميع الأعين من جميع الجوانب إليه، وبدأت الطبول تقرع من جميع أنحاء الميدان وصدرت عن الفرقتين الموسيقيتين عبارة موسيقية ردّدت تعبيرها الحربي جميع آلات النَّغَم من أعذب النايات حتى أضخم الطبول. وارتعشت النفوس عند سماع هذا النداء الحربي ورفرفت الأعلام، وقدم الجنود أسلحتهم بحركة منتظمة إجماعية حرّكت البنادق من الصف الأول حتى الصف الأخير في ميدان الفروسيّة. وانطلقت إيعازات الأمر من صف إلى صفّ

twitter @baghdad_library

كالأصداء، وتعالت هتافات الجماهير المتحمّسة: يحيا الامبراطور. أخيراً انتفض كلّ شيء، وتحرك، وارتجّت الأرض: فنابوليون قد امتطى حصانه. وسكبت هذه الحركة الحياة في تلك الكتل الصامتة وانطلقت أصوات الآلات فأوقدت الحماسة في البيارق الحاملة لشارات النسر وفي جميع الرايات، وأبرقت الأسارير انفعالاً وبدَت جدران أروقة ذلك القصر القديم العالية كأنّها تهتف أيضاً: يحيا الامبراطور! كان هذا شيئاً خارقاً فوق استطاعة البشر، إنّه السحر، أو هو طيف القدرة الإلهية، أو بالأحرى صورة هاربة لهذه المملكة الأكثر هروباً وبقي الرجل المحاط بكل هذا الحبّ، والحماسة، والتضحية، والأمنيات؛ الرجل الذي أزاحت الشمسُ من أجله الغيوم عن قبة السماء، بقي هادئاً على صهوة حصانه، وثلاث خطوات تفصله عن سريّة القادة الصغيرة خلفه، وعلى يساره المارشال الأول في الجيش، وعن يمينه مارشال الخدمة، وفي صميم هذه الانفعالات التي أثارها من حوله لم تختلج قسمة من قسمات وجهه.

- أوه! يا إلهي، نعم. في وَغرام* وسط النيران، وفي موسكوفا** بين القتلى، كان دائماً هادئاً كالمعمدان. إنه هو.

كان هذا هو جواب التساؤلات العديدة الذي هتف به القذاف الذي وُجد قرب الشابة. وكانت جولي قد استغرقت مدّة في تأمّل هذا الوجه الذي يشير هدوؤه إلى ثقة كبيرة بالقدرة واطمئنان لها. ولاحظ الامبراطور الآنسة دى شانيونست، ومال نحو دوروك ليهمس له بعبارة قصيرة ابتسم لها المارشال الكبير. وبدأت المناورات. وإذا كانت الشابة حتى ذلك الحين قد وزّعت انتباهها بين وجه نابوليون الرابط الجأش وصفوف الكتائب الزرقاء والخضراء والحمراء؛ فإنها انصرفت بعدها كلياً، وسط الحركات السريعة والمنتظمة التي ينفذها هؤلاء الجنود القدامى، إلى تركيز أنظارها

---

* وغرام Wagram: قرية شمال شرق فيينا جرت فيها معركة بين الجيوش النمسوية والبروسية ونابوليون وتمكن نابوليون من إحراز النصر في نهايتها بتاريخ ٦ تموز ١٨٠٩.

** موسكوفا: المقصود بذلك معركة موسكو بين نابوليون وقيصر روسيا، وقد اجتاحها الجيش الفرنسي في ١٨١٢ لكنه اضطر للانسحاب منها بعد أن أحرقها الروس.

على ضابط شاب يجري بحصانه وسط الصفوف المتحرّكة ويعود بعد ذلك بحيوية لا تكلّ نحو رهط القادة الذين يتقدمهم نابوليون المتواضع. كان هذا الضابط يمتطي حصاناً رائعاً أسود اللون؛ ويتميّز وسط هذه الجموع المزركشة ببزة جميلة بلون أزرق سماوي خُصّ به الضباط المرافقون للامبراطور؛ وكانت توشيات بزّته تبرق ساطعة مع أشعة الشمس، وقنزعة الريش على قبعته العسكرية الضيّقة والطويلة تتلقى مزيداً من البريق الشديد حتى ليحسبها المشاهدون من نيران الجنّ أو أنها روح غير مرئية كلّفها الامبراطور بتحفيز وقيادةهذه الكتائب التي تلقي أسلحتها المتموّجة اللهب. عندما بإشارة واحدة من عينيه، تتكسّر، وتتجمع، وتدوّم كدردور هوة عميقة؛ أو تمرّ أمامه كهذه الأمواج الطويلة والمستقيمة والعالية التي يوجّهها المحيط الغاضب نحو شطآنه. عندما انتهت المناورات جرى الضابط المرافق بسرعة، ووقف أمام الامبراطور منتظراً الأوامر. وفي هذه اللحظة كان على بعد عشرين خطوة من جولي وأمام الرهط الامبراطوري فيما يماثل الموقف الذي أعطاه الرسّام جيرار للجنرال راپ* في لوحة معركة أوسترليتز وأتيح للفتاة عندئذٍ أن تنظر بإعجاب لحبيبها في كلّ بهائه العسكري. فالعقيد فيكتور دي إغلمون لم يبلغ الثلاثين من العمر، طويل القامة، مكتمل البنيان، أهيف القدّ. ويبدو حسن التناسق والانسجام أفضل ما يكون عندما يستخدم قوّته في التحكم بحصانه الذي يبدو ظهره الأنيق والمرن محنياً تحته. وقد امتلك وجهه الرجولي الأسمر تلك الجاذبية التي لا تُفسَّر و يشيعها انتظام القسمات الكامل على الوجوه الشابة. كان جبينه عريضاً عالياً، وعيناه الناريتان يظلّلهما حاجبان كثيفان وتحدّهما أهداب طويلة، وهما ترتسمان كشكلين بيضويين بين خطين أسودين. أمّا أنفه فيبدي تلك الانحناءة الظريفة المميّزة لنسر العقاب. وأرجوان شفتيه يتزيّن بانعطافتي الشارب الأسود المحتّمتين. ووجنتاه العريضتان

---

* ١) - جيرار (فرانسوا) ١٧٧٠ - ١٨٣٧، رسّام فرنسي اشتهر برسوم نابوليون وقادته ومعاركه.

٢) - راپ Raph: (١٧٧٢ - ١٨٢١) من قادة نابوليون، عينه حاكماً على دانتزيغ (١٨١٣) دخل في خدمة لويس الثامن عشر بعد عودة الملكية إلى فرنسة.

twitter @baghdad_library

القويّتان المتوردتان مع ظلال سمرة وصفرة تعبّران عن حيوية فائقة. ووجهه وهو أحد هذه الوجوه التي تدمغها البسالة بطابعها، نموذج يبحث عنه فنان العصر عندما يفكر بتمثيل أحد أبطال فرنسة الامبراطورية. كان العرق يتصبب من الحصان الذي يهزّ هامته معبّراً عن نفاد صبر بالغ، وقائمتاه الأماميتان متباعدتان ومتمركزتان على خط واحد دون أن تتقدّم أيّ منهما على الأخرى، وهو يموّج هُلب أشعار ذنبه الطويلة الكثّة، وهو في إخلاصه يقدم صورة مادية لإخلاص فارسه للامبراطور.

أحسّت جولي للحظة بالغيرة عندما لاحظت انصراف حبيبها إلى لفت أنظار نابوليون وعدم اهتمامه بالتفات إليها. وفجأة ألقى العاهل كلمة، همز بعدها فيكتور خاصرتي حصانه الذي اندفع يجري لكن ظلّ إحدى الصوى الممتد على الرمال أخاف الحيوان، فنفَر وتراجع وانتصب على قائمتيه الخلفيتين فجأة فبدا فارسه في خطر؛ وصرخت جولي وشحب لونها والتفت إليها من حولها بفضول؛ لكنها لم تر أحداً فعيناها مسمّرتان على هذا الحصان الوثّاب بانفعال الذي عاقبه الضابط على جموحه مع جريه لتبليغ أوامر نابوليون.

شغلت هذه اللوحات المذهلة بال جولي حتى أنها تعلّقت بذراع والدها، فكشفت له دون إرادة منها عن أفكارها بأصابعها التي كانت تتحرك وتضغط وفقاً لمجريات الأحداث. وعندما أوشك فيكتور أن يسقط عن ظهر حصانه تعلّقت بعنف بوالدها وكأن خطر السقوط قد وقع عليها. وتأمل العجوز بقلق قاتم مؤلم وجه ابنته الشاحب، وبدت على تجاعيد وجهه المتغضنة عواطف الشفقة والغيرة بل والأسف. ولكن عندما كشف بريق عيني جولي والصيحة التي أطلقتها، وحركة أصابعها المتشنّجة حبّها الخفي، تجلّت أمام الأب رؤى مستقبل حزينة وظهر على وجهه تعبير مشؤوم. وفي هذه اللحظة بدت روح جولي وكأنها حلّت في روح الضابط، وما لبثت فكرة أقسى من جميع ما سبق أن روّعت العجوز قسمات وجهه المتألّم، عندما رأى دي إغلمون، عند مروره أمامها، يتبادل مع جولي المخضلّة العينين، والتي أشرقت أساريرها بحيوية فائقة، نظرة تواطؤ وتفاهم، مما دفع العجوز ليقود ابنته فجأة إلى حديقة التويلري.

- قالت معترضة: ولكن يا أبي ما تزال بعض الكتائب تناور في ساحة ميدان الفروسية.

- كلا، يا ابنتي، فجميع الفرق قامت بعرضها.

- أعتقد يا أبي أنك مخطئ، فقد ذهب السيد دي إغلمون ليقدّمها...

- لكنني متضايق يا بنتي، ولا أريد البقاء.

لم تجد جولي عناءً في الاقتناع بقول أبيها عندما وجهت ناظريها نحوه ورأت المظهر المتداعي الناتج عن قلقه الأبوي.

سألته بلا مبالاة لشدة انشغالها: هل تتألم كثيراً؟

أجاب العجوز: أليس كل يوم من حياتي منّةً من الله عليّ؟

- ستكدّرني إذن بالحديث عن موتك. كنت منشرحة النفس! فاطرد هذه الأفكار السوداء القبيحة.

- هتف الأب وهو يتنهّد: آه! أيتها الابنة المدلّلة! إنّ أطيب القلوب تقسو أحياناً.

ننذر لكم حياتنا، ولا نفكر إلا بكم، ونعمل لرفاهكم، ونضحي بكل ما نشتهي لإرضاء نزواتكم، ونعبدكم، ونبذل دمنا من أجلكم. أهذا إذن، لاشيء؟ للأسف نعم، تقبلون كل شيء بلا مبالاة، ومن أجل الحصول دائماً على ابتساماتكم، وحبكم المستخفّ يجب امتلاك القدرة الإلهية. وفي النهاية يأتي شخص آخر! عاشق، أو زوج فينتزع منا قلوبكم. نظرت جولي مندهشة إلى أبيها الذي كان يسير ببطء وهو يلقي عليها نظرات تخلو من كل بريق.

واستأنف الأب: حتى أنكم تحتجبون عنا، وربّما عن أنفسكم...

- ماذا تعني بهذا القول يا أبي؟

- أعني أن لك أسراراً تخفينها عني يا جولي. إنّك عاشقة. وتابع العجوز بحرارة وهو يرى حمرة الخجل تصبغ وجنتي ابنته. آه! كنت آمل أن أراك أمينة

twitter @baghdad_library

لوالدك الشيخ حتى موته، كنت أمل أن احتفظ بك قربي سعيدة، متألقة! أن أتأملك بإعجاب كما كنت حتى عهد قريب. كنت أستطيع، وأنا أجهل نصيبك، أن أؤمن بمستقبل هادئ مطمئن لك. أما الآن فيستحيل أن يخالجني الأمل بسعادتك في الحياة، لأنك تحبين فيكتور العقيد أكثر من حبك له كابن عم. لا يعتورني أي شكّ بذلك الآن.

- هتفت جولي بتعبير يملؤه الفضول: ولماذا يُحرّم علي حبّه؟

- أجاب الأب متنهداً: آه! يا ابنتي الحبيبة جولي، إنك لن تفهميني أبداً.

استأنفت الشابة بعد أن بدرت منها حركة تبرّم: قل ما يجول في خاطرك.

- إيه! وبعد، يا ابنتي، اسمعي. إن الفتيات يبتكرن غالباً صوراً رائعة نبيلة؛ ووجوهاً مثاليّة، ويبتدعن أفكاراً خيالية عن الرجال، والعواطف، والعالم؛ ثم ينسبن ببراءة لطبع امرئ الفضائل التي حلُمن بها، ويثقن به، يحببن في الرجل الذي اخترنه ذلك المخلوق الخيالي؛ ولكن فيما بعد، وبعد فوات الأوان على تحررهن من الشقاء، ومن المظهر الخدّاع الذي جمّلنه، يتغيّر معبودهن الأول، أخيراً، إلى هيكل بغيض ممقوت. جولي أفضّل أن تعشقي عجوزاً على أن أراك عاشقة للعقيد. آه! لو أن بإمكانك أن تستشفّي حياتك بعد عشر سنوات معه لأدركت صحة رأيي. إنّني أعرف فيكتور: إن مَرَحه خال من الروح، مرح الثكنة، وهو دون موهبة، ومبذّر. إنه أحد هؤلاء الرجال الذين خلقتهم السماء ليتناولوا أربع وجبات في اليوم وليهضموها، وليناموا ويحبوا أول وافدة ويقاتلوا. إنّه لا يسمع صوت الحياة. وقلبه الطيب، لأنّه ذو قلب طيّب، قد يدفعه إلى أن يهب كل ما في محفظته لمسكين، أو لصديق محتاج، لكنه لا مبال، ولم يوهب القلب المرهف الذي يجعلنا عبيداً لإسعاد امرأة؛ إنّه جاهل، وأناني. . . إن محاذيره كثيرة.

- ولكن يا أبي، يجب أن يمتلك الروح والوسائل التي أهّلته ليصل إلى رتبة عقيد. .

- استأنف الأب الشيخ: ياعزيزتي، سيبقى فيكتور عقيداً طيلة حياته. لم أنق

حتى الآن شخصاً يبدو لي جديراً بك. وتوقف لحظة وتأمل ابنته وأضاف: ولكن يا حبيبتي جولي، ما تزالين في مطلع الشباب. في منتهى الضعف والرقة لتحمل هموم الزواج ومتاعبه. دلّل أهل دي إغلمون ولدهم، كما دللناك أنا وأمك، فكيف تتوقعان أن باستطاعتكما التفاهم بهاتين الإرادتين المختلفتين اللتين لايمكن التوفيق بين جبروتيهما؟ ستكونين الضحيّة أو الطاغية، وكلّ من هذين الاختيارين يحمل قدراً مساوياً من التعاسة لحياة امرأة. وأنت ناعمة ومتواضعة، وستذعنين في البدء. ثم أردف بصوت متهدّج، أخيراً أنت تملكين إحساساً مرهفاً لن يُقدّر، وعندئذ . . . وغلبته الدموع فلم يتمم كلامه، لكنه تمالك نفسه واستأنف: سيجرح فيكتور المزايا الطيّبة في روحك الشابة. إنني أعرف العسكريين، يا جولي، فقد عشت بين الجيوش؛ ومن النادر أن يتمكن قلب هؤلاء الأشخاص من الانتصار على العادات المكتسبة، أو على المصائب التي يعيشون في خضمّها، أو على مصادفات حياتهم المغامرة.

عقبت جولي بلهجة اختلط فيها الجدّ بالهزل: أتريد إذن يا أبي معاكسة عواطفي، وتزويجي من أجلك لا من أجلي؟

- صاح الأب وقد انتابته الدهشة: أزوّجك من أجلي! يا ابنتي، أنا الذي سيغيب قريباً صوته الموبّخ بشكل حتّي عنك. كنت أرى دائماً الأولاد يعزون تضحيات أهلهم لهم إلى عاطفة شخصية! تزوّجي فيكتور يا جولي، يا ابنتي، وفي يوم ستأسفين بمرارة لعدم كفاءته، وفوضاه، وأنانيته، وفظاظته، وحماقة نظرته للحبّ، وغيرها من الهموم التي سيسببها لك. وعندئذ تذكّري كلمات أبيك العجوز التنبئيّة التي رنّت عبثاً تحت هذه الأشجار ولم تسمعها أذناك!.

صمت العجوز فقد فاجأ ابنته وهي تهزّ رأسها بطريقة متمرّدة. وسار الاثنان بضع خطوات نحو الشبك حيث أوقفا عربتهما. وخلال ذلك السير الصامت نظرت الشابة خلسة إلى وجه والدها، وتخلّت تدريجياً عن هيئتها الحردة، ولاحظت الألم العميق المنقوش على ذلك الجبين المطأطئ نحو الأرض مما أثّر في نفسها تأثيراً عميقاً.

twitter @baghdad_library

- قالت بصوت عذب متهدّج : أعدك يا والدي ألاّ أنطرق إلى ذكر ڤيكتور قبل أن يتبيّن لك خطأ شُبهاتك فيه .

نظر العجوز الى ابنته بدهشة ، وتدحرجت دمعتان من عينيه فبلّلتا وجنتيه المجعدتين . ولم يتمكن من تقبيل جولي أمام الجماهير المحيطة به ، لكنه شدّ بحنان على يدها . وعندما صعد إلى العربة اختفت كلياً جميع الأفكار المقلقة التي تراكمت على جبينه . فمظهر ابنته المشوب ببعض الحزن يقلقه الآن أكثر من البهجة البريئة التي كشفت سرّ جولي خلال الاستعراض .

في الأيام الأولى من شهر آذار ١٨١٤ ، بعد مضي أقل من سنة على العرض الامبراطوري ، كانت عربة تسير على طريق أمبواز - تور . وبعد أن تركت أيكة أشجار الجوز الخضراء حيث تحتجب محطة استراحة الخيل في ڤرِيير جرت العربة بسرعة فوصلت بعد مدّة قصيرة إلى الجسر المبني على نهر السيز عند مصبّه في اللوار ، وعندئذٍ انقطع أحدمجارّها* عقب الاندفاع العاصف الذي مارسه حوذي شاب ، بأمر من سيده ، على الخيول الأربعة البديلة الأكثر نشاطاً . وهكذا تمكّن الشخصان الموجودان في العربة عند استيقاظهما من أن يتمتعا بمحض مصادفة ، بتأمل أحد أجمل المواقع التي تقدّمها شطآن اللوار الرائعة . فعلى يمين المسافر يعانق النظر جميع تعاريج السيز الذي يجري كأفعى فضيّة في عشب المروج التي تمنحها خضرة الربيع الأولى لون الزمرُّد ، وإلى اليسار يظهر اللوار بكلّ بهائه ، ووجيهات بعض التموّجات التي لا حصر لها الناتجة عن نسمات الصباح الأولى الباردة قليلاً ، تعكس تلألؤات أشعة الشمس على الأبسطة الأولى التي ينشرها هذا النهر العظيم ، وهنا وهناك تتتابع جزر مخضوضرة على صفحة المياه كجواهر قلادة ثمينة . ومن الجهة الأخرى من النهر تعرض أجمل أرياف تورين على مدى النظر كنوزها ؛ وفي الأفق البعيد لاتصادف العين حدوداً أخرى غير هضاب شير التي ترسم قممها في هذه اللحظة خطوطاً مضيئة في لازورد السماء الشفاف . وعبر خضرة الجزر اليانعة في عمق

* المجار : جمع مجرّ : والمجرّ حبل أو رباط من جلد يُقرن به حصان الجرّ إلى العربة .

اللوحة تبدو مدينة تور كأنّها البندقية خارجة من المياه، وأبراج أجراس كاتدرائيتها القديمة تتعالى في الأجواء لتختلط مع بعض أشكال خيالية لغيوم مبيضّة. وما بعد الجسر الذي توقفت عليه العربة، يلاحظ المسافر أمامه، على طول اللوار حتى مدينة تور، سلسلة من الصخور تبدو الطبيعة وكأنها بنزوة منها، قد وضعتها لتحصر النهر الذي تَحُتُّ أمواجهُ دون انقطاع الحجر في مشهد يثير دائمًا الدهشة. وهجعت قرية ڤوڤري في خَانق ركام هذه الصخور الذي بدأ يرسم منعطفًا أمام جسر سيز ثم من فوفري حتى تور تسكن عائلات من الكرّامين بين التعرّجات والثنيات المفرطة في تلك الهضبة المزّقة؛ وفي أكثر من مكان تتدرج منازل محفورة في صخور سفوحها بحيث تصل إلى ثلاثة طوابق تصل فيما بينها سلالم خطيرة منقوشة في الصخر بالذات، وفي أعلى سطح تشاهد شابّة بتنورة حمراء تركض باتجاه حديقتها الموازية لذلك السطح، بينما تنتصب مدخنة مدفأة ذلك المنزل بين سرع الكرمة وحجنَاتها*، والبستانيون يفلحون الحقول المتعامدة، وامرأة عجوز تجلس هادئة فوق شير صخر تدير دولاب مغزلها تحت أزهار شجرة لوز، وتتأمّل مبتسمة المسافرين المرتعبين المارين من تحت صخرتها، وهي لا مبالية بتشققات التربة ولا بخرائب جدار قديم مائل، ثبتت بعض جذور متعرجة من عرائش اللبلاب أساسه المتداعي. ومطرقة البراميلي ترَجُّ قناطر الأقبية الهوائية، أخيرًا فالأرض مزروعة وخصبة في كلّ مكان رفضت الطبيعة فيه أن يكون مقرًا للصناعة البشرية. وهكذا فلا شيء متماثل على مجرى اللوار ضمن هذه اللوحة الغنية التي تعرضها منطقة تورين أمام عيني المسافر وهي بمشاهدها الثلاثية التي لمحنا إليها توفّر للروح أحد هذه المناظر التي تترسخ بشكل دائم في الذاكرة، وعندما يستمتع بها أحد الأدباء فإن أحلامه تعيد في الغالب تأثيراتها الإبداعيّة بشكل خارق. وفي اللحظة التي وصلت فيها العربة إلى جسر سيز فإن عدة زوارق كانت تنشر أشرعتها البيضاء، متجولة بين جزر اللوار تعطي تناسقًا جديدًا لهذا الموقع المتناسق، وأريج السوحر المطلّ على النهر يسكب رائحة عطرية نفاذة في

---

* سرع: قضبان الكرمة الحوليّة الغضّة.

حجنات: قضبان الكرمة الصغيرة التي تحمل عناقيد العنب.

twitter @baghdad_library

النسيم المنعش البليل، وأسراب الطيور تصدح بشدوها المتواصل فتمتزج بغناء راعي ماعز يتردد بنَغَم كئيب بينما صياح البحّارة يعلن عن حركة بعيدة تعجّ بالنشاط. وعلى الضفة تحتجز الأشجار المتفرقة في ذلك المدى الفسيح بعض ضباب خفيف يمنحها آخر جاذبية. هذه هي منطقة تورين بكل مجدها، وهذا هو الربيع بكل بهائه، وهذه المقاطعة من فرنسة هي الوحيدة التي وجب ألا تعكّرها مطلقًا الجيوش الأجنبية، وكانت الوحيدة الهادئة في تلك الآونة، حتى ليقال إنّها تتحدّى الغزو.

أطلّ رأس يعتمر قبعة شرطي خارج العربة التي توقفت عن سيرها، وفتح عسكري نافد الصبر بنفسه الباب وقفز إلى الطريق كأنّه يريد أن يوبّخ الحوذي، لكن المهارة التي أبداها التوريني في إصلاح المجرّ المقطوع طمأنت العقيد الكونت دي إغلمون الذي عاد إلى باب العربة وهو يفتح ذراعيه كأنه يوقظ عضلاته الهاجعة؛ وتثاءب، وتأمّل المشهد ثم وضع يده على ذراع المرأة الشابة الملتفة بعناية في معطف صوفي ثخين.

- قال الضابط بصوت أبحّ: هيا يا جولي، استيقظي وتأملي جمال الطبيعة، إنّها رائعة هنا. مدت جولي رأسها خارج العربة وقد اعتمرت قبعة فرو سمور حجبت شعرها، كما أن المعطف الثخين المبطن أخفى قوامها حتى لايرى إلا وجهها. لم تعد جولي دي إغلمون تشبه تلك الفتاة التي كانت تقفز مرحة سعيدة خلال عرض التويلري العسكري، فوجهها الناعم دومًا حُرِمَ من تورّد كان يُغنيه ببريق العافية، وخصلات شعرها السوداء المشعّثة من رطوبة الليل أظهرت شحوبًا ظاهرًا في قحف رأسها الذي بدا وكأنه فقد حيويته، لكن عينيها كانتا تبرقان بتوهج غير طبيعي، وتحت أجفانها مسحة بنفسجية ترتسم حتى وجنتيها التعبتين. وتأمّلت بنظرة لامبالية أرياف الشير واللوار وجزره، وتور وصخور ڤوڤري المتطاولة، ثم عادت بسرعة إلى المقعد الخلفي في العربة دون أن تهتم بمرأى وادي السيز وقالت بصوت بدا في الهواء المطلق بمنتهى الضعف:

نعم، إنه منظر حريّ بالإعجاب. كان يبدو من وضعها، ولسوء حظها، أنها تمكنت من التغلّب على معارضة أبيها.

- سألها الضابط: جولي، ألا تحبين العيش هنا؟

- أجابت بلا مبالاة: هنا، أو في مكان آخر، سيّان.

- هل ثمة ما يؤلمك؟.

- أجابت الشابة بحيوية مفاجئة وهي تتأمل زوجها مبتسمة: كلا، ولكنني أريد أن استمر في الرقاد.

سُمِعَ فجأة وَقْع خبب حصان، فترك فيكتور دي إغلمون يد زوجته، وتلفّت نحو منعطف الطريق في ذلك المكان. وفي اللحظة التي غفل فيها عن زوجته، اختفى مظهر البهجة عن وجهها الشاحب، كأنه برق خلّب خبا؛ إذ لم تخالجها الرغبة في تأمل المنظر المحيط بها، ولا الفضول لمعرفة الفارس الذي يجري به حصانه بهيجان بل ركنت في زاوية العربة تُحدّق بأكفال الخيل وقد خلت نظرتها من أي معنى، فبدت بمظهر أبله مماثل لذلك القروي البريتوني الذي يستمع إلى عظة كاهن قريته. وبرز فجأة شاب يمتطي حصان سَبَقٍ من أيكة أشجار الحور والزعرور المزهرة.

- قال العقيد: إنه إنكليزي.

- عقب الحوذي: آه! يا إلهي. نعم يا سيادة اللواء إنّه من سلالة هؤلاء الذين يقال إنّهم يريدون ابتلاع فرنسة.

كان المجهول أحد هؤلاء المسافرين الذين وُجدوا في القارة الأوروبية عندما أوقف نابوليون جميع الإنكليز انتقامًا لاعتداء وزارة سان جيمس على حقوق الأشخاص أثناء نقض معاهدة إميان* . ولم يبق هؤلاء الأسرى الذين رضخوا لنزوة

* معاهدة إميان: معاهدة صلح تمت في العام ١٨٠٢ بين إنكلترة وفرنسة وأنهت التحالف ضد فرنسة.

twitter @baghdad_library

السلطة الامبراطورية في الأماكن التي احتجزوا فيها، ولا في تلك التي خيروا بالإقامة فيها. ومعظم أولئك الذين كانوا يسكنون تورين في تلك المدّة نُقلوا إليها من أماكن متعددة من الامبراطورية حيث بدت إقامتهم مضرّة بمصالح السياسة القارية. كان الأسير الشاب الذي يتنزه في صباح ذلك اليوم الباكر دفعًا للملل هو أحد ضحايا السلطة البيروقراطية. فمنذ سنتين صدر أمر من وزارة العلاقات الخارجية باقتلاعه من مناخ مونبليه حيث فاجأه خرق اتفاقية السلام أثناء استشفائه من علّة صدرية. وفي اللحظة التي تعرّف ذلك الشاب فيها على شخصية عسكرية في الكونت دي إغلمون أسرع بحرف رأسه ملتفتًا نحو مروج السيز تجنبًا لنظراته.

قال العقيد متمتمًا: جميع هؤلاء الإنكليز متغطرسون كأنهم يمتلكون الكرة الأرضية ولحسن الحظ سيذيقهم سولت[1] مرّ العذاب.

عندما مرّ الأسير من أمام العربة ألقى عليها نظرة عابرة استطاع فيها رغم قصرها أن يلحظ ملامح الكآبة على وجه الكونتيسة الغارق في أفكار لايُعرف كنهها. يوجد أشخاص كثيرون تنفطر قلوبهم لرؤية الألم في ملامح امرأة. فهو في نظرهم وعد برباطة الجأش أو عهدٌ على الحب. وكانت جولي مستغرقة في تأمّل إحدى وسائد عربتها فلم تنتبه لمرور الحصان أو للفارس وكان المجرُّد أصلح بسرعة وشدّ إلى الحصان، وصعد الكونت إلى العربة، وأراد الحوذي أن يستدرك الوقت الضائع ويصل بالمسافرين بسرعة إلى القسم من الصعدة التي تحيط بالصخور المعلّقة التي تنضج بين جوانبها مصادر خمور فوفري حيث يتعالى عدد من المنازل الجميلة، وحيث تظهر على البعد خرائب دير مارموتيه الشهير الذي كان مقر اعتزال القديس مارتن.

هتف العقيد وهو يتطلّع إلى الخلف ليتأكّد أن الفارس الذي يتبع عربته منذ جسر السيز هو الشاب الإنكليزي: ماذا يريد منا هذا الميلورد ذو البشرة الناعمة الناصعة البياض؟

---

(١) سولت: «نيكولا» (١٧٦٩ ـ ١٨٥١): مارشال فرنسي أوقف في العام ١٨١٤ تقدّم ولنغتون في معركة تولوز، سمي وزيراً للحربية في عهد ملكية تموز كما استلم رئاسة الوزارة أكثر من مرة.

وبما أن المجهول لم يتعد حدود التهذيب وهو يتنزه على درب الصعدة، عاد العقيد إلى زاوية عربته بعد أن ألقى نظرة متوعّدة على الانكليزي، لكنه لم يستطع، رغم كراهيته اللاإرادية، إلا أن يقدّر جمال الحصان وجاذبية الفارس. فالشاب يتميّز بأحد هذه الوجوه البريطانية بملامحها الدقيقة وبشرتها الناعمة البيضاء حتى ليفترض أحيانًا أنها تعود إلى جسم شابّة مرهف. كان أشقر اللون، أهيف وطويل القامة. يرتدي بزّة متميّزة بالنظافة التي اشتهر بها متأنقو انكلترة المحتشمة. ويمكن أن يقال إنّه احمرّ خجلاً أكثر منه متعة لمظهر الكونتيسة التي رفعت عينيها لمرة واحدة لتنظر إلى الغريب، وقد فعلت ذلك بناء على طلب زوجها لتتأمّل قوائم حصان أصيل السلالة. والتقت آنذاك عينا جولي بعيني الإنكليزي الخجول. ومنذ تلك اللحظة عمد النبيل الإنكليزي إلى أن يخبّ بحصانه خلف العربة بدلاً من أن يسير على محاذاتها. لكن الكونتيسة بإلقاء نظرة عابرة على الغريب لم تلاحظ أيًّا من الفضائل المميّزة للبشر أو للخيل التي أشار إليها زوجها، واستلقت ثانية في زاوية العربة بعد أن عبّرت بحركة من حاجبيها على موافقتها لرأي زوجها، وعاد العقيد إلى النوم حتى وصل الزوجان إلى تور دون أن يتفوّها بكلمة؛ ودون أن تجتذب المناظر الرائعة للمشهد المتبدّل الذي يسافران عبره ولو لمرة واحدة انتباه جولي. وعندما غفا زوجها تأمّلته السيدة دي إغلمون أكثر من مرّة، وفي آخر نظرة ألقتها عليه أسقطت رجّة من العربة على ركبتي المرأة الشابة رصيعة معلّقة في عنقها بقلادة سوداء دلالة الحداد، وبدت لها صورة أبيها فجأة فجرت الدموع من عينيها بعد أن كانت مكبوتة مدّة، وربّما رأى الإنكليزي آثارها الرطبة البرّاقة على وجنتيها الشاحبتين، لكن الهواء جففهما بسرعة.

كان العقيد دي إغلمون مكلّفًا بحمل تعليمات الامبراطور للمارشال سولت المدافع عن فرنسة وصدّ عدوان الغزو الإنكليزي الذي جرى في منطقة بيارن، وقد استغلّ مهمته لإبعاد امرأته عن الأخطار التي تهدّد آنذاك باريس، وأتى بها إلى تور حيث تقيم نسيبة له عجوز، وها هي العربة تجري الآن على بلاط تور حتى الجسر ثم الشارع الكبير حيث توقفت أمام القصر القديم الذي تقيم فيه المركيزة السابقة دي ليستومير ـ لاندون.

twitter @baghdad_library

كانت المركيزة* إحدى تلك العجائز الجميلات ذوات اللون الشاحب، والشعر الناصع البياض، والابتسامة الناعمة، هؤلاء العجائز اللواتي يظهرن وكأنّهن يحملن سلّة بتلك القبعة التي لايعرف الطراز الذي تعود إليه. إنّهن بعمرهن السبعيني نموذج قرن لويس الخامس عشر وهنّ دائمًا ملاطفات، كأنهن مازلن عاشقات، متعبّدات أكثر منهن ورعات، متظاهرات أكثر منهن متعبّدات. يتضوّع منهن باستمرار عطر ذرور زوجة المارشال. يروين أمتع الحكايات، ويتحدثن أفضل مما يروين، ويضحكن للذكريات أكثر من ضحكهن للفكاهات. ويمتعضن من متابعة الأحداث السياسية.

عندما جاءت وصيفة عجوز تعلن للمركيزة (ذلك أنها استعادت حديثًا لقبها النبيل) زيارة ابن أخ لها لم تره منذ بداية حرب إسبانية، رفعت بسرعة نظاراتها وأغلقت كتابها المفضّل رواق البلاط القديم، وهرعت بخفة لتصل إلى عتبة السلّم العريض الخارجي بينما الزوجان يصعدان درجاته.

تبادلت العمّة ونسيبتها نظرة سريعة، بينما هتف العقيد وهو يطوّق السيدة العجوز ويقبلها وهو يقول: أسعدت صباحًا يا عمتي العزيزة، أتيتك بضيفة شابّة إنني أعهد إليك بكنزي، وحبيبتي جولي ليست لعوبًا، ولاغيورًا، بل إنّها بعذوبة ملاك... وتوقّف لحظة ثم استأنف: وآمل ألا تفسد طباعها هنا.

أجابت الكونتيسة وهي توجه إليه نظرة ساخرة: يا للفتى الخبيث!

وبادرت بلطف وتودّد إلى معانقة جولي التي بدت غارقة في التفكير ومرتبكة أكثر منها فضولية، بينما استأنفت المركيزة العجوز:

---

* ورد لقبها هنا وفي بعض صفحات تالية كونتيسة، ثم أعطاها المؤلف لقب مركيزة وفضلنا منذ البدء اطلاق لقب المركيزة عليها تمييزًا عن لقب الكونتيسة المعطى لجولي (المترجم).

- سنتعارف جيداً إذن، يا حبيبة قلبي، لا ترتعبي مني كثيراً، وسأحاول أن أتجنب الشيخوخة بصحبة من هي في نضرة الشباب.

وقبل الوصول إلى قائمة الاستقبال طلبت المركيزة من مدبّرة المنزل، وفقًا لعادات الأقاليم، إعداد الغداء لضيفيها، لكن الكونت قطع على عمته بلاغة تعليماتها بتصريحه جاداً إنّه لايستطيع التوقف إلا للآونة القصيرة التي يستغرقها إبدال خيول العربة، ودخل الأنسباء الثلاثة سريعًا إلى الصالة، واستغلّ العقيد تلك الدقائق لينبئ عمته بالأحداث السياسية والعسكرية التي تلزمه على أن يطلب ملجأ لزوجته الشابة. وخلال حديثه كانت العمة تنقل بصرها بين ابن أخيها الذي يتكلم دون أن يقاطعه أحد وزوجته التي تزايد حزنها وشحوبها وخيل للعجوز أن مردّ ذلك يعود إلى هذا الفراق الاضطراري، وبدا عليها وكأنها تردّد في نفسها: إيه! إيه! إن هذين الشابين متحابان.

في تلك اللحظة سمعت فرقعة سوط الحوذي في الفناء الصامت القديم الذي رسمت طلائع العشب الحدود بين بلاطاته، فقبّل فيكتور مجدّدًا المركيزة، وانطلق مسرعًا خارج القاعة.

قال وهو يعانق زوجته التي تبعته حتى العربة: وداعًا يا حبيبتي.

قالت بصوت حنون: أوه! يا فيكتور، دعني أرافقك إلى مسافة أبعد أيضًا، لاأريد أن أفارقك الآن...

- أوتظنين إمكان ذلك؟

- إيه! حَسَن، وداعًا، ما دامت هذه إرادتك.

واختفت العربة.

قالت المركيزة لنسيبتها وهي تلقي عليها تلك النظرات الخبيرة التي تعرف العجائز جيّدًا كيف يوجهنها للشابات: أنت تحبين إذن عزيزي المسكين فيكتور حبًا جمًا؟

twitter @baghdad_library

- أجابت جولي: للأسف، يا سيدتي، ألا يجب الشعور بالحبّ نحو رجل للزواج منه؟ نطقت هذه العبارة الأخيرة ببعض سذاجة كشفت في آن معاً عن قلب طيب وأسرار عميقة، والحال كان من الصعب على امرأة مثل الكونتيسة دي ليستومير - لا ندون صديقة دوكلو* والمارشال دي ريشليو** ألا تسعى لجلاء سرّ هذين الزوجين الشابين. وكانت العمة ونسيبتها في تلك اللحظة على عتبة مدخل القصر، منشغلين بتأمل العربة التي تجري مبتعدة؛ ولم تكن عينا جولي تعبران عن الحب كما تفهمه الكونتيسة البروفنسية ذات العواطف المتأجّجة.

سألت المركيزة: هكذا إذن وقعت تحت تأثير هذا الشاب الشقي ابن أخي؟

ارتعشت جولي بشكل لا إرادي، فلهجة ونظرة هذه العجوز اللعوب في أيام شبابها تكشفان عن خبرة بطبع فيكتور قد تكون أكثر عمقاً مما تعرفه عنه. وبدت السيّدة دي إغلمون قلقة، وتجلببت بذلك الكتمان الأخرق، الملجأ الأول للقلوب الساذجة المتألمة. واكتفت السيدة ديّ ليستومير بأجوبة جولي، لكنها فكّرت ببهجة أنّها ستتسلى في عزلتها بأحد أسرار الحبّ، إذ بدا لها أن لنسيبتها مشروع مغامرة عاطفية مسليّة تنساق إليه. عندما وجدت السيدة دي إغلمون نفسها في صالة كبيرة مفروشة بسجف تحيط بها قضبان مذهبة، وهي جالسة قرب مدفأة تتأجج النار فيها وقد حماها حاجز صيني واق من ريح الشمال المتسربة من شقوق النوافذ أحسّت بحزن لايمكن أبداً أن ينقشع، إذ يصعب أن يُولَد الانشراح تحت زخارف بمثل هذا القدم وبين أثاث يعود إلى قرون؛ غير أن شعوراً بالارتياح تولّد في نفس الباريسية الشابة وهي في هذه العزلة العميقة وفي صمت الريف الجليل؛ وبعد أن تبادلت بعض الكلمات مع هذه العمّة التي كتبت لها في السابق رسالة عروس جديدة، بقيت صامتة كأنها تستمع إلى موسيقى أوبرا؛ وبعد ساعتين من هدوء جدير بالكمائن المنصوبة

---

* دوكلو، شارل (١٧٠٤ - ١٧٧٢): كاتب فرنسي أخلاقي متشائم، عضو الأكاديمية.

** المارشال دي ريشليو (١٦٩٦ - ١٧٨٨) سياسي فرنسي، كان صديقًا لفولتير، جسّد حياة المجون والفجور، ورد اسمه مرات عديدة في الملهاة الإنسانية.

لاحظت الشابة عدم تهذيبها نحو عمتها، وتذكّرت أنّها لم تجب على أسئلتها إلا بكلمات باردة، أمّا السيّدة العجوز فقد احترمت نزوة نسيبتها مدفوعة بعذوبة فطريّة تميّز أفراد العهد السابق.

وكانت قد انشغلت حالياً بشغل الصنارة بعد أن خرجت عدة مرّات لتتأكد من قيام الخدم بتجهيز إحدى غرف القصر المسماة **الغرفة الخضراء** لمنامة ضيفتها، والإيعاز بنقل أمتعتها إليها. أما الآن فقد جلست على كنبة عريضة وهي تتأمّل نسيبتها الشابّة خفية وخجلت جولي لانصرافها إلى تأملاتها التي لا تقاوم فحاولت أن تعتذر.

قالت العمة: ياصغيرتي العزيزة، إننا نعرف معاناة الأرامل.

يجب أن يكون المرء في سن الأربعين ليدرك السخرية التي عبّرت عنها شفتا السيدة العجوز. وفي اليوم التالي كانت الكونتيسة دي أغلمون أفضل حالاً وهي تتبادل الحديثْ مع السيدة دي ليستومير التي لم تيأس أبداً من تطويعْ هذه الزوجة الشابة التي اعتبرتها أولاً فتاة متوحشة حمقاء؛ فاستعرضت أمامها المسرات التي يمكن أن تحظى بها في المنطقة من حفلات رقص تدعى إليها وبيوتات تزورها؛ وكانت جميع عروض المرأة المتبجحة خلال ذلك اليوم أشراكاً لم تستطع العمة العجوز أن تمتنع عن نصبها، وفقاً لعادة قديمة في البلاط، لتكتشف منها طبع نسيبتها. وقاومت جولي جميع إلحاحاتها في السعي إلى أسباب اللهو خارج المنزل، وهكذا فرغم رغبة السيدة العجوز في أن تنزّه بزهو نسيبتها الفاتنة انتهت إلى العدول عن اصطحابها في زيارات اجتماعية، ووجدت الكونتيسة دي إغلمون ذريعة لعزلتها وكآبتها في حزنها على وفاة والدها الذي ماتزال تلبس ثياب الحداد وفاء لذكراه. ولم تنقض ثمانية أيام حتى أبدت النبيلة العجوز مزيداً من الإعجاب برقة جولي الملائكية، ومحاسنها المحتشمة، وروحها المتسامحة، واهتمت منذ ذلك الحين اهتماماً كبيراً بهذه الكآبة الغامضة التي تضني قلبها الفتي، فالكونتيسة دى إغلمون إحدى أولئك السيّدات اللواتي خُلقن ليكنّ محبوبات، ويبدو أنهن يجلبن السعادة معهن وغدت صحبتها

twitter @baghdad_library

بمنتهى العذوبة والأهمية للسيدة دي ليستومير التي تعلقت بنسيبتها ورغبت ألا تفارقها أبدًا. ولم يمض شهر حتى توطّدت بينهما صداقة متينة، ولاحظت السيّدة العجوز ببعض دهشة التغيرات التي طرأت على ملامح السيّدة دي اغلمون، فالحمرة المتضرّجة التي كانت توهّج وجهها اختفت تدريجيًا ليحلّ محلها ذلك اللون العاجيّ الشاحب، وغدت جولي بفقدانها بريقها البدائي أقل حزنًا، بل إن النبيلة العجوز أيقظت لدى نسيبتها الشابة مظاهر بشر، أو ضحكات مرحة كانت تُكبت سريعًا بفكرة مزعجة، وخمّنت أن سبب الكآبة العميقة التي تَلقي حجابًا على حياة نسيبتها لايعود للذكرى الأبوية، ولا لغياب فيكتور، ثم انتابتها كثير من الظنون السيّئة التي يصعب تبديدها حول السبب الحقيقي لهذا الغمّ، إذ أننا، في الغالب، لانتوصل إلى الحقيقة إلا بمحض مصادفة. فقد أظهرت جولي في أحد الأيام، أخيرًا، أمام عيني عمّتها المنذهلة نسيانًا تامًا لكونها سيّدة متزوجة، وأبدت رعونة مراهقة طائشة، وسلامة نية، وولَدَنَة جديرة بمقتبل العمر، وكل مظاهر تلك الروح المرهفة وأحيانًا العميقة التي تميّز شباب وشابات فرنسة. وعزمت السيدة دي ليستومر أن تسبر أسرار تلك الروح ذات الطبيعة المتطرّفة التي تلتزم بكتمان لايخترق؛ وحلّ الليل والسيّدتان جالستان أمام نافذة تطلّ على الشارع، وعادت جولي إلى استغراقها في التفكير؛ فقد مرّ رجل على صهوة حصان.

- قالت السيدة العجوز: هوَذا أحد ضحاياك.

نظرت السيدة دي اغلمون إلى عمتها مبدية دهشة يخالطها القلق. واستأنفت العمّة:

- إنه شاب إنكليزي نبيل، أرتور أورمون، الابن البكر للورد غرنفيل، وقصته تسترعي الاهتمام؛ فقد جاء إلى مونبليه في العام ١٨٠٢ وهو يأمل بأن يساعده مناخ هذه البلاد، التي نصحه أطباؤه بالقدوم إليها، في الشفاء من داء صدري يكاد يقضي عليه، لكنه كجميع مواطنيه، أوقف خلال الحرب من قبل نابوليون، لأن هذا الوحش لايستطيع أن يتوقف عن المحاربة، وانصرف الشاب الإنكليزي، لتمضية

الوقت، إلى دراسة مرضه الذي كان يعتقد أنه مميت، وشيئاً فشيئاً استهواه التشريح والطبّ وأغرم بهذين النوعين من العلوم التطبيقية وهو أمر خارج عن المألوف لدى رجل من صفوة النبلاء، ولكن ألم يهتم الوصي على العرش بالكيمياء! باختصار أحرز السيد أرثور نجاحات مدهشة، أذهلت حتى أساتذة مو نبليه؛ فالدراسة أنسته قيود الأسر، وفي ذات الوقت شفي نهائياً من مرضه. ويُزعم أنه بقي سنتين دون أن يتكلم، يتنفس قليلاً، وهو هاجع في اسطبل، يتغذى بحليب بقرة أُتيَ له بها من سويسرة، ويتقوّت بنبات القرّة. ومنذ أن حضر إلى مور لم يقابل أي إنسان، وهو متغطرس كطاووس، ولكنّك غزوت قلبه بالتأكيد، إذ ليس من المحتمل أن يكون مروره أمام نوافذنا، منذ حضورك إلى هنا، مرتين يومياً من أجل التمتّع برؤيتي. من المؤكّد أنه يحبّك.

أيقظت هذه الكلمات الأخيرة الكونتيسة دي إغلمون كأنّها السحر، وبدرت منها حركة وابتسامة أدهشتا المرأة المتعاظمة. فقد كانت أبعد من أن تبدي ذلك الارتياح الفطري الذي تشعر به حتى المرأة الأكثر قسوة عندما تعلم أنّها سببت التعاسة لأحد الأشخاص؛ فنظرة جولي قاتمة وباردة، ووجهها يشير إلى إحساس بنفور شديد قريب من الرعب؛ فهذا النفي القاطع ليس شعور امرأة عاشقة تجابه العالم كله لمصلحة كائن واحد، وتعرف عند ذلك كيف تضحك وتمزح. كلا، فقد كانت جولي في تلك اللحظة كشخص يستذكر خطراً محيقاً به، وما يزال يشعر بالخشية والألم منه. وأصيبت العمّة، وهي المقتنعة أن نسيبتها لا تحبّ ابن أخيها بالذهول لأنها اكتشفت أن جولي لا تحبّ أحداً، وارتعشت لأنها تعرفت في جولي على قلب خائب، على امرأة شابّة كَفَتها تجربة يوم واحد، وربما ليلة واحدة، لتحكم على تفاهة فيكتور.

- قالت السيدة دي ليستومير في نفسها: إذا كانت الكونتيسة دي إغلمون تعرف هذا الإنكليزي فلم يبق هناك ما يقال وسيتحمّل ابن أخي قريباً مساوئ هذا الزواج.

فكّرت عندئذٍ أن تهدي جولي إلى المعتقدات الملكية العائدة لعصر لويس الخامس عشر، ولكن بعد عدة ساعات عرفت أو بالأحرى خمّنت الوضع الساند

twitter @baghdad_library

تقريباً في العالم الذي سبّب كآبة الكونتيسة دي إغلمون؛ التي استغرقت فجأة في التفكير وانسحبت إلى غرفتها في وقت أبكر من عادتها. وبعد أن ساعدتها وصيفتها في خلع ملابسها، وتركتها وهي مستعدّة للنوم بقيت قرب المدفأة غارقة في دوقيّة من المخمل الأصفر، هذه الكنبّة ذات الطراز القديم التي تلائم المكروبين كملائمتها للسعداء؛ وبكت وتنهّدت، وفكّرت، ثم أخذت منضدة صغيرة، وأوراقًا وبدأت بالكتابة، ومرّت الساعات سريعًا؛ ويبدو أن المسارّة التي تسجلها في تلك الرسالة ترهقها، فكل عبارة تحتاج إلى تأملات طويلة، وفجأة انهمرت الدموع من عيني المرأة الشابة وتوقّفت عن الكتابة. كانت الساعة تعلن الثانية بعد منتصف الليل، وثقل رأسها ومال إلى صدرها كرأس محتضرة، وعندما رفعته رأت عمّتها منتصبة فجأة أمامها كأنها شخص برز من الستائر والسجف المدلاة على الجدران.

- قالت لها العمة: مالك يا صغيرتي؟ وما سبب سهرك حتى هذه الساعة، ولماذا تبكين خاصة في عزلتك وأنت في هذا العمر؟.

وجلست بلا تكلّف قرب نسيبتها وهي تلتهم بعينيها الرسالة التي بُدئ بكتابتها؛ وسألتها:

- أتكتبين إلى زوجك؟

- أجابت الكونتيسة: وهل أعلم أين هو؟

تناولت العمة الورقة، ووضعت نظارتها على عينها وباشرت بقراءتها، فعلت ذلك عن عمد، ولم تُبد المخلوقة البريئة أي اعتراض ليس عن عدم اعتزاز بكرامتها، ولاعن شعور بذنب خفيّ ينتزع منها كلّ طاقة؛ كلا فعمّتها وُجدت الآن في إحدى تلك اللحظات من الأزمة التي تكون فيها النفس دون أية عزيمة، تعاف كل شيء، يتساوى لديها الخير والشرّ، والشك كما اليقين. مثل تلك الفتاة الفاضلة التي تستخف وتزدري بعاشق، لكنها تجدُ نفسها مساء حزينة ومهملة تتمنّى رؤيته، وترغب أن تجد قلبًا حنونًا يخفّف عنها آلامها. لذا لم تعترض جولي بأيّة كلمة وهي ترى فضول العمة يتطاول على رسالة مفتوحة تقتضي اللباقة عدم انتهاك طابعها الشخصي واستمرّت شاردة في تفكيرها بينما المركيزة تقرأ.

«عزيزتي لويزا،

لماذا المطالبة أكثر من مرّة بتنفيذ وعد من أكثر الوعود التي قطعتها فتاتان جاهلتان على نفسيهما رعونة؟ تتساءلين غالبًا كلّما كتبت لي، لماذا لم أجب منذ ستة أشهر على استفساراتك. إذا كنت لم تفهمي صمتي، فستخمنين اليوم، على الأرجح، السبب، عندما تطلعين على الأسرار التي سأكشفها لك، وكنت حريصة على أن أدفنها إلى الأبد في أعماق قلبي لو لم تعلميني بعقد قرانك قريبًا. ستتزوجين يا لويزا. هذه الفكرة تجعلني أرتعش. ياصغيرتي العزيزة المسكينة، تزوّجي، ثمّ بعد عدة أشهر سترِدُ إحدى أمرّ تأسفاتك من ذكرى ما كنا فيه سابقًا، ذات مساء في إكوان، عندما وصلنا كلتانا قرب أكبر سنديانات الجبل، وتأمّلنا الوادي الجميل تحت أقدامنا، ونظرنا بإعجاب إلى أشعة الشمس الغاربة تغمرنا بانعكاساتها، وجلسنا فوق شير من الصخر وغرقنا في نشوة حبور أعقبتها أعذب كآبة. كنت الأولى التي وجدت هذه الشمس البعيدة محدثة عن المستقبل. كنا آنذاك كثيرتي الفضول، وفي منتهى الجنون! أتذكرين جميع تهوّراتنا؟ تعانقنا كعاشقين، حسب قولنا، وأقسمنا على أن تقصّ من تتزوّج منا أولاً لرفيقتها بكلّ أمانة هذه الأسرار التي ستكشفها لنا آلهة الزواج، وهذه المسرّات التي كانت تلوّنها روحانا الطفوليتان بأمتع الألوان. تلك الأمسية ستُقْنِطُك يا لويزا! . في تلك اللحظات من الزمن كنت شابة جميلة، لا تحملين همًا، بل سعيدة. وسيحولك الزوج في أيام قليلة، إلى ما أنا فيه الآن، دميمة، متألمة وعجوزًا. من الجنون أن أذكر لك كم كنت معتزة، ومزهوّة، ومسرورة لزواجي من العقيد فيكتور دي إغلمون! ولكن كيف سأقول لك ذلك؟ وأنا ذاتي لا أدرك كيف كنت! ففي لحظات قليلة غدت أيام طفولتي حلمًا. ولم يستثن مظهري خلال اليوم الاحتفالي، الذي يقرّ رباطًا خفيت عني خطورته، من الملامة، وحاول والدي أكثر من مرّة أن يكبح بهجتي فقد كنت أعبّر عن مسرّات عُدّت غير لائقة، وكشفت كلماتي عن مكرٍ لأنها في الواقع كانت خالية من المكر، بينما حفلت

twitter @baghdad_library

تصرفاتي بولدنات لاتحصى وأنا في طرحة العروس وهذا الثوب وهذه الأزهار الخاصة بحفل الزفاف. وعندما بقيت وحدي مساءً في الغرفة التي اقتادوني إليها بأبّهة، أضمرت القيام ببعض حِيَلٍ لأثير فضول فيكتور، وبانتظار مجيئه شعرت بخفقات قلب مماثلة لتلك التي كانت تنتابني في السابق، خلال ليالي ٣١ كانون أول، ففي ذلك اليوم من كل سنة كنت أتسلّل إلى صالة المنزل حيث كوّمت الهدايا. وعندما دخل زوجي في ليلة عرسي وراح يبحث عني. أرشدته ضحكاتي المكتومة التي سمعت عبر الأغطية الحريرية التي التففت بها في السرير وكانت هذه الضحكات آخر تهلّل بهجة عذبة تنعش لهو براءة الطفولة في حياتي. . . .»

عندما أنهت النبيلة العجوز قراءة هذه الرسالة المتضمنة ملاحظات حزينة عديدة غير تلك الفاتحة، وضعت نظارتها بهدوء على المنضدة، ثم وَضَعت الرسالة، وسلّطت على نسيبتها عينين خضراوين لم يضعف عمرها المتقدم من حيوية ألَقَهما.

قالت: كتابة مثل هذه الرسالة من امرأة متزوجة إلى صديقة شابة تُعَدُّ إخلالاً باللياقة. . .

أجابت جولي مقاطعة عمتها: هذا ما فكّرت به، وخجلت من نفسي وأنت تقرئين ما كتبت. . .

تابعت العجوز والطيبة في كلامها: يا ابنتي، إذا لم نستسغ طعامًا على المائدة فيجب ألا نثير اشمئزاز أحد، خاصةً وأن الزواج منذ حواء حتى يومنا يبدو شيئًا ممتازًا . . . لقد فقدت أمّك باكرًا؟

- أسفت أكثر من مرة، ومنذ سنة حتى الآن، لعدم وجود أمي. وكان خطئي أنني لم أستمع إلى اعتراض أبي الذي لم يرد فيكتور صهرًا له.

نظرت إلى عمتها وانتابتها هزّة فرح جفّفت دموعها عندما لاحظت مظهر طيبة يتجلّى في وجهها العجوز، ومدّت يدها إلى المركيزة التي بَدَت وكأنها تناشدها الثقة بها. وعندما التقى الكفّان في مصافحة حارّة اكتمل تفاهم المرأتين.

- قالت المركيزة: يا لليتيمة المسكينة!

كانت هذه الكلمة آخر إشراقة ذهن بالنسبة لجولي، وخيل إليها أنها ما تزال تسمع صوت والدها التنبئي.

استأنفت السيدة العجوز: يداك حارتان جداً! هل هما دائماً هكذا؟

- لم تفارقني الحمّى إلا منذ سبعة أو ثمانية أيام.

- تنتابك الحمى وتخفي ذلك عني!

قالت جولي بنوع من القلق الخجولي: إنني أعاني منها منذ سنة.

- تابعت العمة: هكذا يا ملاكي الصغير لم يكن الزواج حتى الآن بالنسبة لك إلا عذاباً طويلاً؟

لم تجسر المرأة الشابة على الإجابة لكن بدرت منها حركة إيجاب تشير إلى آلامها.

- أنت تعيسة إذن؟.

- أوه! كلا يا عمتي، ففيكتور يحبني حتى العبادة، وأنا متيّمة به فهو طيّب جداً

- نعم إنك تحبينه، لكنك تهربين منه، أليس كذلك؟

- نعم . . . أحياناً . . . وهو يفتش عني غالباً.

- ألا تضطربين غالباً وأنت في عزلة خشية أن يأتي فيكتور ويفاجئك؟.

- للأسف نعم، يا عمتي لكنني أحبه جيّداً، أؤكد لك.

- ألا تلومين نفسك سراً لأنك تجهلين أو لاتتمكنين من مشاركته في متعته؟ ألا تفكرين أحياناً أن الحب الشرعي أكثر قسوة ومعاناة من هوى آثم؟

أجابت باكية: أوه! الأمر كذلك، إنك قادرة على تخمين كل شيء إذن؛ حتى ما يبدو لي من الألغاز؛ عندما لا أتمكن أن أجمع أفكاري، وتبدو جميع حواسي مخدّرة، أخيراً عندما لا أرى إلا بصعوبة؛ وتكون روحي مرهقة بتخوّف مبهم يجمّد

twitter @baghdad_library

عواطفي، ويطرحني في سبات مستمر، فلا أجد صوتًا أشكو به، أو كلمات أعبّر فيها عمّا أعانيه من عناء، فأتألم وأخجل من ألمي وأنا أرى فيكتور سعيدًا في تصرّف يكاد يقتلني.

هتفت العمة وقد انفرجت أسارير وجهها الجافة فجأة وافترت شفتاها عن ابتسامة مرحة هي انعكاس عن مسرات أيام شبابها: ولَدنة وغباوة كل هذا!

قالت المرأة الشابة قانطة: وأنت أيضًا تضحكين!

استأنفت المركيزة على الفور: كنت أنا كذلك. والآن بعد أن تركك فيكتور وحيدة ألا تشعرين أنك عدت إلى أيام عزوبتك، هادئة؛ دون متّع ولكن دون آلام أيضًا؟ فتحت جولي عينيها باستدارة تعبر عن دهشتها، وتابعت العمة:

- أخيرًا يا ملاكي، إنك تعبدين فيكتور أليس كذلك؟ لكنك تفضلين أن تكوني أخته لا زوجته، والزواج أخيرًا لم يحقق نجاحًا مناسبًا لك.

- إيه! هذا هو الواقع، ياعمتي، ولكن لماذا تبتسمين؟

- أوه! إنك على حقّ يا ابنتي العزيزة المسكينة، فليس في هذا ما يسرُّ. ومستقبلك سيكون محفوفًا بالتعاسة لو لم أحطك بعنايتي، ولو لم تتوصل خبرتي العريقة إلى تخمين السبب الساذج لهمومك. إن ابن أخي الأحمق لا يستحق سعادته! ولو وجدت امرأة نفسها في مثل وضعك أيام ملكية محبوبنا لويس الخامس عشر لعاقبت زوجها في الحال على تصرفه كأحد الجنود المرتزقة في العصر الوسيط. يا له من أناني! إن عسكريي هذا الطاغية الإمبراطوري جميعهم من أشنع الجهلاء. إنّهم يُعدُّون الفظاظة لغتهم في الغزل والتودُّد إلى النساء لأنهم لايعرفون الحبّ ولا يفهمون النساء، وهم يعتقدون أن ذهابهم في الغد إلى الموت يعفيهم في العشية من المراعاة الحسنة والانتباه المرهف لأحاسيسنا. كان الرجال في السابق يعرفون جيّدًا، وفي الوقت المناسب كيف يحبّون، وكيف يموتون عند الاقتضاء. يا نسيبتي العزيزة سأعيد تأهيلك، وسأضع حدًا لهذا التنافر المؤسف الطبيعي تقريبًا، الذي يؤدي بكما

إلى كره كل منكما للآخر، والرغبة في الطلاق هذا إن لم يؤد إلى موتك قبل هذا الحدّ من القنوط.

استغربت جولي بقدر ما انتابها الذهول من موقف عمتها، وفوجئت بسماع كلمات أحسّت بحكمتها قبل إدراكها معناها. وذعرت لصدورها من فم قريبة عريقة في خبرتها مماثلة، إنّما بشكل أكثر نعومة، لإدانة أبيها لفيكتور، وربما انتابها حدس سريع لمستقبلها، وشعرت دون شكّ بثقل الفاجعة التي ستلمُّ بها، إذ انهمرت الدموع من عينيها، وألقت نفسها بين ذراعي السيّدة العجوز قائلة: كوني لي أمًّا! ولم تبك العمة إذ أن الثورة لم تبق لنساء الملكية القديمة في فرنسة إلا القليل من الدموع في أعينهم. وعوّدهن الغرام سابقًا والرعب فيما بعد على أكثر الوقائع والظروف الطارئة بحيث يحتفظن وسط أخطار الحياة برزانة هادئة، ومودّة صادقة، إنما دون كشف عن المشاعر. وهذا ما يتيح لهن المحافظة دائمًا على نبل المظهر، وآداب السلوك التي أخطأت العادات الجديدة في التخلّي عنها؛ وضمت النبيلة العجوز المرأة الشابة، وقبّلتها على جبينها بحنان ورقة يظهران غالبًا في تصرّفات أولئك النساء وعاداتهن وتخلو قلوبهن منها؛ ولاطفت نسيبتها بكلمات عذبة، ووعدتها بمستقبل سعيد. وعلّلتها بمغريات الحبّ، ثم ساعدتها على الرقاد وكأنّها ابنتها، الابنة العزيزة التي تبنّت همومها وأمانيها. ورأت نفسها وقد عادت شابّة بمثل جمال نسيبتها وعدم خبرتها. وغفت الكونتيسة دي إغلمون سعيدة لأنها حظيت بأم وصديقة يمكنها من الآن وصاعدًا أن تصرّح لها بكل شيء. وفي صباح اليوم التالي، وبينما كانت العمة ونسيبتها تتعانقان بتلك المودة العميقة وهذا المظهر من التفاهم المبرهنين على تجاذب عاطفي، وتجاوب أكثر اكتمالاً بين روحين، سمعنا وقع خطوات حصان، والتفتنا في آن معًا فرأتا الشاب الإنكليزي يمر ببطء وفق عادته. ويبدو أنه لاحظ جيّدًا تصرف هاتين المرأتين الوحيدتين في حياتهما، فلم يفته يوما أن يمر في ميعاد وجودهما على مائدة الغداء أو العشاء، حتى أن حصانه كان يتمهل تلقائيًّا عند مروره أمام القصر، وخلال اجتيازه المسافة بين نافذتي غرفة الطعام يلقي آرثور نظرة كئيبة تزدريها الكونتيسة دي إغلمون معظم الوقت دون أن تعيرها أي انتباه؛ لكن المركيزة المتعوّدة

twitter @baghdad_library

على هذه الحركات الفضولية الحقيرة التي تتعلق بأتفه الأشياء فتدبّ بعضاً من حياة في رتابة الريف، وتحتمي منها بصعوبة النفوس السامية، وجدت في الغرام المضمر لهذا الإنكليزي الخجول والرصين تسلية لها. وغدت هذه النظرات الدوريّة عادةً بالنسبة لها، تشير إليها كل يوم عند مرور آرثور بفكاهات جديدة. وعند جلوسهما إلى المائدة نظرت المرأتان في وقت واحد إلى ابن الجزيرة البريطانية، والتقت عينا جولي بعيني آرثور هذه المرة بمزيد من الدقّة العاطفية احمرّت منها المرأة الشابة خجلاً وعندها أطلق الإنكليزي العنان لحصانه وانطلق مبتعداً بسرعة.

قالت جولي لعمتها: ماذا علينا أن نفعل ياسيدتي؟ من الثابت أن الأشخاص الذين يلاحظون مرور هذا الإنكليزي سيعتقدون أنني . . .

- أجابت العمة مقاطعة: نعم.

- إيه! وبعد، ألا يمكن أن نطلب منه عدم المرور من هنا؟.

- أليس في ذلك تصريح له بمدى خطورته؟ عدا عن أننا لانستطيع أن نمنع رجلاً من الذهاب والإياب حيث يحلو له. غداً لن نتناول طعامنا في هذه القاعة، وعندما لايرانا النبيل الشاب فيها سيتوقف عن حبّه لك من النافذة. هكذا يا ابنتي العزيزة، يجب أن تتصرف السيّدة الخبيرة بشؤون المجتمع.

لكن وجب أن تكتمل تعاسة جولي، فما كادت السيدتان تنهضان عن المائدة حتى وصل وصيف فيكتور فجأة، وهو آت من بورج بمزيد من السرعة، وفي طرقات ملتوية، ليبلغ الكونتيسة رسالة من زوجها يفيدها أنه قد ابتعد عن الامبراطور الذي سقط نظامه وتم الاستيلاء على باريس، وتفجّر الحماس في كل أنحاء فرنسة لمصلحة البوربونيين. لكن فيكتور يرى من الصعب وصوله إلى تور وهو يرجو امرأته أن تأتي بالسرعة الكليّة إلى أورليان حيث سيوافيها مع جواز السفر اللازم لها. وهو يعتقد أن الطريق بين أورليان وتور ما يزال سالكا وبإمكان جولي أن تسافر بصحبة الوصيف وهو عسكري سابق.

- قال الوصيف: سيدتي، لايمكن إضاعة أية لحظة فالبروسيون والنمساويون والإنكليز يخططون للقاء جيوشهم في تور أو في أورليان . . .

كانت المرأة الشابة جاهزة خلال بضع ساعات، وانطلقت في عربة سفر قديمة أعارتها لها عمتها.

قالت وهي تقبل العمة مودّعة: لماذا لا تأتين معنا إلى باريس؟ مادام البوربونيون سيستعيدون عرشهم، وستجدين بدورك . . .

- حتى دون هذه العودة غير المتوقعة، سأوافيكما إليها يا صغيرتي العزيزة لأن نصائحي ضرورية جداً لفيكتور ولك. وهكذا سأجري ترتيباتي للحاق بكما.

انطلقت جولي برفقة وصيفتها، والعسكري القديم يخبُّ بحصانه قرب عربة سيّدته يسهر على سلامتها، وخلال الليل عند وصولهم على بعد فرسخ من بلوا، قلقت جولي لسماعها ضجّة عربة تسير خلف عربتها منذ مغادرتها بلوا، وأطلّت من الباب لترى رفاق سفرها، وعلى ضوء القمر عرفت آرثور وهو على بعد ثلاث خطوات من عربتها وعيناه محدقّتان بها، والتقت نظراتهما، وارتدت الكونتيسة بسرعة إلى مقعدها الخلفي، وقلبها يخفق ذعراً. وكجميع النساء الشابات البريئات فعلاً ودون تجربة، رأت في حبٍّ أوحي لا إرادياً إلى رجلٍ، خطيئة، وأحست برعب غريزي منحها، على الأرجح، شعوراً بضعفها أمام هذا الاعتداء الجريء. فأحد أقوى أسلحة الرجل هو هذه القدرة الرهيبة على أن يشغل بذاته امرأة يرتعش خيالها المتقلب بطبيعته أو يستاء من ملاحقة. وتذكّرت الكونتيسة نصيحة عمتها، وقررت أن تبقى خلال السفر في المقعد الخلفي من العربة دون أن تخرج منها. لكنها عند كل مرحلة كانت تسمع الإنكليزي وهو يتجول بين العربتين، وعلى الطريق كانت ضجة عربته المزعجة تدوّي في أذنيها دون انقطاع. وفكّرت جولي أنها عندما تلتقي بزوجها فإن فيكتور يعرف كيف يدافع عنها ويقمع هذه المضايقة الغريبة.

- ولكن، إن كان هذا الشاب لايحبني؟.

twitter @baghdad_library

كانت هذه الفكرة آخر ما خطر لها. فعند وصولها إلى أورليان أوقف البروسيون عربتها واقتيدت إلى فناء نُزُل، ووضعت تحت حراسة الجنود. وكان من المتعذّر إبداء أية مقاومة، فقد شرح الغرباء للمسافرين الثلاثة بإشارات آمرة أنهم تلقوا تعليمات بعدم السماح لأحد بالخروج من العربة، وبقيت الكونتيسة ساعتين تقريبًا أسيرة وسط الجنود الذين يدخنون ويضحكون، وينظرون إليها أحيانًا بفضول وقح. وأخيرًا رأتهم يبتعدون عن العربة بنوع من الاحترام بعد سماع ضجّة عدة خيول، وسرعان ما ظهر عدد من كبار الضباط الأجانب وعلى رأسهم جنرال نمساوي وأحاطوا بالعربة.

قال الجنرال: سيدتي، تفضلي بقبول اعتذارنا، جرى خطأ، ويمكنك الآن متابعة سفرك دون خوف، وهوذا إذن سفر يجنبكم من الآن وصاعدًا أية مضايقة.

تناولت الكونتيسة الورقة بيد ترتعش وتمتمت بكلمات شكر مبهمة ورأت قرب الجنرال وببزّة ضابط إنكليزي آرثور الذي يعود إليه، دون شك، تخليصها السريع. بدا الإنكليزي الشاب في وقت واحد فرحًا وكئيبًا، وأشاح برأسه ولم يجرؤ على النظر إلى جولي إلا خلسةً. وبفضل إذن السفر تمكنت السيدة دي إغلمون من مواصلة سفرها إلى باريس دون أي عائق مكدّر واجتمعت بزوجها الذي أُحلّ من قسم الإخلاص للامبراطور وتلقى أحسن استقبال من الكونت دارتوا الذي عيّن قائدًا عامًا لجيش المملكة من قبل أخيه لويس الثامن عشر، وحصل فيكتور على درجة مميّزة ضمن الحرس الخاص أعطته مرتبة جنرال، إنما وسط الاحتفالات المقامة بمناسبة عودة ملكية آل بوربون ابتليت جولي المسكينة بفاجعة أثرت على مجرى حياتها إذ إنها فقدت المركيزة دي ليستومير ـ لاندون فقد توفيت النبيلة العجوز فرحًا إذ أصيبت بسكتة قلبية وهي تشهد عودة الدوق دنغوليم إلى تور، وهكذا غابت الإنسانة التي كان يعطيها عمرها الحق بتنوير فيكتور، الوحيدةالتي كانت تستطيع بنصائحها القويمة أن تجعل التوافق بين المرأة وقرينها أكثر انسجامًا. وأحسّت جولي بفداحة هذه الخسارة فعليها وحدها الآن العمل على تحسين هذا التوافق لكنها وهي الشابة الخجول

فضلت أولاً العذاب على الشكوى. فكمال خلقها بالذات يمنعها من التجرؤ على الامتناع عن القيام بواجباتها الزوجيّة أو محاولة التقصي عن سبب آلامها. إذ أن إيقاف هذه الآلام أمر حساس جداً. وجولي تخشى أن تهين خَفَرها كشابة.

لنتحرَّ الآن بإيجاز وضع السيّد دي إغلمون في ظل الملكية الثانية.

ألا يصادف كثير من الرجال الذين تبدو عدم كفاءتهم العميقة سراً أمام معظم من يعرفونهم؟ مكانةٌ اجتماعية عالية، أو محتدٌ نبيلٌ أو وظائف هامّة، أو بعض مظاهر اللباقة، أو الرزانة في السلوك أو شهرة الثروة؛ عوامل تشكل بالنسبة لهم حرس يمنع النقد والناقدين من التسرّب إلى واقع وجودهم الحميم.

ويشبه هؤلاء الرجالُ الملوكَ الذين لايمكن أبداً أن تُعرَف مكانتهم الحقيقية أو طبعهم أو عاداتهم، ولا أن تُمحَّص بدقة؛ ذلك أنهم مرئيون عن بُعد كبير أو عن قُرب قريب جداً. وهؤلاء الأشخاص ذوو الجدارة المفتعلة يسألون بدلاً من أن يتكلموا، ويمتلكون فنّ تعرية الناس ليتجنبوا الظهور أمامهم، ثم بمهارة موفّقة يحركون كل فرد بالسلك المتعلّق بأهوائه أو بمصالحه. وهكذا يلعبون بمن هم أعلى منهم حقيقة، ويجعلون منهم دُمى في أيديهم، ويعتقدون بصغرهم لأنهم استكانوا لهم، ويحققون عندئذ الانتصار الطبيعي لفكرة حقيرة لكنها ثابتة حول الأفكار الكبيرة. وهكذا لأجل الحكم على هذه الرؤوس الفارغة وتقدير قيمها السلبية، يجب أن يمتلك الملاحظ عقلاً أكثر حذقًا منه سموّاً، وطبعًا أكثر صبراً منه بُعد نظر، وأفكاراً أكثر مكراً ولباقة منها رفعة وكبراً. غير أن هؤلاء المنتحلين أيًّا كانت مهارتهم في الدفاع عن نقاط الضعف فيهم يصعب عليهم جداً أن يخدعوا نساءهم أو أمهاتهم، أو أولادهم، أو صديق البيت. إنما أفراد العائلة يحتفظون بشكل دائم تقريبًا بسر يمسّ، نوعًا ما، بالشرف العام. وغالبًا ما يساعدون، هم بالذات، على إخفاء هذا السرّ عن الناس. ولئن كان كثير من الحمقى يُعدُّون بفضل هذه التأمرات البيتية من كبار الرجال؛ فإنهم يعوّضون عن عدد من كبار الرجال يتصرفون كالحمقى؛ وبذلك يكون للوضع الاجتماعي العام ذات الكتلة من القُدُرات

twitter @baghdad_library

الظاهرة. فكّروا الآن بالدور الذي يجب أن تلعبه امرأة ذكية حسّاسة بوجود زوج من هذا النوع. ألا تلاحظون حيوات ممتلئة بالآلام والتضحية، ومامن شيء في هذا العالم يمكن أن يكافئ قلوبها الممتلئة حبًا ورقة؟ ، وإن صودف وجود امرأة قويّة في هذا الوضع الرهيب فسينتج عن ذلك جريمة كما فعلت كاترين الثانية[1]، ومع ذلك لُقّبت بالكبيرة. وبما أن العروش لا تتسع إلا لعدد محدود جداً من النساء فإن معظم الباقيات يتعرضن لفواجع عائلية لاتقلّل من رهبتها إحاطتها بالغموض أو الكتمان، ومن يفتش في هذا العالم عن مؤاساة مباشرة لمصائبهن، لا يتمكنُّ في الغالب إلا من تغيير موضوع معاناتهن، إن أردن أن يبقين وفيات لواجباتهن، أو أنهن يرتكبن الأخطاء إن تمردن على القوانين لمصلحة مسراتهن.

هذا الأفكار كلّها تنطبق على قصة جولي الخفية. ففي عهد نابوليون، كان الكونت دي إغلمون عقيداً ككثيرين غيره، وهو ضابط مرافق جيّد، بارع في تنفيذ المهمات الخطيرة، لكنه عاجز عن قيادة ذات شأن عدا عن أنها لا تستثير أيّة رغبة لديه، وهو يُعَدُّ أحد هؤلاء الشجعان ذوي الحظوة لدى الامبراطور، وقد أطلق عليه العسكريونَ القدامى لقب **الفتى الطيّب**. وردّت إليه الملكية الثانية لقب المركيز، ولم يكن عاقًا بالنسبة لها، فتبع البوربونيين إلى غَان. وكذّب هذا الفعل الدال على المنطق والوفاء التنبؤ السابق لحميّه عنه والقائل إن صهره لن يتعدّى رتبة العقيد، فبعد العودة من غان سُمّي عميداً، وطمح إلى أن يغدو عيناً من الأعيان بعد أن ثبّت في نبالته مركيزاً، فتبنّى حكم **مجلة الكونسرفاتور**[2] وسياستها، وتغلّف برياء لا يخفي شيئًا، وتصنّع الرزانة، وغدا مستجوباً، قليل الكلام، واتخذ مظهر الرجل المفكّر، العميق الغور، واعتصم دون انقطاع بأنماط من التهذيب، وتجهّز بصبغ وحفظ كثيراً من العبارات الجاهزة التي تصاغ بانتظام في باريس، لينشرها بإسراف كقطع النقود الصغيرة على الحمقى معبّراً من خلالها عن الأفكار أو الأعمال العظيمة، وحسبه

---

(١) تلميح إلى مقتل بطرس الثالث من قبل ألكسيس أورلوف بأمر من كاترين.

(٢) هي المجلة الملكية المتطرفة التي تعاون معها شاتوبريان وبونالد ولامرتين لكنها لم تظهر إلا في العام ١٨١٨ ونحن في العام ١٨١٥.

أبناء الطبقة الراقية رجل ذوق ومعرفة، وتشبّث بآرائه الارستقراطية فنوّه بطبعه الحازم. وإذا حدثت مصادفة ظهر فيها متهوّراً، أو مرحاً كما كان في السابق، فتفاهته وحماقة كلماته تعني بالنسبة للآخرين تطلعات دبلوماسية مضمرة.

- اوه! إنه لايقول إلا ما يشاء قوله. هذا ما يفكر به الشرفاء جداً. وهكذا فقد استفاد جداً من مزاياه ومن عيوبه فشجاعته أكسبته شهرة عسكرية عالية لاسبيل لدحضها إذ أنه لم يكن قائداً مسؤولاً عن انتصار أو هزيمة. ووجهه الرجولي النبيل يعبّر عن أفكار واسعة؛ وملامحه لاتعد مظهراً خداعاً إلا في نظر امرأته وبسماعه جميع الناس يتغنون بمواهبه المصطنعة انتهى المركيز دي إغلمون إلى الاقتناع بأنه أحد الرجال الأكثر بروزاً في البلاط حيث عرف كيف يُرضي بمظاهره، وحيث قبلت جميع مزاياه دون أي اعتراض.

غير أن السيد دي إغلمون كان متواضعاً في المنزل، فهو يشعر غريزياً بتفوق امرأته، رغم صباها، ومن هذا التقدير العفوي تولّدت سلطة خفيّة للمركيزة، وجدت نفسها مضطرة لقبولها رغم جميع جهودها في إبعاد هذا الحمل عنها. وبصفة مستشار لزوجها كانت تدير الأعمال والثروة. وكان هذا التأثير المخالف لطبيعة الأمور يشكّل نوعاً من المهانة لها ومصدراً لمتاعب تكتمها في قلبها. فأولاً كانت غريزتها الأنثوية المرهفة تقول لها إن الأجمل إطاعة رجل ذي موهبة بدلاً من قيادة أحمق؛ وإنّ زوجة شابّة مضطرة للتفكير والتصرف كرجل، ليست امرأة ولا رجلاً، وهي تتنازل عن جميع نِعَم جنسها لتتجنب المصائب، دون أن تكتسب أيّاً من المزايا التي منحتها قوانينا للجنس الأكثر قوّة فحياتها تخفي سخرية مُرّة. أليست مضطرة لتبجيل معبود أجوف، وأن تحمي حاميها. هي كائن مسكين يُلقى إليها كأجرة عن تفانيها المستمر حبّ زوج أنانيّ، لا يرى فيها إلا المرأة، ولا يتنازل أو لا يعرف، وكلا الأمرين إهانة عميقة، أن يهتم بملذاتها، أو أن يتحرّى عن أسباب سقمها وكآبتها؟ والمركيز كمعظم الأزواج الذين يشعرون بنير نفس سامية تغلّهم، ينتقد غروره مقرّراً أن الضعف الجسدي أوصل جولي إلى هذا الضعف المعنوي الذي يحلو له أن يشكو منه

twitter @baghdad_library

ملقيًا التبعة على الحظ السيّء الذي رماه بفتاة سقيمة زوجة له. أخيرًا يتصوّر نفسه الضحيّة بينما هو الجلاّد. ويجب على المركيزة المثقلة بجميع هموم هذه الحياة الكئيبة، أن تبتسم أيضًا لسيّدها الأحمق، وأن تزيّن بالزهور بيتًا يجب أن يعلن الحداد فيه، وأن تبدي الحبور على ملامح وجه حوكت عذاباتٌ خفيّة نضرته إلى شحوب. هذه المسؤولية المشرّفة، وهذا التفاني الرائع أعطيا تدريجيًا للمركيزة الشابة وجاهة المرأة، ووعيَ الفضيلة اللذين منحاها الحماية ضد أخطار العالم. ولأجل سبر هذا القلب حتى صميمه، كان المصاب الحميم والخفي الذي توّج به حبّها الأول، حبّها البريء كعذراء، فجعلها هذا المصاب، على الأرجح، تشمئز من جميع الأهواء، وقد لاتتصوّر الإغراء ولا المسرّات غير المشروعة، إنّما الجامحة التي تنسي بعض النساء قوانين التعقل ومبادئ الفضيلة التي يرتكز عليها المجتمع. وبعد أن تخلت كما في حلم، عن الحلاوات والتناسق الرقيق الذي وعدتها به تجربة السيدة دي ليستومير لاندون العريقة، انتظرت باستسلام نهاية متاعبها بالموت وهي شابة. فمنذ عودتها من تورين أخذت صحتها تضعف يوميًا وبدت لها الحياة مقاسة بالعذاب، غير أنه عذاب أنيق ناتج عن مرض شبيه مغر باللذة ظاهريًا، ويمكن أن يُعَدَّ في نظر الأشخاص السطحيين أشبه بنزوة خليلة طائشة. وأشار الأطباء على المركيزة بالبقاء مستلقية على ديوان حيث كانت تذوي وسط الأزهار التي تحيط بها وتذبل كذبولها. ومنعها ضعفها من السير واستنشاق الهواء العليل فهي لاتخرج، وهي محاطة دون انقطاع بجميع عجائب ترفنا، وصناعتنا الحديثة، فهي أكثر شبهًا بملكة فاترة الهمة منها بمريضة. ويأتي بعض الأصدقاء المغرمون على الأرجح بشقائها وضعفها، الواثقون من وجودها دائمًا في منزلها، المتوقعون أيضًا دون شك تحسّن صحتها في المستقبل، يحملون إليها الأخبار، وينبئونها بهذه الأحداث الصغيرة التي تجعل من باريس الوجود الأكثر تنوّعًا. فكآبتها، رغم خطورتها وعمقها، كانت إذن كآبة الرخاء. فالمركيزة دي إغلمون تشبه زهرة جميلة تقرض جذرها حشرة سوداء. وكانت تزم المجتمعات أحيانًا لا عن رغبة، وإنما استجابة لمستلزمات الوضع الذي يصبو إليه زوجها. وكان صوتها واتقانها الغناء يُستقبلان بالتصفيق وهتاف الاستحسان اللذين

تزهو بهما تقريبًا كل امرأة شابة، لكن ماذا تفيدها النجاحات التي لا تعيد عواطف أو آمالاً؟ وزوجها لايحب الموسيقى. أخيراً فهي تتضايق على الدوام تقريبًا في الصالونات حيث يطري الوصوليون والنفعيون جمالها، وتبدو في وضع يثير نوعًا من شفقة قاسية وفضولاً محزنًا، فهي مصابة بالتهاب مميت في الغالب تتناقل النساء سره همسًا، ولم يجد له علم مصطلحاتنا اسمًا حتى الآن. ورغم الصمت الذي تجري فيه حياتها فإن سبب ألمها لم يخف على أحد، فهي ماتزال تحتفظ بطبع الفتاة رغم الزواج، وأقل النظرات تخجلها، وهكذا تضطر دائمًا للظهور ضاحكة لتخفي حمرة خجلها وهي تتكلف فرحًا مزيفًا، وتقول إنها في عافية تامة، أو تتدارك الأسئلة عن صحتها بأكاذيب حيّة. غير أن حدثًا ساهم كثيراً في العام ١٨١٧، في تعديل الوضع المتردي الذي كانت جولي تغرق فيه حتى ذلك الحين. فقد أنجبت طفلة وأرادت إرضاعها، فجعلت الألهيات البالغة والمسرّات القلقة الناتجة عن عنايات الأمومة، حياتها أقل تعاسة، وأبعدتها أمومتها بالضرورة عن زوجها. وتوقع لها الأطباء صحة أفضل، لكن المركيزة لم تثق بهذه التوقعات الافتراضيّة، وكجميع الأشخاص الذين خلت حياتهم من العذوبة فقد رأت، على الأرجح الموت حلاً سعيدًا لأزمتها.

في بداية العام ١٨١٩ بدت لها الحياة أكثر قسوة من أي وقت مضى. ففي الأوقات التي استحسنت فيها السعادة السلبية التي عرفت كيف تأتلف معها، استشفّت لجُجًا مرعبة[1]: فقد أخذ زوجها تدريجيًا ينفر منها. ورأت أن هذا البرود في عاطفة كانت فاترة وأنانية يمكن أن يؤدي إلى أكثر من مصيبة دفعتها لباقتها المرهفة وفطنتها إلى توقعها. وبالرغم من أنها كانت واثقة من استمرار تأثيرها الكبير على فيكتور وأنها تحظى بتقديره على الدوام. فإنها خشيت من سطوة الأهواء على رجل عديم الكفاءة وأرعن بمزيد من الغرور وغالبًا ما فاجأ الأصدقاء جولي وهي

(١) تسجيل لبدء خيانة فيكتور الزوجية في العام ١٨١٩ وقد تزوّج في العام ١٨١٣ لكن سبق أن ذكر في رواية «مجد وشقاء» أنه كان عشيق الدوقة كاربغلياتو في العام ١٨١٤، أهي علاقة قبل الزواج؟.

twitter @baghdad_library

مستغرقة في تأملات طويلة، وكان الأقل بصيرة منهم يسألونها عن سر تفكيرها العميق مازحين كأن ليس على المرأة الشابة أن تفكر إلا بتفاهات سطحية، وكأن لا يوجد أبداً معنى عميق في خواطر ربة عائلة، مع أن التعاسة كالسعادة الحقيقية تقودنا إلى أحلام اليقظة. كانت جولي وهي تلاعب أحياناً طفلتها هيلين تنظر إليها بعين قاتمة، وتكف عن الإجابة على هذه الأسئلة الطفولية التي تبرق لها أسارير الأمهات فرحاً، لتنصرف إلى التفكير بقدرها حاضراً ومستقبلاً، وتغرورق عيناها بالدموع عندما تعود بها الذكرى إلى مشهد العرض العسكري في التويلري. وترن في أذنيها مجدداً كلمات أبيها المتبصرة؛ وتحس بوخز الضمير لأنها تقدر حكمته. ومن هذه المعصية الهوجاء أتت كل مصائبها، وهي لاتعلم غالباً أيها الأصعب حملاً من بينها. فالكنوز الحلوة في روحها لن تبقى مجهولة فحسب؛ لكنها لن تتمكن أبداً أن تتوصل إلى تيسير فهم زوجها لها حتى في أشياء الحياة العادية تماماً. ففي الأوقات التي تفتحت فيها قدرتها على الحب قوية، نشطة؛ تلاشى الحب الحلال، الحب الزوجي وسط آلام جسدية ومعنوية جسيمة. ثم أحست نحو زوجها بشفقة قريبة من الازدراء أذوت مع الأيام جميع العواطف. أخيراً إن كانت محادثاتها مع بعض الأصدقاء، أو بعض الأمثلة أو بعض مغامرات المجتمع المخملي لم تعلمها أن الحب يأتي بلحظات سعادة واسعة، فإن جراحها تجعلها تخمن الملذات العميقة والنقية التي تجمع روحين أختين. وفي اللوحة التي خطتها ذاكرتها عن الماضي كان يرتسم وجه أرثور البريء كل يوم أكثر نقاء، وأكثر وسامة، إنما بسرعة لأنها لا تجسر أن تتوقف عند هذه الذكرى فحب الإنكليزي الصامت والخجول كان الحدث الوحيد الذي ترك منذ زواجها بعض آثار عذبة في ذلك القلب الحزين المنعزل. ربما كانت جميع الآمال المخدوعة وجميع الرغبات المجهضة التي أحزنت نفس جولي تدريجياً تعود بحركة طبيعية من المخيلة إلى هذا الرجل الذي يبدو أن انسجاماً قائماً بينهما في الأساليب والعواطف والطبع، لكن هذه الفكرة بدت دائماً نزوة أو حلماً. وبعد هذا الحلم المستحيل الذي ينتهي دائماً بالتنهدات، كانت جولي تستيقظ وهي أكثر تعاسة، وتحس بشكل أشد بآلامها الدفينة الهاجعة تحت أجنحة سعادة متوهمة، وكانت تأففاتها تأخذ أحياناً طابع طيش وجرأة، فترغب في الملذات بأي ثمن، لكنها تبقى

غالبًا فريسة ما لا أدريه من خدر غبيّ، تسمع دون أن تفهم أو تتصور أفكاراً مبهمة، حائرة إلى حدّ لا تجد لغةً للتعبير عنها، وتنكمش حتى في أكثر رغباتها حميمية، وفي الطبائع التي كانت تحلم وهي فتاة بتبنيها؛ وتضطر إلى افتراس دموعها، إلى من تشكو؟ وممن يمكنها أن تستمد النصيحة. ثم إنّها تتميز بتلك الرهافة القصوى كامرأة. وبذلك الخفر الرائع في العاطفة الذي يلزمها بالصمت والامتناع عن شكوى لافائدة منها، وعدم اتخاذ أيّة مبادرة في قضية يكون الانتصار فيها مذلاً للغالب والمغلوب. وحاولت جولي أن تضع مؤهلاتها وفضائلها تحت تصرف السيد دي إغلمون، وتباهت بطعم سعادة حرمت منها، واستخدمت كل رقّتها الأنثوية في اهتمامات لم يدر بها، واستمرت بها حتى في تفاقم استبداده. في بعض اللحظات كان الشقاء يسكرها، فتشردُ فكرًا، وتجمحُ خيالاً لكن ورعًا حقيقيًا يردّها دائمًا إلى أمل سام: فتلتجىء إلى التفكير في حياة المستقبل بإيمان عجيب، يجعلها تقبل مجدّدًا واجبها الزوجي المؤلم. كانت هذه الصراعات شديدة الرهبة، وهذه التمزقات الداخلية دون غبطة. وهذه الأحزان الطويلة طي الكتمان، فما من مخلوق يلحظ نظراتها الكلية أو دموعها المرّة التي تنسكب على غير هدى وفي عزلة. انكشفت أخطار الوضع الحرج، الذي وصلت إليه المركيزة تدريجيًا، بفعل الظروف، في كل جسامتها خلال أمسية من شهر كانون الثاني ١٨٢٠: فعندما يتعارف زوجان بشكل تام، ويتعوّد كل منهما على الآخر، وعندما تعرف المرأة أن تفسّر كل حركات زوجها، وأن تتغلغل إلى صميم العواطف والأشياء التي يخفيها، فإن أضواءً مفاجئة تنبثق غالبًا بعد الأفكار أو الملاحظات السابقة الناتجة عن المصادفة أو التي أجريت في البدء بلا مبالاة وتستيقظ المرأة غالبًا بشكل مفاجئ وهي على حافة الهاوية أو في قعرها. وهكذا فالمركيزة، السعيدة لأنها وحيدة منذ بضعة أيام، خمّنت سرّ وحدتها؛ فزوجها المتقلب أو التعب، الشهم أو المشفق عليها، لم يَعُدْ ملكها. وهي الآن لا تفكر بنفسها، ولا بآلامها، ولا بتضحياتها. فهي لم تَعُدْ إلا أمًا، تتطلع إلى حظّ ابنتها، ومستقبلها، وسعادتها، الكائن الوحيد الذي يأتيها منه بعض صفوهناء، طفلتها هيلين، النعمة الوحيدة التي تربطها بالحياة، فجولي تريد أن تعيش لتقي ابنتها النير المروّع الذي يمكن

twitter @baghdad_library

لزوجة أب أن تُخمد فيه حياة هذه المخلوقة العزيزة. وأمام هذا التوقع الجديد لكارثة مقبلة، استغرقت في إحدى هذه التأمّلات المحتدمة التي تفترس سنوات كاملة، فبينها وبين زوجها، من الآن فصاعداً، سيقوم عالم من الأفكار تحمل وزره وحدها. فحتّى ذلك الحين كانت واثقة أن فيكتور يكنّ لها الحبَّ الذي يقدر عليه، ونذرت نفسها لسعادة لا ينالها منها نصيب، لكنها الآن لاتشعر بالرضى لمرأى دموعها تخلق المتعة لزوجها؛ ولم يبق أمامها، وهي الوحيدة في العالم، إلا الاختيار بين المصائب. ووسط القنوط الذي ثبّط جميع قواها، وفي هدأة الليل وسكونه، وعندما تركت مقعدها العريض، بعد أن أوشكت النار في مدفأتها على الانطفاء، توجّهت على ضوء مصباح تتأمّل ابنتها بعين جفّ دمعها، وإذا بالسيد دي إغلمون يدخل إلى المنزل عائداً جذلاً من سهرته، فطلبت منه جولي أن يستكمل فرحته بمرأى رقاد هيلين المثير للإعجاب لكنه استقبل حماس زوجته بعبارة مبتذلة، قال:

- جميع الأطفال في هذا العمر لطفاء.

وبعد أن قبّل بلا مبالاة جبين ابنته سحب ستائر مهدها، ونظر إلى جولي ثم أمسك يدها وأجلسها قربه على تلك الكَنَبة التي راودتها فيها كثير من الأفكار المشؤومة.

هتف بذلك المرح غير المحتمل الذي تعرف المركيزة جيّداً مدى تفاهته:

- كم أنت فاتنة هذا المساء، ياسيدة دي إغلمون.

سألته وهي تتظاهر باللامبالاة: أين قضيت سهرتك؟.

- عند السيدة دي سريزي.

وتناول عن حافة المدفأة حاجزاً واقيًا وبدأ يتأمل بانتباه شفافيته، دون أن يلحظ أثر الدموع في عيني زوجته، وارتعشت جولي فاللغة لاتكفي للتعبير عن لواعج الأفكار التي تنتابها وتحاول كبتها.

واستأنف المركيز : ستقيم السيّدة دي سريزي حفلة موسيقيّة يوم الاثنين القادم وهي شديدة الرغبة في حضورك لها . يكفي أنك منذ مدة لم تظهري في الأوساط الاجتماعية لتشتاق إلى رؤيتك في منزلها . وهي امرأة طيبة تكنّ لك كل الحبّ، ويسرّني أن تلبّي دعوتها ، وقد وعدتها تقريباً بذلك . . .

أجابت جولي : سأذهب .

كانت نبرة صوت المركيزة ولهجتها ونظرتها تتضمّن شيئاً نفّاذاً وشديد الخصوصية ، حتى أن فيكتور رغم لامبالاته نظر إلى زوجته بدهشة . وكان هذا كلّ شيء . وخمّنت جولي أن السيدة دي سريزي هي المرأة التي استولت على قلب زوجها ؛ وانتابها القنوط وشردت أفكارها وبدت كثيرة الاهتمام بمرأى النار . وراح فيكتور يقلب الحاجز بين أصابعه بمظهر الرجل الضَّجِر الذي نَعِمَ بالسعادة خارجاً وحضر إلى بيته يحمل متاعب سعادته ، وبعد أن تثاءب عدة مرّات تناول شمعدانًا بيد وسعى باليد الأخرى إلى عنق امرأته محاولاً تقبيله ، لكن جولي طأطأت رأسها ، وعرضت له جبينها لتتلقّى عليه قبلة المساء تلك القبلة الآلية الخالية من الحب ، التي بدت لها عندئذٍ نوعاً من تكشيرة بغيضة . وعندما أغلق فيكتور الباب ، تهالكت المركيزة على مقعد وساقاها تترنّحان ، وانخرطت في البكاء . يجب أن يتعرّض الإنسان لعذاب مشهد مماثل ليدرك كل ما يتضمن هذا الموقف من آلام ، وليخمّن المآسي الطويلة والرهيبة الناتجة عنه . هذه الكلمات التافهة الخرقاء ، وأوقات الصمت السائدة بين الزوجين ، والحركات ، والنظرات ، والطريقة التي جلس فيها المركيز أمام النار . وتصرّف المركيز في سعيه لتقبيل عنق امرأته . كلّ ذلك جعل من تلك الساعة حلّ عقدة مأساويًا للعيش المتزوي المؤلم الذي تعانيه جولي . وفي حمّى جنونها جثت على ركبتيها أمام ديوانها ، وحجبت وجهها بيديها كي لاترى شيئاً ، وتوجهت بصلاة متضرّعة إلى السماء ، وهي تعطي للكلمات المألوفة في دعائها نبرة حميمة ومعنى جديداً ، من شأنها أن تمزق قلب زوجها لو سمعها . وبقيت ثمانية أيام منشغلة بمستقبلها ، فريسة شقائها ، تمعن النظر فيه باحثة عن وسائل لاتكذّب فيها قلبها ،

twitter @baghdad_library

وتستعيد سيطرتها على المركيز، وتعيش مدة طويلة تسهر فيها على سعادة ابنتها. وقرّرت آنذاك أن تجابه منافستها، وتعود إلى الظهور في المجتمع، وتتألق فيه، وتظهر لزوجها حباً لايمكنها أبداً أن تحسّ به، وأن تغويه. وبعد أن تخضعه بهذه الحيلة لسلطانها ستقوم بدور اللعوب كما تفعل أولئك الخليلات الرعناوات اللواتي يجدن متعة في تعذيب عشاقهن، وكانت هذه الخدعة البغيضة العلاج الوحيد الممكن لمصائبها. وهكذا ستغدو سيّدة آلامها وستوجهها كما يحلو لها، وستجعلها أكثر ندرة وهي تستعبد زوجها، وتخضعه لاستبداد رهيب، ولن تشعر بأي تبكيت ضمير في أن تجعل حياته جحيماً. وانطلقت دفعة واحدة في خطط اللامبالاة الباردة؛ فقد اكتشفت فجأة، من أجل إنقاذ ابنتها، الخُدَع وأكاذيب المخلوقات المبغضة، ومراوغات التدلّل، وتلك الحيل البشعة التي تدفع إلى كره المرأة التي يفترض الناس فيها عندئذٍ الفساد الفطري. ودون علم جولي توافق زهوها الأنثوي ومصلحتها ورغبة انتقام مبهمة مع حبها الأمومي لتجعلها تسلك طريقاً تنتظرها فيه آلام جديدة؛ لكنها كانت تملك روحاً جميلة جداً ونفساً مرهفة، وكثيراً من الصراحة بحيث لايمكن أن تبقى لمدة طويلة مستورطة في هذا الغش. ومع أول خطوات الرذيلة، وهذا يُعَدُّ رذيلة في نظرها، وهي المتعوّدة على القراءةفي ذاتها، استيقظ فيها صوت الضمير محاولاً خنق صوت الأهواء والأنانية. والواقع أن شعور الأمومة ذاته لدى المرأة الشابة التي مايزال قلبها نقياً، والحبُّ فيه بكراً، يخضع لنداء الخجل، أليس الخجل هو كلّ المرأة؟

وجولي لاتريد أن تلاحظ أي خطر، أو أي خطأ في حياتها الجديدة، وقد حضرت إلى حفلة السيّدة دي سريزي التي كانت تتوقع أن ترى زائرتها امرأة شاحبة سقيمة وكانت المركيزة قد تزيّنت وتأنّقت في حلّة تزيد من جمالها.

تُعَدُّ السيّدة الكونتيسة دي سريزي إحدى هؤلاء النسوة اللواتي يرين في ممارستهن على الأزياء والمجتمع في باريس نوعاً من الهيمنة. فهي تملي قرارات تبدولها في الوسط الذي تعيش فيه متبناة كلياً، وتزهو بكلمات مأثورة تطلقها، وهي

ناقدة تبدي رأيها في كل شيء، ويتعرض الأدب والسياسة والرجال والنساء لرقابتها التي تتحدّى رقابة الأخريات. ومنزل السيدة دي سريزي، مثال في كل شيء، للذوق الرفيع، وفي وسط صالوناتها الممتلئة بالنساء الأنيقات والجميلات تفوّقت جولي على الكونتيسة؛ فقد جمعت بذكائها وحيويتها ونشاطها الرجال الأكثر تميّزاً في الشهرة حولها، ورمت القنوط في نفوس النساء بزينتها التي لاتجارى، فتملكتهن الغيرة عند مرأى تفصيلة ثوبها وشكل صداره الذي نُسب تأثيره إلى مهارة خياطة مجهولة، لأن النساء يَملْن إلى الإيمان بفنّ الأزياء أكثر من اعترافهن بظرف ورشاقة قوام من ارتدين الزيّ. وعندما نهضت جولي متوجّهة إلى البيانو لتعزف وتنشد أغنية ديدمونة، هرع الرجال من جميع الصالونات لسماع هذا الصوت الشهير الذي طال شوقهم إليه، وساد صمت عميق. وأحسّت المركيزة بتأثر شديد لرؤية الرؤوس تطلّ من الأبواب وجميع الأنظار معلّقة عليها؛ وجالت عيناها تبحث عن زوجها، ورشقته بنظرة ملؤها الغنج والدلال؛ وشعرت بتأثّر شديد في تلك اللحظة لما لاقته من إطراء يشبع زهوها. وسعدت بهذا النجاح، فأمتعت الحضور بالقسم الأول من، Al Pio Salice فلا ماليبران*، ولا پاستا** أسمعتا غناءً بمثل هذا الكمال في النبرة والتعبير العاطفي؛ لكنها في لحظة تكرار اللازمة لاحظت بين زُمَر المدعوين آرثور الذي لم تفارقها عيناه، فانتابتها قشعريرة، واختلج صوتها، وانطلقت السيدة دي سرنري نحوها وهي تقول:

- مالك ياعزيزتي؟ أوه! ياللصغيرة المسكينة، إنّها عليلة! وأنا أرتعش لرؤيتها تُقدم على جَهْد فوق قواها...

وتوقّف الإنشاد، فقد أحسّت جولي بالخيبة، ولم تتمالك الشجاعة على الاستمرار، وتعرّضت لإشفاق غريمتها الغادر، وتهامست جميع النساء يناقشن هذا الحديث، فخمّن الصراع القائم بين المركيزة والسيدة دي سريزي، ولم يوفّرن عنهما

* ماليبران: ماريا، (١٨٠٨ ـ ١٨٣٦): مغنية شهيرة من أصل اسباني.

** پاستا: جيوديتا ـ ماريا ـ كوستانزا نغري (١٧٩٧ ـ ١٨٦٥) مغنية إيطالية.

twitter @baghdad_library

النمائم؛ وتحققت فجأة الهواجس الغريبة التي كانت تقلق غالبًا جولي؛ فباهتمامها بآرثور كان يروق لها الاعتقاد بأن رجلاً يبدو ظاهريًا في منتهى الرقة ورهافة الإحساس، يجب أن يكون مخلصًا لحبّه الأول، وكانت تزهو أحيانًا بكونها هدف هذه العاطفة الحلوة، العاطفة النقية والحقيقية لشاب تعود جميع أفكاره لمحبوبته، ويخصها بجميع لحظات حياته دون مواربة، ويحمرّ خجلاً مما تخجل منه امرأة، ويفكّر كامرأة. ولا يسعى إلى علاقة منافسات لها، وينصرف إليها دون التفكير بمبتغى، أو مجد، أو ثروة. حلُمت بكل هذا وهي تفكر بآرثور طيشًا أو تسلية؛ وفجأة ظنت أنها ترى حلمها يتحقق، وقرأت على وجه الشاب الإنكليزي شبه الأنثوي الأفكار العميقة، والكآبات الرقيقة، والاستكانات المؤلمة التي كانت هي بالذات ضحيتها؛ ورأت نفسها فيه؛ فالشقاء والكآبة أفصح من يترجم الحبّ، ويصل بين كائنين متألّمين بسرعة فائقة، فالنظرة الحميمية والاندماج بالأشياء أو الأفكار لديهما صحيحة وكاملة. وهكذا فعنف الصدمة التي تلقتها المركيزة كشفت لها كل أخطار المستقبل، وأسعدها أن تجد ذريعة لاضطرابها في وضعها المألوف من الشقاء، فزضخت بطيبة خاطر للسيدة دي سريزي ترهقها بشفقتها الماكرة. وكان إيقاف الإنشاد حدثًا تداوله عدة أشخاص بطرق مختلفة؛ فأسف بعضهم لسوء حظّ جولي، وتحسّروا على رؤية امرأة بمثل هذه الروعة تضيع من أجل المجتمع؛ وأراد آخرون أن يعرفوا سبب عذابها والعزلة التي تعيش فيها.

قال المركيز لشقيق السيدة دي سريزي: إيه! يا عزيزي رونكرول: ألا تحسدني على سعادتي وأنت ترى السيدة دي أغلمون وتلومني على خيانتي لها؟ ولكن تقصّ، وستجد حظي التعس غير مرغوب ولن تشتهيه أبدًا، لو بقيت مثلي زوجًا لامرأة جميلة خلال سنة أو سنتين، ولا تجسر أن تقبّل يدها خشية أن تحطمها، ولا أن تلمس هذه الجواهر المرهفة التي لا تصلح إلا لتوضع تحت الزجاج، لما يلزمنا به غلاؤها ووهنُها من وقاية. هل تخرج حصانك الجميل، وقد قيل لي إنك شديد الحرص عليه، في أيام المطر والثلج؟ هي ذي قصتي. صحيح أنني واثق من عفة امرأتي.

لكن زواجي ترف كمالي، وأنت تخطئ إن اعتقدت بممارستي حياة زوجيّة طبيعية، وهكذا فإن خياناتي تُعدّ مشروعة نوعًا ما. كم أود أن أعلم ماذا ستفعلون لو كنتم في مثل حالي أيّها السادة المتهكمون؟ فليس لكثير من الرجال مثل مراعاتي لزوجتي؛ ثم أضاف همسًا: وأنا واثق أن السيدة دي إغلمون لايداخلها شكٌّ بحسن سلوكي، وهكذا سأكون مخطئًا إن تذمّرت، فأنا سعيد جدًا... غير أن لاشيء أكثر إزعاجًا للرجل الحسّاس من رؤية مخلوقة مسكينة عزيزة عليه تعاني العذاب...

- أجاب السيّد دي رونكرول: أنت إذن شديد الحساسية؟ إذ نادرًا ماتلزم بيتك. أضحك هذا التهكم الودّي المستمعين، لكن آرثور بقي باردًا، غير متأثر، وهو الرجل الرصين بطبعه، لكن كلمات هذا الزوج جعلت الإنكليزي الشاب دون شك، يتصوّر بعض الآمال، وقد انتظر بفارغ صبر اللحظة التي أمكنه فيها الانفراد بالسيّد دي إغلمون، وما أن تيسّرت له هذه الفرصة السانحة حتى بادره قائلاً:

- سيدي، شعرت بقلق عظيم وأنت تذكر وضع السيّدة المركيزة، وإذا كنت تعلم أنها، نتيجة عدم توفّر نظام خاص من العناية بها، ستتعرّض لخطر الموت، فإنني أعتقد أنّك لاتقف موقف اللامبالي تجاه ما تعانيه من عذاب. ولئن تجرأت على توجيه مثل هذا التصريح لك، فلأنني متأكّد أنّ لديّ ما يؤهلني لإنقاذ السيدة دي إغلمون وإعادة السعادة وبهجة الحياة لها. قلمّا تجد إنسانًا طبيبًا بين نبلاء مرتبتي غير أن المصادفة شاءت أن أدرس الطب. ثم أضاف وهو يتظاهر بأنانية باردة تلائم الهدف الذي يسعى إليه: وما أعانيه الآن من مَلَل يجعلني لا أبالي بتخصيص الوقت الكافي، والقيام بالأسفار اللازمة لمصلحة كائن يتألّم بدلاً من إشباع بعض نزوات حمقاء. إن شفاء مثل هذه الأنواع من الأمراض نادر لأنه يتطلّب كثيرًا من العناية، والوقت، والأناة؛ ويجب خاصة امتلاك الثروة، والقيام بالأسفار، والتقيّد بالتعليمات الطبيّة وهي تتغيّر كل يوم، ولكن ليس في ذلك ما يكدّر. إننا من صفوة النبلاء، وشدّد على هذه العبارة بمفهومها الإنكليزي؛ ويمكننا أن نتفاهم. وأنا أستدرك القول إنك في حال قبولك لعرضي ستكون في كل لحظة حكمًا على

twitter @baghdad_library

تصرفاتي، ولن أتخذ أيّة مبادرة دون أن أستشيرك وأخضع لرقابتك، وسأوفر لك النجاح إن وافقت على إطاعتي. ثم همس في أذنه مازحًا: إلا إن أردت ألا تبقى لمدة طويلة زوجًا للسيدة دي إغلمون.

- أجاب المركيز ضاحكًا: من المؤكد أنّ إنكليزيًا فقط يمكن أن يقدّم لي اقتراحًا بمثل هذه الغرابة. اسمح لي ألا أرفضه، وألا أقبله، بل أن أفكر به. وقبل كلّ شيء يجب أن يُطرح على زوجتي.

في تلك اللحظة ظهرت جولي مجددًا على البيانو وغنت لحن سميراميد[1] Son regina, Son guerriera فحظيت باستحسان إجماعي، لكنه استحسان صامت، إن صحّ القول، هو تهليلات ضاحية سان جرمان المهذبة التي تشهد على ما أثارته من حماس.

عندما عاد ذي إغلمون بزوجته إلى قصره، لاحظت جولي بنوع من السرور القلق نجاح محاولتها السريع، فزوجها، المستيقظ بالدور الذي لعبته، أراد أن يشرّفها بنزوة، وطاب له أن يعاملها وفق تمثيلها، واستحسنت جولي هذه المعاملة وهي الفاضلة المتزوّجة، وحاولت ما استطاعت أن تفرض سلطانها، لكن طبيعتها جعلتها تستسلم مرة أخرى، لكنها كانت المرّة الأكثر رهبة من جميع الدروس التي أعدها لها القدر، ونحو الساعة الثانية أو الثالثة صباحًا كانت تجلس مكفهرة حالمة في السرير الزوجي، ومصباح ذو ضوء خافت يبدّد بعض ظلمة الغرفة، والصمت العميق مخيّم فيها؛ وقد انتاب المركيزة منذ نحو ساعة تبكيت ضمير جارح، وهي تسكب دموعًا لا تدرك مرارتها إلا النساء اللواتي تعرّضن لذات الموقف وامتلكن روحًا كروح جولي للإحساس مثلها بقبح مداعبة متكلّفة، وللاشمئزاز من قبلة باردة؛ ردّة قلب تفاقمت بدعارة مؤلمة، ولامت نفسها على استكانتها وهوانها، ولعنت الزواج، وودّت لو تلقى نحبها. ولولا صرخة من ابنتها لألقت بنفسها من النافذة إلى قارعة الطريق، بينما السيد دي إغلمون في رقاد عميق قربها دون أن توقظه الدموع الساخنة

(١) أوبرا سمير اميد لروسيني مثّلت في البندقية العام ١٨٢٣ وفي باريس ١٨٢٥.

التي تسكبها زوجته فوقه. وفي اليوم التالي عرفت جولي كيف تبدو مرحة، ووجدت في نفسها القوّة لتظهر سعيدة، وتخفي ليس فقط كآبتها وإنّما اشمئزازها المتعذّر قهره، ومنذ ذلك اليوم لم تعدْ تنظر إلى نفسها كامرأة لاعيب فيها. ألم تكذب على نفسها؛ وبناء عليه أليست قادرة على الرياء، ألا تستطيع فيما بعد أن تبسط عمقًا مذهلاً على الجرائر الزوجية؟ إنّ زواجها هو سبب ذلك الانحراف الأولي الذي مايزال غير مؤثّر في شيء. غير أنّها تساءلت لماذا تقاوم عشيقًا محبوبًا بينما هي تستسلم على مضض، وضد الميل الفطري لزوج لا تحبّه أبدًا. إن جميع الأخطاء، والجرائم على الأرجح تستند إلى محاكمة سيّئة أو إلى إفراط في الأنانيّة؛ والمجتمع لايمكن أن يقوم إلا على التضحيات الفرديّة التي تُلزم بها القوانين، وقبولنا منافعه ألا يعني التعهد بدعم شروط استمراره؟ والحال أن التعساء الذين لايجدون لقمة العيش، والملزمون باحترام الملكيّة هم أقل استحقاقًا للشفقة من النساء المحرومات من متطلبات طبيعتهن ورهافتها. بعد عدّة أيام من هذا المشهد، الذي دُفنت أسراره في سرير الزوجيّة، قدّم دي إغلمون اللورد غرنفيل لزوجته. واستقبلت جولي أرثور بتهذيب فاتر يتلاءم مع ريائها، وفرضت الصمت على خفقات قلبها، وحجبت نظراتها، وأبدت الرصانة في صوتها، وهكذا استطاعت أن تبقى سيّدة مصيرها. وبعد أن تعرّفت بهذه الوسائل، الفطرية لدى النساء، إن صحّ القول، على مدى الحبّ الذي أوحت به؛ ابتسمت السيّدة دي إغلمون للأمل بشفاء عاجل، ولم تبد أيّة معارضة لإرادة زوجها الذي أكرهها على قبول عناية الطبيب الشاب، غير أنها لم ترد أن تثق باللورد غرنفيل إلا بعد أن درست بشكل كاف كلماته وطرائقه لتتأكد بأن له من الشهامة ما يكفي للتألم بصمت، وأن لها هيمنة مطلقة عليه بدأت في المغالاة باستخدامها: أليست امرأة؟.

يقع قصر مونكونتور الريفي القديم على إحدى هذه الكتل الصخرية الشهباء التي يجري نهر اللوار عند قاعدتها، وهو غير بعيد عن المكان الذي توقفت فيه جولي العام ١٨١٤. وهو أحد هذه القصور الصغيرة[1] المنتشرة في تورين، المتميّزة

(١) يبدو أن وصف قصر مونكنتور أخذ عن نصّ لوصف قصر أوسّه usse أحد قصور اللوار.

twitter @baghdad_library

ببياضها، وجمالها، وبريجاتها المنحوتة المطرّزة كأنها منمنمات مالين*. أحد هذه القصور الحلوة، الأنيقة التي تنعكس صورتها على صفحة مياه النهر بتجمع أشجار توتها، وكروم عنبها، وطرقاتها المحفّرة، ودرابزيناتها الطويلة المكشوفة، وأقبيتها المنقورة في الصخر، وأوشحة اللبلاب حولها، والمنحدرات الشديدة تحفّ بها. وسطوح مونكونتور تبرق تحت أشعة الشمس، وكل شيء فيها يتوهّج؛ وألف أثر من إسبانية يضفي على هذا المسكن الرائع مسحة شعرية: الوزّال الذهبي، والأزهار ذات الجريسات تعطر الأنسام، والهواء المداعب، والأرض الباسمة في كل مكان، والمناظر الساحرة العذبة تغلف الروح وتؤجج الحب، وتسكب الوسن في العينين، وتطرّي النفس وتهدهدها؛ فهذه المقاطعة اللطيفة الجميلة تسكّن الآلام وتوقظ العواطف، ما من أحد يبقى بارداً تحت هذه السماء الصافية وأمام هذه المياه البرّاقة. هنا يخمد أكثر من طمع، وهنا ترقدون في أحضان سعادة هادئة كما ترقد الشمس في أقماطها الأرجوانية واللازوردية.

في إحدى الأمسيات العذبة من شهر آب، في العام ١٨٢١، كان شخصان يتسلقان الدروب الوعرة التي تجتاز الصخور التي يستقرّ فوقها القصر ويتوجّهان إلى القمم ليتأمّلا دون شكّ المناظر المتعدّدة التي يكتشفانها. وهذان الشخصان هما جولي واللورد غرنفيل لكن جولي الآن تبدو امرأة أخرى جديدة تشعّ بألوان العافية الصريحة، وعيناها المنتعشتان بقوّة خلاّقة تبرق عبر غلالة بخار رطب أشبه بمسحة النضارة التي تمنح الأطفال جاذبية لاتقاوم. كانت البسمة لاتفارق شفتيها، تبسم للحياة وترفل في أحضان السعادة. ومن الطريقة التي تنقل فيها قدميها الناعمتين تسهل الملاحظة بأن ما من عذاب يثقل الآن، كما في السابق، خطواتها، أو يُضني نظراتها، أو يلوح في كلماتها أو حركاتها. وهي تحت مظلّة الحرير البيضاء التي تقيها من أشعة الشمس الحارة تشبه عروساً شابّة تحت برقعها، أو عذراء تتهيأ لتستقبل روائع الحبّ. وكان أرثور يقودها بعناية العاشق. ويوجّهها كما يوجّه طفل يشير إلى

* مالين: مدينة في بلجيكة قرب أنفر اشتهرت بمنمنماتها.

أسهل الدروب ويجنّبها المسلك الوعر، يدلّ على فُرجة منظر أو يقف أمام زهرة؛ متحرك على الدوام بشعور طيبة مستمر، وإحساس مرهف، ومعرفة حميمة برفاهية تلك المرأة، وهي عواطف يبدو أنّها فطرية فيه بقدر وربّما أكثر من الحركة الضرورية لوجوده الخاص. كان الطبيب والمريضة يسيران بذات الخطوات دون أن يدهشهما اتفاق يبدو وجوده منذ اليوم الأول لسيرهما معاً. كانا يمتثلان لإرادة واحدة، يتوقفان متأثرين بذات الأحاسيس، تتعلق نظراتها وكلماتهما بأفكار متبادلة. وعند وصولهما إلى أعلى أحد الكروم أرادا أن يستريحا على أحد هذه الصخور الكبيرة البيضاء التي تُقتلع باستمرار من الأقبية المعدّة في السفح الصخري وتأمّلت جولي الموقع قبل أن تجلس وهتفت:

يالجمال الموقع، فلننصب خيمة ونحيا هنا. ثم صاحت: هيّا يافيكتور، تعال بسرعة! أجاب السيد دي إغلمون من أسفل السفح بصرخة صياد، إنّما دون أن يسرع في سيره، لكنه كان يوجّه إلى امرأته بين وقت وآخر نظرة عندما تتيح له تعاريج الشِّعب الجبلي الرؤية وتنشّقت جولي هواء الجبل المنعش ملء رئتيها وهي ترفع رأسها وتلقي على آرثور إحدى هذه النظرات الثاقبة التي تعبّر فيها المرأة الذكيّة عن كل أفكارها؛ واستأنفت:

- أوه! أودّ لو أبقى دائمًا هنا. فهل يمكن أن نملّ من النظر بإعجاب إلى هذا الوادي الجميل؟ هل تعرف اسم هذا النهر الرائع، ميلورد؟

- إنّه السيز.

ردّدت: السيز، وتلك التلال الممتدة أمامنا؟

- إنّها هضاب الشير.

- وعلى يميننا؟ آه! هذه تور، ولكن انظر التأثير الرائع الذي تحدثه على البعد قباب أجراس الكاتدرائية.

وصمتت، وتركت يدها المشيرة إلى المدينة تعود لتلامس يد آرثور وهما يتبادلان نظرات الإعجاب بصمت عبر المشاهد وروائع الطبيعة المتناسقة، وخرير

twitter @baghdad_library

المياه، وصفاء السماء ونقاء الهواء، كان كل شيء يتوافق مع الأفكار المتدفقة إلى قلبيهما الشابين المتحابين. ردّدت جولي بحماس ساذج متزايد: إيه! يا إلهي، كم أحبُّ هذه المنطقة! ثم استأنفت بعد توقف: هل تسكن هنا منذ وقت طويل؟.

ارتعش اللورد غرنفيل عند سماع هذا السؤال، وأجاب بحزن وهو يشير إلى مجموعة من أشجار الجوز على الطريق: هنا، هنا كنت أسيراً ورأيتك لأول مرّة...

- نعم ولكنني كنت آنذاك كئيبة وقد بدت لي هذه الطبيعة موحشة أما الآن وصمتت، ولم يجسر غرنفيل على النظر إليها.

استأنفت أخيراً جولي بعد توقف طويل: إنني مدينة لك بهذه المتعة، ألا يجب أن أكون حيّة لأحسّ بأفراح الحياة، وقد كنت حتى الآن ميتة كلياً؟ أعطيتني أكثر من الصحة، علمتني أن أحسّ بجميع القِيَم...

للنساء موهبة لاتجارى في التعبير عن عواطفهن دون أن يلجأن إلى كثير من الكلمات الرنّانة؛ ففصاحتهن تتجلّى خاصّة في النبرة والحركة والموقف والنظرات. وأخفى اللورد غرنفيل رأسه بين يديه إذ سالت الدموع من عينيه، فقد كان هذا أول تعبير لجولي عن شكرها له منذ رحيلها من باريس بعد أن شمل المركيزة بعنايته مدة سنة كاملة وبإخلاص منقطع النظير، فقد قادها بمساعدة دي إغلمون إلى مياه إكس ثم إلى ساحل البحر في لاروشيل، وهو يتحرّى في كل لحظة التغيّرات التي تحدثها وصفاته الطبيّة العلمية والبسيطة على بنية جولي المتلفة. وكان يرعاها كرعاية بستاني هاوٍ لزهرة نادرة. وتلقت المركيزة عناية أرثور الذكية بكلّ أنانية الباريسية المعتادة على الإكرام، أو بلا مبالاة الخليلة التي لا تهتمّ بكلفة الأشياء ولا بقيمة الرجال وتنظر إليها وفق درجة الفائدة المقدّمة لها. إنّ التأثير الذي تمارسه الأماكن على الروح شيء جدير بالملاحظة؛ فإذا كانت الكآبة تنتابنا حتماً عند وجودنا على ضفاف المياه، فإن قانوناً آخر لطبيعتنا المتأثرة يفيد بأن عواطفنا تتنقى في الجبال، والهوى يربح فيها عمقاً ما يبدو أنه يخسره حيويةً. ومظهر حوض اللوار الواسع وارتفاع الهضبة الجميلة حيث جلس العاشقان أحدثا على الأرجح، هذا الهدوء العذب الذي تذوقا فيه أولاً

السعادة التي يُقدَّر فيها مدى الهوى الخفي تحت العبارات غير ذات المعنى ظاهرياً. وفي اللحظة التي أنهت فيها جولي العبارة التي أثّرت بشدّة في نفس اللورد غرنفيل، هزّت نسمة مداعبة قمة الأشجار، ونشرت رطوبة المياه الباردة في الجو، وحجبت بعض الغيوم أشعة الشمس، وأتاحت الظلال الرخيّة رؤية كلّ هذه الطبيعة الجميلة. وأشاحت جولي برأسها لتخفي عن اللورد الشاب منظر الدموع التي نجحت في حبسها وتجفيفها؛ ذلك أن تأثر أرثور انتقل إليها سريعاً، ولم تجرؤ أن ترفع إليه عينيها خشية أن يقرأ مَدَى الفرح المتجلي في هذه النظرة؛ فغريزتها كامرأة أشعرتها أن عليها في هذه الساعة الحرجة أن تكتم حبّها في أعماق قلبها، غير أن الصمت يمكن أن يكون مرعباً أيضاً؛ وعندما لاحظت جولي أن اللورد غرنفيل في وضع استعصت عليه الكلمات استأنفت بصوت عذب:

- تأثرت بما قلته لك، ميلورد، وربّما كان هذا الانكشاف الانفعالي هو الطريقة التي تتّخذها روح طريفة وطيّبة كروحك لترتدَّ عن حكم خاطئ. ظننت أنني عاقّة عندما رأيتني باردة متحفظة، أو فاقدة الحسّ ساخرة، خلال رحلة ستنتهي لحسن الحظ قريباً. لم أكن جديرة بعنايتك لو لم أعرف قيمتها، ميلورد، لم أنس شيئاً، وللأسف! لن أنسى شيئاً، وخاصّة العناية التي دفعتك للسهر عليَّ كما تسهر أمٌّ على طفلها، والثقة النبيلة في مداولاتنا الأخويّة، ورقّة أساليبك؛ وهي إغراءات نقف جميعاً أمامها مجرّدين من كل سلاح. ميلورد، إن مكافأتك هي فوق استطاعتي..

عند هذه العبارة ابتعدت جولي بسرعة، ولم تبدر من اللورد غرنفيل أيّة حركة لإيقافها. وذهبت المركيزة إلى صخرة على مسافة قريبة، وجلست عليها ساكنة، فانفعالاتهما كانت سراً بالنسبة لها بالذات، كانا يبكيان، دون شكّ، في صمت؛ وزاد شدو العصافير المفرح، والمسرف بالتعابير الرقيقة، والشمس في مغربها من عنف الصدمة التي تلزمهما بالفراق. وتكفّلت الطبيعة بأن تعبّر لهما عن حبّ لم يجرؤا على التحدّث عنه.

عادت جولي وانتصبت أمام أرثور في وقفة ملؤها الوقار وتناولت يده قائلة:

- إيه! ميلورد. سأطلب منك أن تجعل الحياة التي أعدتها لي نقية، مقدّسة،

twitter @baghdad_library

سنفترق هنا. ثم أضافت وهي ترى شحوب اللورد غرنفيل: أعلم أنني أطلب منك مكافأة على إخلاصك تضحية أجلّ من جميع التضحيات التي بذلتها وأنا خير من يعرف مداها . . . لكن يجب ذلك . . . لاتبق في فرنسة. ثم أضافت وهي تضع يد الشاب على قلبها الخافق: أليس في توجيهي هذا الأمر لك منحك حقوقًا ستكون مقدّسة؟.

قال أرثور وهو ينهض: نعم.

في تلك اللحظة أشار إلى دي إغلمون الذي يحتضن ابنته بين ذراعيه، والذي ظهر من طرف الطريق الآخر الوعر من جهة درابزين القصر الذي تسلّقه لتقفز صغيرته هيلين من فوقه. استأنف أرثور: جولي لن أحدثك أبدًا عن حبي، فروحانا تتفاهمان جيّدًا؛ فأيًا كان عمق الأسرار التي أبهجت قلبي، فإنني أشعر وأعرف وأرى أنك تشاركينني بها كلّها. وأنا الآن أحصل على دليل التجاوب العاطفي الثابت والرائع بين قلبنا، ولكن سأهرب . . . فكّرت مرات عديدة، وبمهارة فائقة في وسائل قتل هذا الرجل لأستطيع الصمود إن بقيت قريبًا منك.

- قالت وقد بدت على وجهها المضطرب علامات دهشة مؤلمة: خطرت لي ذات الفكرة.

لكن كان يوجد قدر كبير من الفضيلة والثقة بالنفس وكثير من الانتصارات المحرزة سراً بالحب في النبرة والحركة المتجليّتين في تصرفات جولي حتى أن اللورد غرنفيل استمر يتأمّلها إعجابًا. وتلاشى ظل الجريمة بالذات في ذلك الوجدان الساذج؛ فالإحساس الديني المسيطر على ذلك الجبين الوضاء من واجبه دومًا أن يطرد الأفكار السيّئة اللاإرادية التي تولدها طبيعتنا الناقصة، هذه الأفكار التي تبين في ذات الوقت كبر قدرنا وأخطاره.

استأنفت جولي القول: وعندئذ فكّرت بأنني سأتعرّض لازدرائك، وهذا ما أنقذني ثم طأطأت عينيها وهي تقول: أليس في فقدان تقديرك موتي؟

بقي هذان العاشقان الباسلان بعد ذلك مدة صامتين، وهما مستغرقان في أفكارهما: وهي متماثلة تمامًا، جيّدها ورديتها، ومتفاهمان كليًا سواء في مسراتها الحميمية أو آلامها الخفيّة. أضافت وهي ترفع نحو السماء عينين تملؤهما الدموع: يجب ألا أتذمّر، فتعاسة حياتي هي من صنعي.

صاح المركيز دي إغلمون من المكان الذي يقف فيه وهو يشير بيده: ميلورد، لقد التقينا هنا لأول مرّة، ربّما لا تذكر ذلك، لكن الموقع هناك قرب تلك المجموعة من أشجار الخور. هزّ الإنكليزي رأسه موافقًا، بينما استأنفت جولي:

أتوقع أن أموت شابة وتعيسة. نعم لا تعتقد أنني سأعيش، فالحزن قتال أيضًا كهذا المرض الرهيب الذي شفيتني منه، ولا أعتقد أنني مذنبة، كلا فالعواطف التي أكنّها لك خالدة لاتقاوم، لكنها لا إرادية. وأريد أن أبقى عفيفة، غير أنني سأكون أمينة لوجداني كزوجة، ولواجباتي كأم، ولأمنيات قلبي. ثم أضافت تخاطبه بصوت متهدّج: استمع إليّ، لن أنتمي أبدًا إلى هذا الرجل؛ وبحركة مذعورة ملؤها الرهبة والحقيقة أشارت إلى زوجها. واستأنفت: إن قوانين العالم تلزم بأن أجعل وجوده سعيدًا، وسأذعن لها، سأكون خادمته؛ وسيكون إخلاصي له دون حدود، لكنني منذ هذا اليوم أرملة. لا أريد أن أكون مومسًا لا في عينيّ، ولا في أعين الناس. وعندما لا أكون مطلقًا للسيد دي إغلمون، فلن أكون أبدًا لأي شخص آخر. ولن تحصل مني إلا على ما سبق واقتلعته. هوذا القرار الذي أخذته على نفسي - ونظرت إلى أرثور باعتزاز - إنّه قرار لا رجعة عنه، ميلورد. والآن، اعلم أنّك إن رضخت لفكرة جرميّة فإن أرملة السيد دي إغلمون ستدخل في أحد الأديرة سواء في إيطالية أو في إسبانية. أرادت التعاسة أن تتحدث عن حبّنا. وربما كانت هذه الاعترافات لا مفرّ منها؛ لكنها آخر مرة يخفق فيها قلبانا بمثل هذه القوة. غدًا ستتظاهر بأنك تلقيت رسالة تدعوك للعودة إلى إنكلترة وسنفترق فراقًا لا لقاء بعده.

غير أن جولي، المنهكة من هذا الجهد أحسّت بركبتيها تتراخيان، وببرد قتال يعصف بها وبفكرة أنثوية تمامًا جلست كي لا تتهاوى بين ذراعي أرثور.

twitter @baghdad_library

- صرخ اللورد غرنفيل : جولي .

هذه الصرخة الشاقبة دوّت كهزيم رعد ، وعبّرت بنبرتها التي تقطع نياط القلب عن كلّ ما لم يستطع العاشق ، الصامت حتى الآن ، أن يقوله .

عند سماع هذه الصرخة هرع المركيز حائرًا لحظا ووقف فجأة أمام العاشقين وهو يسأل :

إيه! ما ذا بها؟

قالت جولي بتلك البرودة المذهلة التي تتيحها الفطنة الطبيعية للنساء غالبًا في أزمات الحياة الكبرى : لا شيء ، فبرودة شجرة الجوز هذه كادت تفقدني وعيي ، مما سبّب الذعر لطبيبي . ألست بالنسبة له لوحة فنيّة لم تكتمل؟ وربّما ارتعش عندما رآها مهدّدة بالتلف . . .

وتأبطت بجرأة ذراع اللورد غرنفيل ، وابتسمت لزوجها وتأمّلت المشهد حولها قبل أن تغادر قمة الصخور ممسكة بيد رفيق رحلتها .

قالت : هوذا أجمل موقع رأيته بالتأكيد ، ولن أنساه أبدًا انظر يا فيكتور ؛ يا للأبعاد! وللمدى والتنوّع! هذه المنطقة تجعلني أدرك معنى الحبّ .

وضحكت بشكل شبه تشنّجي ضحكة تخدع بها زوجها ، وقفزت بمرح إلى الطريق الوعر واختفت .

قالت عندما ابتعدت عن السيد دي إغلمون : ايه! ماذا ، أهكذا باكرًا؟ إيه ، ماذا ، يا صديقي ، بعد لحظة لن نستطيع أن نكون ، ولن نكون أبدًا أنفسنا ؛ أخيرًا لن نعيش أبدًا . . . أجاب اللورد غرنفيل : لنسر ببطء ، فالعربات ما تزال بعيدة . وسنسير معًا . وإن سُمح لنا أن نضع الكلمات في ناظرينا فسبحيا قلبانا أوقاتًا إضافية .

سارا ببطء على السدّة المجاورة لمياه النهر ، مع إشعاعات الغروب الأخيرة ، صامتين تقريبًا إلا من بعض كلمات مبهمة ، ناعمة كخرير نهر اللوار لكنها تهزّ الروح ، وكانت الشمس وهي تتهادى إلى الأفول تغلفهما بانعكاسات أنوارها الحمراء قبل أن

تختفي؛ صورة كئيبة لحبهما المشؤوم. وكان الجنرال قلقًا لعدم عثوره على عربته في المكان الذي تركها فيه فسبق العاشقين دون أن يشاركهما في الحديث، فسلوك اللورد غرنفيل النبيل والمرهف خلال تلك الرحلة أبعد كل شبهات المركيز فترك امرأته تتصرف بكل حرية مطمئنًا إلى الثقة التي أولاها للورد الطبيب.

كان أرثور وجولي ما يزالان يتبعان التوافق الحزين والمؤلم بين قلبيهما الذاويين، غير أنهما عند صعودهما السفح إلى مونكونتور أحسّا بأمل مبهم، وسعادة قلقة لم يجسرا على تعليلها، إنّما عند النزول على طول الضفّة انهارَ البناء الواهي المتصوّر في خيالهما الذي لم يجرؤا على التطلع إليه فكانا أشبه بالأطفال الذين يتوقعون سقوط قصور الورق التي بنوها. وفقد كل أمل، وفي المساء نفسه سافر اللورد غرنفيل. وبرهنت النظرة الأخيرة التي ألقاها على جولي، للأسف، أنه كان على حقّ، منذ اللحظة التي كشف له التجاوب العاطفي مدى قوة الهوى، في ألاّ يثق بنفسه.

عندما وجد السيد دي إغلمون وزوجته نفسيهما جالسين في المقعد الخلفي من عربتهما دون رفيق سفرهما، وهما يجتازان بسرعة الطريق الذي سبق أن سلكته المركيزة في العام ١٨١٤، وكانت جاهلة آنذاك بالحب وتلعن في ذلك الحين تقريبًا رسوخه، فإنها تذكرت ألف انطباع منسي. فللقلب ذاكرته أيضًا. وقد تعجز امرأة عن تذكر الأحداث الأكثر خطورة، لكنها تتذكر طيلة حياتها الأشياء المتعلقة بعواطفها. وهكذا كان تذكّر جولي تامًا حتى بتفاصيله التافهة؛ فقد أسعدها أن تتعرف على جميع أحداث رحلتها الأولى، وحتى على الأفكار التي راودتها في بعض مناطق الطريق. وعاد فيكتور عاشقًا بولع لامرأته منذ أن استرجعت نضارة الشباب وكل فتنتها فالتصق بها على طريقة العشاق. وعندما حاول معانقتها تخلّصت منه برفق، ووجدت ذريعة ما لتجنّب هذه المداعبة البريئة. ثم أبدت أنفتها من تماس فيكتور بها الذي شعرت بحرارته من طريقة جلوسهما وشاركته فيها، وأرادت أن تجلس وحدها في مقدمة العربة؛ لكن زوجها كفاها مشقة تغيير مكانها بانتقاله وتركها وحيدة على المقعد الخلفي. وشكرته على حسن التفاتته بتنهدة قابلها بالازدراء،

twitter @baghdad_library

وفسّر مغوي الحامية العسكرية كآبة امرأته لمصلحته حتى أنه ألزمها في نهاية اليوم بحزمه على أن تصرح له عن شعورها. قالت: يا صديقي، كدت أن تسبّب موتي، كما تعلم. ولو أنني ما أزال فتاة دون تجربة لأمكنني أن أبدأ مجدّدًا بالتضحية بحياتي، لكنني أمّ ولي ابنة يجب أن أربيها وانصرف لخدمتها قدر خدمتي لك. فلنتحمل البليّة التي أصبنا بها معًا، وأنت الأقلّ تأثرًا بها. ألم تعرف كيف تجد ما يسلوك عنها، بينما يحرّم عليّ واجبي، وهناؤنا المشترك والطبيعة، وهي أهم من كل ذلك، الجريَ على مثالك. ثم أضافت: انظر، نسيت بكل استهتار في أحد الدواليب ثلاثة رسائل من السيّدة دي سريزي، وإليكها. وسكوتي عن ذلك يبرهن لك أنني امرأة ملؤها التسامح؛ وهي لا تلزمك بالتضحيات التي تقضي بها القوانين. لكنني توصّلت بعد إمعان الفكر إلى أن أدوارنا ليست متماثلة، وأن القدر يفرض العذاب على المرأة وحدها. إن عفتي ترتكز على مبادئ مقرّرة وثابتة، وأنا أعرف كيف أعيش طاهرة دون ملامة ولكن اتركني أعيش.

قُهرَ المركيز، المنذهل بالمنطق الذي تعرف النساء استخدامه مع تجلّيات الحبّ، بهذا الموقف الذي تتمثل فيه كرامة المرأة بشكل طبيعي في الأزمات، فالرفض الغريزي الذي أظهرته جولي لكل ما يسيء إلى حبها وأمنيات قلبها هو أحد أجمل الأشياء لدى المرأة، وقد ينتج عن عفة طبيعية لا تسكنها القوانين ولا الحضارة. ولكن من يستطيع أن يلوم النساء؟ ألسنَ وهن يفرضن الصمت على عاطفة مستبدة لا تسمح لهن بالانتماء إلى رجلين مثل أولئك الكهنة فاقدي الإيمان؟ وإذا كانت بعض النفوس الصارمة تلوم نوع التسوية الذي أجرته جولي بين واجباتها وحبها، فإنّ ذوي الروح المشبوبة العاطفة سيجعلون منه جريمة. وهذا الاستهجان العام يدلّ إمّا على التعاسة المتوقعة من عصيان القوانين، أو على العيوب المؤسفة في المؤسسات التي يرتكز عليها المجتمع الأوروبي.

انقضت سنتان على ممارسة السيد والسيدة دي إغلمون حياة أفراد الطبقة الراقية، كل منهما منطلق في اتجاهه، يلتقون في الصالونات أكثر من لقائهما في

منزلهما. طلاق أنيق تنتهي به كثير من الزيجات في المجتمع الراقي. وفي ذات مساء، وُجد الزوجان بشكل طارئ مجتمعين في صالونهما. كانت السيدة دي إغلمون قد دعت إحدى صديقاتها إلى العشاء، وكان الجنرال الذي اعتاد على تناول العشاء في المدينة قد بقي في المنزل. قال السيد دي إغلمون وهو يضع على الطاولة فنجان القهوة بعد أن انتهى من شربه:

- ستكونين جدّ سعيدة يا سيدتي المركيزة. ثم نظر إلى السيدة ويمفن نظرة امتزج بها المكر بالغم واستأنف: سأذهب في رحلة صيد طويلة مع منظم الصيد بالكلاب في البلاط الملكي، وستحيين خلال ثمانية أيام على الأقل حياة أرملة طليقة، وهذا ما ترغبين به على ما أعتقد.

ثم وجه كلامه إلى الخادم الذي جاء يرفع فناجين القهوة الفارغة: غيّوم، هيّئوا لي العربة. كانت السيّدة دي ويمفن هي لويز التي أرادت السيدة دي إغلمون في رسالة لها سابقًا أن تنصحها بالبقاء عازبة. وتبادلت السيّدتان نظرة تواطؤ تدلّ علي أن جولي وجدت في صديقتها نجيّة لها ومؤتمنة على سرّها متسامحة مشفقة؛ لأن السيدة دي ويمفن كانت سعيدة جداً بزواجها. وفي الوضع المتناقض الذي وُجدت فيه الصديقتان ربما كانت سعادة إحداهما ضمانة لوفائها وإشفاقها على تعاسة الأخرى؛ ففي مثل هذه الحال يشدّ تباين مجرى الأقدار أواصر الصداقة.

قالت جولي وهي تلقي نظرة لامبالية على زوجها: أهذا وقت الصيد؟.

كان شهر آذار في نهايته.

- سيدتي، إن مدير الصيد في البلاط يصطاد متى شاء، وأينما يشاء؛ وسنذهب إلى الغابات الملكية لقتل الخنازير البرية.

- احترس من أي حادث طارئ.

- أجاب باسمًا: المصيبة طارئة وغير متوقعة دائمًا.

twitter @baghdad_library

نهض الجنرال وقبّل يد السيدة دي ويمفن والتفت نحو جولي قائلاً بلهجة متوسلة :

- سيدتي ، إن قضيت ضحية خنزير بريّ .

سألت السيدة دي ويمفن : ماذا يعني هذا؟

قالت السيدة دي إغلمون لفيكتور : هيا تعال . ثم ابتسمت وكأنها تقول للويزا : سترين . مدت جولي عنقها لزوجها الذي تقدّم ليقبلها ، لكن المركيزة انحنت بسرعة جعلت القبلة الزوجية تنزلق على كشكش سترتها .

- قال المركيز موجّهاً كلامه للسيدة دي ويمفن : ستشهدين عند عرش الله أن إرادةً سنيّة قد لزمتني للحصول على هذه الحظوة . هوذا مفهوم زوجتي للحب . أوصلتني إلى هذه الحال ، دون أن أعلم بأيّة خدعة . أتمنى لكما وقتاً ممتعاً حافلاً بالمسرة! . وخرج .

هتفت لويزا بعد أن بقيت المرأتان وحدهما : حقاً إن زوجك المسكين طيب جداً ، وهو يحبك .

- أوه! لا تضيفي حرفاً إلى هذه الكلمة الأخيرة . إن الاسم الذي أحمله يروّعني . . .

قالت لويزا : نعم ، لكن ڤيكتور يطيعك كلياً .

أجابت جولي : تقوم إطاعته جزئياً على التقدير الكبير الذي أوحيت له به . إنني امرأة عفيفة جداً متقيدة بالشرائع . أمنت له حياة منزلية رضيّة ، وأغمضت عيني عن مغامراته ولا آخذ شيئاً من ثروته ، ويمكنه أن يبدّد دخله كما يشاء ؛ فأنا أعنى بحفظ رأس المال فقط ، فأنعم لقاء ذلك بالسلام . إنّه لايكشف عن نواياه أو لا يريد أن يكشف عنها تجاهي . ولكن إن كنت أعامل زوجي هذه المعاملة الآن ، فهذا لايعني أنني لا أخشى تأثيرات طبعه . فأنا كمروّض الدبّ الذي يخشى أن يحطّم الوحش يوماً كمامته ؛ وإذا اعتقد ڤيكتور أن من حقّه عدم تقديري فإنني لا أجسر على تصوّر

ما سيحدث؛ لأنه عنيف، ممتلىء غروراً، واعتداداً بالنفس خاصة؛ وإذا لم يكن ذا عقل ثاقب ليلتزم جانب الحكمة في ظرف حرج تتورّط فيه أهواؤه الشريرة فإنه سيّىء الخُلُق، وقد يقتلني فجأة حتى لو انتظر الموت كمداً في اليوم التالي؛ لكنني لا أخشى هذه السعادة المشؤومة . .

مرّت لحظات صمت انصرفت فيها الصديقتان إلى التفكير بالسبب الخفي لهذا الوضع .

استأنفت جولي وهي توجّه نظرة تواطؤ إلى لويزا: أطعتُ بشكل قاس غير أنني لم أمنع ذلك البعيد الآن عن الكتابة لي . آه! لقد نسيني، وهو على حقّ. سيكون الأمر مفجعاً جداً إن قضي على مستقبله! ألا يكفي ما حدث لي؟ تصوّري يا عزيزتي أنني أقرأ الصحف الإنكليزية على أمل رؤية اسمه وارداً فيها . ايه! لكنه حتى الآن لم يظهر في مجلس اللوردات .

- أنت تعرفين الإنكليزية إذن؟

- ألم أقل لك إنني تعلمتها! .

هتفت لويزا وهي تمسك يد جولي: يا صغيرتي المسكينة، ولكن كيف يمكنك العيش حتى الآن؟

- أجابت المركيزة وقد أفلتت منها حركة ساذجة شبه طفولية: اسمعي، إنني أتناول الأفيون، وقصة الدوقة دي . . . في انكلترة، ولدت لدي هذه الفكرة . أنت تعلمين أن ماتورين قد ألّف عنها رواية . وقطرات اللودانوم التي آخذها ضعيفة جداً؛ وأنام . وأنا لا أستيقظ أكثر من سبع ساعات أخصّصها لابنتي . . .

نظرت لويزا إلى النار، دون أن تجرؤ على تأمّل صديقتها التي توضّحت كلّ مظاهر بؤسها أمام عينيها لأول مرّة .

قالت جولي بعد لحظات صمت: لويزا، احفظي سرّي .

وفجأة حضر خادم يحمل رسالة للمركيزة، فصاحت وقد شحب لونها: آه!

twitter @baghdad_library

- قالت لها السيدة دي ويمفن : لن أسألك ممن هذه الرسالة .

انصرفت المركيزة إلى القراءة ولم تعد تسمع شيئًا ، ورأت صديقتها العواطف الأكثر فعالية والحماسة الأكثر خطراً ترتسم على وجه السيّدة دي إغلمون الذي كان يحمر تارة ويصفرُّ أخرى ؛ أخيراً ألقت جولي الورقة في النار وصاحت :

- هذه الرسالة مُحرقة! أوه! قلبي يتفطّر .

ونهضت ، وسارت وعيناها تلتهبان . وهتفت : إنّه لم يغادر باريس .

كانت كلماتها غير منتظمة ، حتى أن السيدة دي ويمفن لم تجرؤ على مقاطعتها ، فقد كانت عباراتها تُلفظ مقطعة وهي تلفظ بنبرة أكثر فأكثر عمقًا وكان في كلماتها الأخيرة شيء من الرهبة .

- إنّه لم ينقطع عن رؤيتي ، دون علمي . ونظراته المفاجئة ليَّ كل يوم قد ساعدته على العيش . هل عرفت ذلك يالويزا؟ إنه يحتضر ويطلُب أن يحضر ليودّعني . لقد علم أن زوجي سيتغيّب هذا المساء لعدة أيام . وسيحضر بعد مدّة . أوه! سأهلك خلال تلك الآونة .

إنني يائسة . ألا تسمعينني؟ ألا تسمعين؟ ابقي معي . فأمام امرأتين لن يجسر ! أوه! لاتتركيني فإنني أخشاه .

- أجابت السيدة دي ويمفن : لكنّ زوجي يعلم أنني أتناول العشاء في منزلك ، وسيأتي للعودة بي .

- إيه! سأصرفه قبل مغادرتك ، سأكون الجلاد على روحينا . وا أسفاه! إنّه يعتقد بعدم حبي له . وهذه الرسالة يا عزيزتي تحتوي عبارات أرى أنها كُتبت بأحرف من نار . سمعت ضجة عربة أمام الباب ، فصاحت المركيزة فرحة :

- آه! إنّه يأتي بشكل علني ، دون محاولة التستّر .

صاح الخادم معلنا وصول الزائر : اللورد غرنفيل .

بقيت المركيزة واقفة، ساكنة، فقد زالت عنها كل قسوة ممكنة وهي ترى أرثور شاحبًا ونحيلاً وممتقعًا. وبالرغم من أن اللورد غرنفيل أحسّ بامتعاض شديد لأنه لم يجد جولي وحدها فقد حافظ على هدوئه وبرودة أعصابه. لكن بالنسبة لهاتين المرأتين، المطلعتين على أسرار الحبّ، فإن في محتوى رنّة صوته، وفي تعبير نظراته بعض قدرة تنسب إلى السمك الرعّاد[1]. وبقيت المركيزة والسيّدة دي ويمفن مذهولتين بتواصل حي لألم رهيب. فنبرة صوت اللورد غرنفيل جعلت قلب السيدة دي إغلمون يخفق بشدّة حتى أنها لم تجسر على إجابته خشية أن ينكشف له مدى القدرة التي يمارسها عليها، ولم يجسر اللورد غرنفيل أن ينظر إلى جولي، وهكذا وقع عبء تبادل حديث تافه على السيدة ويمفن؛ بعد أن ألقت عليه جولي نظرة مشوبة بعرفان جميل مؤثّر وشكرته على العناية التي أحاطها بها. وفرض العاشقان بعد ذلك الصمت على عواطفهما، ولزما الحدود التي يقتضيها الواجب وآداب المجاملة، ولكن أعلن بعد لحظات وجيزة عن وصول السيد دي ويمفن، وتبادلت الصديقتان عند رؤيته يدخل الصالة نظرة أدركتا فيها، دون أن تتكلما الصعوبات الجديدة الناجمة عن الوضع فقد كان من المتعذر اطلاع السيد دي ويمفن على سرّ هذه المأساة وليس لدى لويزا أسباب معقولة تقدّمها لزوجها بغية بقائها لدى صديقتها. وعندما وضعت السيّدة دي ويمفن شالها، نهضت جولي فجأة لتعينها على عقده وهمست لها بصوت منخفض:

- سأتدرّع بالشجاعة فما دام قد جاء لزيارتي بشكل مُعلن فلن أخشى شيئًا؟ إنما لو كنت دون صحبتك عند رؤيته وهو بهذا الشحوب لا رتميت عند قدميه.

قالت السيدة دي إغلمون بصوت مرتعش وهي تعود لتأخذ مكانها على كنبة عريضة لم يجرؤ اللورد غرنفيل أن يأتي ليجلس قربها: إيه! وبعد يا أرثور، إنك لم تطعني.

- لم أستطع أن أقاوم طويلاً متعة سماع صوتك، وأن أكون قريبًا منك. كنت في

(١) أطلق لقب السمكة الرعادة على إسنير في «بها» ونعاسة الغانيات».

twitter @baghdad_library

جنون، وهذيان. ولم أعد سيّد نفسي، وتأمّلت وضعي جيّدًا، فرأيتني ضعيفًا جداً وأنا مشرف على الموت. ولكن أن أموت دون أن أراك، أو أن أسمع حفيف أذيال ثوبك، أو أتلقى عبراتك، أيّة ميتة هذه!

أراد أن يبتعد عن جولي، لكن حركتة المفاجئة أسقطت مسدسًا من جيبه. ونظرت المركيزة إلى السلاح بعين خلت من الانفعال ومن التفكير. والتقط اللورد غرنفيل المسدس وبدا منزعجًا بشدّة من حادث يمكن أن يُعَدَّ مزاودة عاشق.

هتفت جولي: أرثور!

- أجاب وقد خفض ناظريه: سيدتي، جئت يائسًا، وأردت... وتوقّف عن الكلام.

- صاحت: أردت أن تنتحر في منزلي.

- قال بصوت عذب: كلا، ليس وحدي.

- ايه! ماذا، ربّما أردت أن تقتل زوجي أيضًا.

- هتف بصوت مختنق: كلا، كلا، لكن اطمئني؛ فمشروعي المشؤوم قد تلاشى، فعندما دخلت، ورأيتك، شعرت بشجاعة تدفعني للصّمت والموت وحدي.

نهضت جولي وألقت نفسها بين ذراعي أرثور الذي تمكن رغم نحيب حبيبته أن يميّز كلمتين مفعمتين بالهوى، قالت: الشعور بالسعادة والموت. إيه! نعم!

كانت كل قصة جولي في هذه الصرخة العميقة، صرخة الطبيعة والحبّ التي تستسلم لها النساء غير التقيّات. وأمسك بها أرثور وحملها إلى الكنبة بحركة تتضمّن كل العنف الذي تولّده سعادة غير متوقعة. لكن المركيزة تخلصت فجأة من ذراعي حبيبها وألقت عليه نظرة ثابتة، نظرة امرأة في غاية القنوط، وأمسكت يده وحملت باليد الأخرى شمعدانًا وقادته إلى غرفة نومها، وعند وصولها إلى السرير الذي ترقد فيه هيلين أزاحت برفق الستائر، وحسرت الغطاء عن ابنتها وهي تضع يدها أمام

الشمعة حتى لا يضايق ضوؤها الأجفان الشفافة نصف المغلقة لابنتها الصغيرة. كانت هيلين مفتوحة الذراعين، وهي تبتسم أثناء نومها. وأشارت جولي بنظرة إلى اللورد غرنفيل تريه ابنتها، وقالت هذه النظرة كل شيء.

- يمكن أن نهجر زوجًا حتى لو كان يحبنا. فالرجل كائن قوي ويمكن أن يتأسى. ونستطيع ازدراء قوانين المجتمع. لكن طفلاً دون أمّه.

جميع هذه الأفكار وآلاف غيرها أكثر تأثيرًا أيضًا كانت في هذه النظرة.

قال الإنكليزي متمتمًا: يمكنه اصطحابها، وسأشملها بحبي...

استيقظت هيلين ونادت: ماما.

عند هذا النداء انخرطت جولي في البكاء، وجلس اللورد غرنفيل صامتًا مكفهر الوجه، متصالب الذراعين.

- ماما! هذه المناداة الساذجة، الجميلة. أيقظت عندئذٍ من العواطف النبيلة والمشاركات الوجدانية التي لاتقاوم حتى أن العشق سُحق خلال لحظة تحت صوت الأمومة القوي. ولم تعد جولي امرأة بل أمًا. ولم يستطع اللورد غرنفيل المقاومة طويلاً وشارك جولي في دموعها. وفي تلك اللحظة فُتح باب بعنف محدثًا ضجة كبرى وسمعت هذه الكلمات:

سيدة دي إغلمون، هل أنت هنا؟ ورنت هذه الكلمات كهزيم الرعد في قلب العاشقين. فالمركيز قد عاد. وقبل أن تتمكن جولي من استعادة رباطة جأشها، توجه الجنرال من غرفته إلى غرفة زوجته المجاورة ولحسن الحظ أشارت جولي للورد غرنفيل فهرع يختبئ في حجرة الحمام التي أغلقت المركيزة بابها بسرعة.

- قال لها فيكتور: ها أنا يا زوجتي، فرحلة الصيد لم تتمّ، وسأذهب إلى النوم.

- عم مساءً، سأنام بدوري أيضًا، لكن دعني أخلع ثيابي.

- إنك حادّة الطبع هذا المساء، وسأطيعك يا سيدتي المركيزة.

twitter @baghdad_library

دخل الجنرال إلى غرفته ورافقته جولي لتغلق الباب الفاصل بين الغرفتين وأسرعت لتحرر اللورد غرنفيل، وعادت إليها سرعة بديهتها، وهي تفكر بأن زيارة طبيبها السابق طبيعية جداً، ويمكنها أن تتركه في الصالون لتشرف على نوم ابنتها. وذهبت لتطلب منه الذهاب إلى هناك دون ضجّة، لكنها عندما فتحت باب حجرة الحمام، بدرت عنها صرخة ثاقبة، فإصبع اللورد غرنفيل قد تحطّمت بانغلاق الباب عليها.[1]

- سألها زوجها: إيه! ماذا دهاك؟

- أجابت: لاشيء، لا شيء، وخزت إصبعي بدبوس.

فُتح باب الاتصال فجأة، وظنت المركيزة أن زوجها أتى ليطمئن عليها، ولعنت هذا الاهتمام الذي لا علاقة للقلب به. واضطرّت إلى إعادة إغلاق باب حجرة الحمام قبل أن يتمكن اللورد من تحرير يده من الشق الذي حُصرت به. وظهر الجنرال مجدّداً، لكن المركيزة أخطأت في الهدف المتعلق بحاجة شخصية.

- هل تستطيعين إعارتي منديلاً؟ هذا الوصيف الماكر شارل لم يترك لي منديلاً أغطي فيه رأسي. في الأيام الأولى من زواجنا كنت تهتمين بأموري بعناية دقيقة تضجرني. آه! إن شهر العسل لم يدم طويلاً بالنسبة لي ولا بالنسبة لربطات عنقي وأنا الآن بين يدي هؤلاء الخدم المهملين غير المبالين بأموري.

- إليك هذا المنديل. لكن ألم تمرّ على الصالون؟

- كلا.

- قد يكون اللورد غرنفيل ما يزال موجوداً فيه.

أهو في باريس؟

على ما يظهر.

أوه! سأذهب لرؤية هذا الطبيب الطيّب.

---

(١) تلميح إلى حادث مماثل حصل للسيد دي جوكور وذكر مثيل له في سارا زين ودوقة لانجه.

هتفت جولي : لكن يبدو أنه قد رحل .

كان المركيز في تلك اللحظة وسط غرفة زوجته وهويضع المنديل على رأسه ويتأمّل نفسه في المرآة .

قال : لا أدري أين خدمنا . قرعت الجرس لشارل ثلاث مرات ولم يأت . أنت أيضًا دون وصيفتك؟ اقرعي لها . أريدُ غطاء إضافيًا على سريري هذه الليلة .

أجابت المركيزة بجفاء : پولين في الخارج .

قال الجنرال : في منتصف الليل!

سمحتُ لها بالذهاب إلى الأوبرا .

علّق الزوج وهو مستمر في خلع ثيابه : أمر غريب! خيل إليّ أنني رأيتها عند صعودي السلم .

قالت جولي متظاهرة بالضجر : يبدو أنها قد عادت .

وكي لا تثير أيّة شبهة لدى زوجها ، شدت حبل الجرس بشكل ضعيف .

لم تعرف أحداث تلك الليلة بشكل تفصيلي إنما يبدوأنها مرت ببساطة ورهبة على مثال الأحداث العادية والمنزلية التي سبقتها . وفي اليوم التالي لازمت المركيزة السرير لوعكة استمرت عدة أيام .

سأل السيد دي رونكرول السيّد دي إغلمون بعد عدة أيام من تلك الليلة المفجعة :

أي أمر خارج عن المألوف حدث في منزلك حتى أن جميع الناس يتحدثون عن امرأتك؟

قال دي إغلمون : اسمع نصيحتي ، وابق عازبًا . امتدت النار إلى ستائر السرير الذي تنام فيه صغيرتنا هيلين فانتابت زوجتي قشعريرة هلّع ألقتها مريضة لسنة على الأقل وفقًا لقول الطبيب . تتزوج امرأة جميلة فتتبشع ، وتتزوج شابة في تمام الصحة

twitter @baghdad_library

والعافية فتغدو سقيمة عليلة . تعتقد أنها مشبوبة العاطفة وإذا بها باردة ، أو إنها باردة في الظاهر بينما هي مشبوبة العاطفة إلى حدٍّ يدفعها إلى قتلك أو إلحاق العار بك . تارة وهي المخلوقة الأكثر رقة ، تنقلب إلى مشاكسة . والمشاكسات لايغدون رقيقات . وتارة أخرى تظهر الفتاة الضعيفة الساذجة ضدك إرادة حديدية ، وروحًا شيطانية . إنني تَعِبٌ من الزواج .

- أو من زوجتك .

- يصعب التمييز . وبالمناسبة ، ألا تريد الذهاب إلى كنيسة سان توماس ـ داكين لمرافقتي في مراسم دفن اللورد غرنفيل ؟ .

- إنّها تسلية فريدة ، ولكن ما سبب موته حقًا؟

- يزعم وصيفه أنه بقي طيلة ليلة كاملة معلقًا على الحافة الخارجيّة لنافذة لينقذ شرف خليلته ، وكان البرد قارسًا جداً في هذه الأيام الأخيرة!

- هذا إخلاص بالغ التقدير من قبلنا نحن أصحاب الحنكة ، ولكن اللورد غرنفيل شاب و . . . إنكليزي . هؤلاء الإنكليز يريدون دائمًا التميّز .

أجاب دي إغلمون : عجبًا! هذه القسمات من البطولة تعود للمرأة التي توحي بها . ومن المؤكد أنني لا أعرف المرأة التي مات من أجلها هذا المسكين أرثور ! .

II

آلام مجهولة

مابين رافد اللوان والسين يمتد سهل واسع تحدّه غابة فونتينبلو ومدن موره، وغور، ومونترو. ولا تبدي هذه المنطقة القاحلة للنظر إلا تلالاً نادرة، وتنتشر في وسط الحقول أحياناً بعض مربّعات الغابات التي تستخدم ملجأ للطرائد، ثم هذه الخطوط المصفرة والشهباء التي لانهاية لها والخاصة بأفاق سولوني وبوس وبرّي. وسط ذلك السهل بين منوريه ومنترو يشاهد المسافر قصراً قديماً سُمّي سان لا نج لا تعوز جواره العظمة ولا الجلال. صفوف رائعة من أشجار الدردار، وأخاديد، وجدران أسوار طويلة، وحدائق واسعة، وأبنية إقطاعية كبيرة تطلّب إنشاؤها جني أرباح ضرائب غير مشروعة، أو إيجارات مزارع عامة أو اختلاسات مباحة، أو ثروات ارستقراطية باهظة تهدّمت الآن تحت مطرقة القانون المدني؛ فإذا ضلّ فنان أو أحد الحالمين مصادفة في الطرقات ذات الأخاديد العميقة أو في الأراضي الصلبة غير المحروثة التي تحمي تخوم المنطقة فإنه يتساءل أيّة نزوة ألقت هذا القصر الشاعري في هذه المفازة من حقول القمح وصحراء الحوّار والمارن والرمال حيث تموت البهجة وتتولّد الكآبة دون شك، وحيث تضنى الروح دون انقطاع بعزلة لا صوت لها، وأفق رتيب، وجمال سلبي يتلاءم مع الآلام التي لا تريد عزاء أو مواساة.

نحو نهاية العام ١٨٢٠ وفدت إلى القرية الصغيرة الواقعة على بعد نحو ميل من سان لانج سيدة شابة اشتهرت في باريس بظرفها، وجمال وجهها، وذكائها وانسجام وضعها الاجتماعي وثروتها مع شهرتها الكبيرة، ودهش مزارعو وفلاحو المنطقة الذين لم يشاهدوا أحداً من سادة القصر منذ زمن طويل، وبالرغم من إنتاج

twitter @baghdad_library

وفير، تركت الأرض لعناية وكيل أملاك وحراسة بعض الخدم القدماء، وهكذا فقد سببت رحلة السيدة المركيزة إلى المنطقة بعض التأثر وتجمع عدد من الأشخاص في طرف القرية وفناء نُزُل حقير وعند مفترق طريقي نمور وموريه ليشهدوا مرور عربة المركيزة السائرة ببطء لأنها وافدة بجيادها من باريس. وفي المقعد الأمامي وصيفة ترعى طفلة تبدو حالمة أكثر منها ضاحكة، والأمّ مستلقية في المقعد الخلفي كمحتضرة مرسلة من الأطباء إلى الريف. ولم يرض المظهر المتداعي لتلك المرأة الواهنة متنفذو القرية الذين كانوا يأملون بوصولها إلى سان لانج أن تنشط حركة ما في المحلّة، لكن بدا ظاهراً أن أيّة حركة ستكون منفّرة لتلك المرأة المتألمة.

صرّح صاحب النفوذ القوي في قرية سان لانج مساء في الحانة حيث يجمع الأعيان في غرفة للشراب أن ملامح المركيزة الحزينة تشير إلى أن الإفلاس حلّ بها. وقد حضرت بعد غياب السيد المركيز الذي أشارت الصحف إلى مرافقته لدوق انغوليم إلى إسبانية، لتدّخر في سان لانج المبالغ الضرورية لوفاء الديون الناجمة عن مضاربات في البورصة، فالمركيز يُعَد أحد كبار المغامرين في تلك العمليات، وربّما بيعت الأرض بعد تجزئتها إلى قطع صغيرة قد يساعد الحظ على شرائها بأسعار مغرية، وراح كل فرد يحصي مدّخراته، ويخرجها من مخابئها، ويُعدّد موارده ليحصل على نصيبه من ركام سان لانج. وبدا هذا المستقبل بغاية الجمال حتى تلهّف كل وجيه لمعرفة مدى صحته، وفكر بوسائل اكتشاف الحقيقة عن طريق خدم القصر، لكن لم يستطع أحد أن يسلّط الأضواء على الكارثة التي دفعت معلمتهم إلى الرحيل من باريس إلى قصر سان لانج القديم في بداية الشتاء، رغم أنها تملك أراضي مشهورة ببهجة مناظرها وجمال حدائقها. وحضر عمدة القرية لتقديم واجب الاحترام للسيدة، لكنها لم تستقبله، وجاء بعد العمدة وكيل الأملاك، وبدوره لم يلق النجاح.

كانت السيدة المركيزة لاتخرج من غرفتها إلا ليقوم الخدم بترتيبها، وتبقى خلال ذلك الوقت في صالة صغيرة مجاورة لتتناول طعامها، إذا أمكن تسمية جلوسها إلى المائدة، ورؤية الأطباق باشمئزاز وأخذ القدر الضروري لعدم الموت جوعاً، تناول طعام. وبعد ذلك تعود بسرعة إلى الكنبة ذات المتكأ العريض فتجلس

طوال الوقت أمام النافذة الوحيدة التي تضيء غرفتها. ولاترى ابنتها إلا خلال أوقات إطعامها الكئيبة ويبدو أنها تجهد لتحمّل ذلك. ألا يعني هذا أن آلامًا لاتُصدق تطغى على عاطفة الأمومة لدى تلك المرأة الشابة؟ وهي لاتسمح لأحدٍ من الخدم بالمثول أمامها باستثناء وصيفتها التي ترضيها خدماتها؛ كما تفرض الصمت المطلق على القصر حتى أن ابنتها تلعب بعيدًا عنها؛ إذ من العسير جداً أن تتحمل أية ضجّة يصدرها صوت بشري، فحتّى صوت ابنتها يسبّب لها الإزعاج. واهتم أبناء المنطقة كثيراً بهذه التصرفات المستغربة، وبعد أن استعرضوا جميع الاحتمالات تناسى سكان المدن الصغيرة المجاورة وفلاحو الأراضي تلك المرأة المريضة.

هكذا أمكن للمركيزة الوحيدة في عزلتها، أن تلزم الصمت المطلق، وسط جدران الصمت التي أقامتها حولها، ولم تصدر عنها أية بادرة لمغادرة الغرفة المفروشة بالطنافس التي ماتت فيها جدّتها، والتي جاءت لتموت فيها بهدوء دون شهود، ودون مضايقات، ودون أن تتعرّض لمظاهر مزيفة من أنانيات مموّهة بمودة كاذبة تضاعف في المدن آلام المحتضر. كانت هذه المرأة في السادسة والعشرين من عمرها. وفي هذه السنّ تشتهي الروح التي ماتزال ممتلئة بالأوهام الشاعرية أن تلقى الموت عندما يبدو لها مخلّصاً لكن الموت يتدلل على النفوس الشابة، فهو يتقدّم منها ويتراجع، ويظهر ويختفي، ويخيّب بطؤه ما انعقد عليه من آمال، والشك بما يسببه لهم غدهم ينتهي بهم إلى الارتماء في العالم الذي سيصادفون فيه الألم، وهو أكثر قسوة من الموت إذ لا يدعهم ينتظرون، والحال أن هذه المرأة التي ترفض العيش تعاني من مرارة هذا التأخير في صميم عزلتها، وتظهر في احتضار معنوي لاينهيه الموت، تدرّبًا رهيبًا على الأنانية تفقد القلب نضارته وتكيّفه مع العالم. هذه الأمثولة الحزينة والقاسية هي دائمًا ثمرة آلامنا الأولى. والمركيزة تتألم بشكل حقيقي لأول مرة وربّما للمرّة الوحيدة في حياتها. والواقع أليس من الخطأ الاعتقاد بأن العواطف تتجدّد؟ ألا تبقى بعد تفتّحها موجودة في أعماق القلب؟ فهي تهدأ فيه وتستيقظ حسب أحداث الحياة؛ لكنها باقية ووجودها يعدل بالضرورة الروح. وهكذا فلكل عاطفة يومها

twitter @baghdad_library

الكبير، اليوم الأكثر طولاً تقريباً خلال هبوبها. وهكذا فالألم، الأكثر ثباتاً بين عواطفنا، لايكون شديداً إلا عند اندفاعه الأول؛ بينما تأتي نوباته الأخرى متخامدة، سواء لاعتيادنا على أزماته، أو بحكم قانون طبيعتنا التي تعارض، من أجل استمرارها حيّة، تلك القوة الهدّامة بقوة مساوية لها لكنها خاملة وهي مستمدة من حسابات الأنانية. لكن إلى أيٍّ من العذابات ينتمي هذا المسمّى الألم؟ إن فقد الأهل حزنٌ أعدّت الطبيعة الناس لتحمّله، والألم الجسماني عابر لا يعانق الروح، فإذا استمر فليس ألَماً بل هو الموت. وإذا فقدت امرأة شابّة مولوداً، فإنّ الحبّ الزوجي يمنحها خلفاً له، فهذا الأسى عابر أيضاً، أخيراً فإن هذه المتاعب وكثيراً مما يماثلها هي إن صحّ التعبير، ضربات أو جراح، لكن ما من واحدة منها تؤثّر على الحيوية في كنهها، ويجب أن تتابع بشكل غريب لتقتل العاطفة المحفّزة للبحث عن السعادة. فالألم الكبير، الألم الحقيقي، إذن هو أزمة فتّاكة تقريباً تضيّق على الماضي والحاضر والمستقبل، ولا تترك أي جانب من الحياة في اكتماله، وتشوّه الفكر إلى الأبد، وتتسجّل بشكل لا يمحى على الشفاه والجبين، وتحطّم أو ترخي نوابض المسرّة بخلقها في النفس عنصر الاشمئزاز من كل شيء في هذا العالم. ومن أجل أن تكون هذه الأزمة واسعة المدى، وتثقل على الجسم والروح يجب أن تصل في مدّة من الحياة تكون فيها قوى الروح والجسم شابة، وتضرب قلباً ملؤه الحياة، فتحدث عند ذلك جرحاً عميقاً ينضح ألَماً كبيراً؛ ولايمكن لأي شخص أن يخرج من هذه المعاناة دون تغير شاعري ما: فإمّا أن يأخذ طريق السماء أو ينخرط في هذا العالم، إن بقي في هذه الدنيا، ليكذب على العالم، ويلعب فيه دوراً؛ لأنه يعرف عندئذ المزالق التي تستخدم للحساب والبكاء والسخرية، فبعد هذه الأزمة الجليلة لا توجد أسرار في الحياة الاجتماعية التي تدان منذ ذلك الحين، نهائياً. وهذه الأزمة الأولى، الأكثر حدّة من جميع الآلام، تنتج لدى النساء الشابات ممن هن في عمر المركيزة؛ دائماً عن حدث واحد، فالمرأة، وخاصة المرأة الشابة، الكبيرة بالروح ككبرها بالجمال، لايفوتها أبداً أن تضع حياتها حيث تدفعها الطبيعة والعاطفة والمجتمع لترميها بكلّيتها، فإذا خذلتها تلك الحياة، وإذا بقيت على الأرض فإنها تعاني فيها أقسى العذابات لذات السبب الذي يجعل الحبّ الأول أجمل العواطف كلّها. لماذا لم يكن لهذا

الشقاء مصوّر أو شاعر؟ ولكن هل يمكن تصويره، وهل يمكن التغني به؟ كلا، فطبيعة الآلام التي يولّدها يعجز عنها التحليل وألوان الفن. كما أن هذه العذابات لم يُسرَّ بها يومًا، ويجب تخمينها عند محاولة مواساة امرأة، إذ أنها محتواة دائمًا بمرارة، ومعاناة بورع، وتبقى في الروح كالانهيارات المتساقطة في الوديان تحطّم كل شيء قبل أن تستقر في مكان. وبعض هذه الآلام كأولئك الأطفال الذين ضنّت الحياة عليهم بنعمها، لكن قلوب أمهاتهم كانت أكثر ارتباطًا بهم من أولئك الذين أنعمت عليهم لحسن حظهم بالمواهب. فليس، على الأرجح مثل هذه الكارثة المروعة، التي تقتل كل ما يحيا خارجنا، بمثل هذه الشدّة، وهذا التمام؛ وقد تفاقمت بشكل قاس بالظروف المحيطة بالمركيزة. رجل محبوب شاب وشهم. لم تستجب أبدًا وإياه للشهوات، يموت من أجل أن يصون لها ما اصطلح المجتمع على تسميته شرف امرأة. فلمن يمكنها أن تقول: إنني أتعذّب! إن دموعها ستهين زوجها، سبب الفاجعة الأول. والقوانين والتقاليد تحظّر تفجّعاتها. والصديقة تستمتع بها والرجل يستغلّها. كلا، لايمكن لهذه المفجوعة أن تبكي كما تشتهي إلا في صحراء تفترس فيها عذابها أو يفترسها، تموت أو تقتل شيئًا فيها، قد يكون وجدانها. وقد بقيت عيناها منذ عدة أيام معلقتين على أفق مسطح حيث لاتنتظر أن يتحقق شيء في حياتها القادمة، ولا أن تأمل في شيء، وكل شيء يُرى بنظرة عابرة، وحيث لا تصادف إلا صور من الأسى البارد الذي يمزّق دون انقطاع قلبها؛ أصباحٌ يخيّم عليها الضباب، وسماء قليلة الصفاء، وغيمات تجري قريبًا من الأرض تحت قبة رمادية تتلاءم مع أطوار مرضها المعنوي؛ وقلبها لا ينقبض بل يعتوره الذبول تقريبًا. كلا فطبيعتها النضرة المزهوّة تتحجّر ببطء بتأثير ألم لايحتمل لأنها دون هدف، إنها تؤلمها وتتألم من أجلها. لكن أليس هذا العذاب الخطوة الأولى للأنانية؟ وهكذا فإن أفكارًا رهيبة خطرت في وجدانها مجرّحة له. والتفتت إلى نفسها بحسن نيّة فوجدتها وكأنها قد تضاعفت: ففيها امرأة تتعقّل وأخرى تحسّ، امرأة تتألم وأخرى تريد أن تتجنّب كل ألم. وتحولت إلى أفراح طفولتها التي مرّت دون أن تشعر بسعادتها، وتراءت أمامها صورها صافية جملةً واحدة، كأنها توجّه الاتهام لخيبات أمل زواج ملائم في أعين

twitter @baghdad_library

الناس، ورهيب في حقيقته. ماذا أفادها حياؤها الناعم أيام شبابها، وكبت مسرّاتها، وتضحياتها المبذولة في المجتمع؟ ورغم أن كلّ ما فيها يعبّر عن الحبّ وينتظره، فإنها تتساءل الآن ما فائدة هذا التناسق في حركاتها، وابتسامتها، ورقتها؟ إنّها لاتُحب أبدًا أن تشعر بالنضارة أو الإثارة كما لايُحبُّ ترداد صوت دون هدف؛ حتى أنها ترى جمالها غير محتمل إذ لافائدة منه. وهي تستشف برعب أنّها لاتستطيع من الآن فصاعدًا أن تكون مخلوقًا سويًا، ألم يفقد الأنا الداخلي فيها القدرة على تذوّق الانطباعات في هذا الجديد الثمين الذي يضفي كثيرًا من المرح على الحياة؟ وفي المستقبل فإن جميع أحاسيسها ستمحى غالبًا عند تلقيها، وكثيرًا من تلك التي أثّرت فيها سابقًا ستغدو لا أهمية لها، فبعد صبوة المخلوق تأتي صبوة القلب. والحال أن حبيبها حمل إلى القبر هذه الصبوة الثانية. وهي ما تزال شابة في شهواتها، لكنها فقدت هذا الشباب الكلي في الروح الذي يعطي لكل شيء في الحياة قيمته وطعمه. ألم تحتفظ في نفسها بمبدأ الحزن، والارتياب الذي ينبلب من انفعالاتها ريعانها المفاجئ، وإغراءها؟ لأن لاشيء يتمكن من أن يعيد لها السعادة التي كانت ترجوها، وتحلم بجمالها، ودموعها الأولى الحقيقية أطفأت تلك النار السماوية التي تنوّر انفعالات القلب الأولى، وستقاسي دائمًا لأنها لم تكن ما باستطاعتها أن تكون. من هذا الاعتقاد تنجم خيبة الأمل المرّة التي تدفع إلى إشاحة الرأس عندما تسنح الفرصة مجددًا للمتعة، فهي تدين الحياة كعجوز يوشك أن يفارقها. وبالرغم من إحساسها بميعة الصبا، فقد كانت تخيم على قلبها مجموعة أيام دون ملذات فتسحقها وتجعلها عجوزًا قبل الأوان. كانت تطلب من العالم بصيحة قنوط ماذا منحها بدلاً من الحب الذي ساعدها على الحياة وفقدته، وتساءلت إن لم يكن الفكر في غرامياتها المتلاشية، بطهرها ونقائها، أكثر إجرامًا من الفعل، صارت مذنبة مجانًا لتلعن العالم ولتتعزّى لأنها لم تقم مع من تبكيه ذلك التواصل التام الذي يضعف بتوفيقه الأرواح الواحدة مع الأخرى، آلام تلك التي تبقى، بيقينها أنها قد نعمت كليًا بالسعادة، وعرفت كيف تمنحها تمامًا، وتحتفظ في ذاتها ببصمة من غاب. كانت مستاءة كممثلة فشلت في دورها لأن ذلك الألم هزّ جميع أوتار كيانها،

وقلبها، ورأسها. وإذا كانت طبيعتها قد تكدّرت في أمنياتها الأكثر حميمية، فإن الزهو لم يكن أقلّ تأثيرًا من الطيبة التي تدفع المرأة للتضحية. وبإثارة جميع المسائل وتحريك جميع نوابض الكيانات المختلفة التي تمنحنا إياها الطبائع الاجتماعية والمعنوية والفيزيائية فقد تخلّت عن جميع قوى النفس حتى أنها وسط الأفكار الأكثر تناقضًا لم تستطع أن تدرك شيئًا، وهكذا كانت عندما يحلُّ الضباب أحيانًا تفتح نافذتها، وتبقى أمامها دون أية فكرة منشغلة باستنشاق الرائحة الرطبة والترابية المنتشرة في الأجواء بشكل آلي، وتقف ساكنة، بلهاء ظاهريًا، لأن طنين ألمها يجعلها غير عابئة بإيقاعات الطبيعة وروائع الفكر.

في ظهر أحد الأيام، وفي المدّة التي تعمّ فيها أشعة الشمس الكون، جاءت وصيفتها، دون أن تستدعيها وقالت: «هي ذي المرة الرابعة التي يأتي فيها الكاهن لرؤية السيدة المركيزة، وهو يلحّ الآن مصممًا على مقابلتك، ولا نعلم بماذا نجيبه».

إنّه يريد دون شك بعض المال لفقراء المحلة، هي ذي خمس وعشرون لويسية تقدمينها له نيابة عني.

انطلقت الوصيفة بالدراهم لكنها عادت بعد لحظة وقالت: سيدتي، رفض السيد الكاهن قبول المال وهو يرغب بالتحدّث إليك.

أجابت المركيزة وقد بدرت منها حركة تأفف تنذر باستقبال فاتر للكاهن الذي أرادت دون شك تجنّب مضايقاته بتبرير مقتضب وصريح: فليأت إذن.

كانت المركيزة قد فقدت أمها وهي طفلة، وتأثّرت تربيتها بشكل حقيقي بالتراخي الذي حلّل الروابط الدينية في فرنسة خلال الثورة. والورع فضيلة نسوية تتناقلها النساء وحدهن جيّدًا، والمركيزة ابنة القرن الثامن عشر وقد تربّت على معتقدات والدها الفلسفية، وهي لم تمارس الطقوس الدينية؛ والكاهن بالنسبة لها موظف عام يبدو لها مشكوكًا بفائدته؛ وصوت الدين في وضعها الراهن يزيد من شجونها، ثم أنها لا تثق أبدًا بخوارنة القرى ولا بإناراتهم؛ لذلك فقد قررت أن توقف كاهنها عند حدّه، دون خشونة، وأن تتخلّص منه على طريقة الأغنياء، بتقديم

twitter @baghdad_library

بعض الإحسان. ودخل الكاهن، ولم يغيّر مظهره أفكار المركيزة، إذ رأت رجلاً قصيراً بدينًا، ذا بطن بارز، ووجه محمرّ لكنه متغضن ظاهر الشيخوخة، وهو يتكلف الابتسام لكن ابتسامته خالية من البشاشة، ورأسه أصلع تخترقه عرضانياً تجاعيد عديدة تصل بشكل ربع دائرة إلى وجهه فتصغّره، وبعض أشعار بيضاء تزين قفا جمجمته وترتد إلى ما قبل أذنيه. غير أن مظهر هذا الكاهن منبسط بطبيعته. فشفتاه الثخينتان، وأنفه القصير المدبّب قليلاً، وذقنه المختفية ضمن طيّة مضاعفة من التجاعيد تشير إلى طبع رضيّ. لم تلحظ المركيزة أولاً إلا ملامحه العامة؛ ولكن ما أن نطق بأولى الكلمات حتى تنبّهت لعذوبة صوته، فدققت فيه النظر، ولاحظت تحت حاجبيه الموخّطين بالشيب عينين عرفتا البكاء، ثم أن استدارة وجنته في منظر جانبي يعطي لرأسه تعبير ألم جليل جعل المركيزة ترى في هذا الكاهن رجلاً.

- سيّدتي المركيزة، إن الأغنياء لاينتمون إلينا إلا عندما يتألمون، وآلام امرأة متزوّجة، شابة، وغنيّة، وجميلة؛ لم تفقد أولاداً أو أهلاً، يمكن تخمين مسبباته بجراح لا يخفّف آلامها الوخازة إلا الدين. إن روحك في خطر يا سيدتي، وأنا لا أحدثك في هذه اللحظة عن الحياة الأخرى التي تنتظرنا! كلا فأنا لست أمام كرسي اعتراف، لكن أليس من واجبي أن أسلّط لك الضوء على مستقبل وجودك الاجتماعي؟ ستغفرين إذن لعجوز مضايقةَ هدفُها سعادتك.

- لم تعد السعادة، ياسيّدي استحقاقًا لي، فأنا سأنتمي لكم قريبًا، كما ذكرت، ولكن بشكل دائم.

- كلا يا سيدتي، لن تموتي من الآلام التي ترهقك وترتسم على قسماتك، ولو وجب أن تموتي لما كنت الآن في سان لاغ. فنحن أقل تعرّضًا للهلاك، بتأثيرات أسف أكيد، منا بتلك الناتجة عن آمال خائبة. عرفت ما لايمكن تحمّله، آلامًا من الأكثر رهبة دون أن تؤدّي إلى الموت.

بدرت من المركيزة إشارة عدم تصديق. واستأنف الكاهن: سيّدتي، أعرف رجلاً بلغ من الشقاء حداً تبدو فيه معاناتك خفيفة نسبة لما يضني روحه.

عند ذلك وسواء أبدأت عزلتها تثقل عليها، أو أن القدرة على أن تكشف لقلب صديق أفكارها المؤلمة قد أثارت اهتمامها، فإنها وجّهت إلى الكاهن نظرة متسائلة كان من المتعذر عليه أن يخطئ مدلولها.

- استأنف الكاهن: سيّدتي، كان هذا الرجل ربّ عائلة كثيرة العدد، ولم يبق لديه إلا ثلاثة أولاد؛ إذ فقد على التتابع أهله، ثم ابنته وزوجته الأثيرتين إلى قلبه، وبقي وحده في عمق منطقة يعيش في مَلكية صغيرة عرف فيها السعادة طويلاً. وكان أولاده الثلاثة في الجيش، ولكل منهم رتبة تتناسب مع مدة خدماته. وخلال حكم المئة يوم انتقل الابن البكر إلى الحرس الامبراطوري وغدا عقيداً؛ وكان الأوسط رئيس كتيبة مدفعية؛ أما الابن الأصغر فكان قائد سريّة خيّالة. كان هؤلاء الأولاد الثلاثة يحبون والدهم قدر محبته لهم. وإذا كنت تعرفين لامبالاة الشباب المنجرفين مع أهوائهم، دون أن يتوفر لهم وقت يخصصونه لعواطف العائلة، ستدركين باطلاعك على حدث واحد مدى حيوية مودّتهم لوالدهم العجوز المسكين الوحيد الذي لا يعيش إلا بهم ومن أجلهم. كان لا يمضي أسبوع إلا ويتلقى رسالة من أحد أولاده؛ لكنه لم يكن بالنسبة إليهم ضعيفًا فيقلّ احترامهم له، ولا قاسيًا بشكل جائر فيتكدّرون منه، ولا ضنينًا بتضحية فيبتعدون عنه. كان لهم أكثر من أب، جعل نفسه أخًا لهم أيضًا وصديقًا. وأخيرًا ذهب ليودعهم في باريس عند توجههم إلى بلجيكة. أراد أن يرى جودة خيولهم ويعنى بتأمين ما ينقصهم. وهاهم ينطلقون ويعود الأب إلى منزله. وتبدأ الحرب، ويتلقى رسائل وجهت منهم إليه وهم في فلوريس ثم في لينيي، وكل شيء على ما يرام. وتدور معركة واترلو، وأنت تعرفين النتيجة. عمّ الحداد فرنسة دفعة واحدة، حل القلق العميق لدى جميع العائلات؛ والأب، كما يمكن أن تتوقعي، يا سيدتي، ينتظر؛ لا يهدأ له بال، ولا يذوق طعم الراحة. يتابع قراءة الصحف، ويذهب بنفسه يوميًا إلى دائرة البريد، وأعلن له مساء أحد الأيام وصول خادم ولده، ورأى ذلك الرجل ممتطيًا حصان معلمه، ولم يَعُد ثمة حاجة للسؤال. مات الكولونيل منشطرًا نصفين بقذيفة مدفع. ونحو نهاية السهرة وصل خادم أصغر الأولاد لينيي بوفاة معلمه غداة المعركة، وعند منتصف الليل حضر

twitter @baghdad_library

مدفعي ليعلن وفاة ثالث الأولاد، الذي غدا في مدّة قصيرة من الزمن، أمَل والده الوحيد في الحياة. نعم ياسيدتي ماتوا جميعًا! وبعد لحظة توقّف، أمكن للكاهن فيها أن يقهر انفعالاته، أضاف بصوت عذب هذه الكلمات: وبقي الأب حيًّا، يا سيدتي، وأدرك أن الله تركه على الأرض ليستمر معذّبًا عليها، وقاسى العذاب، لكنه ارتمى في أحضان الدين. فماذا يمكن أن يكون؟ رفعت المركيزة عينيها إلى وجه الكاهن، وقد سما بالحزن والاستسلام للقدر وانتظرت تلك الكلمة التي أسالت عبراتها: كاهنًا! يا سيدتي، رُسِمَ بالدموع، قبل أن يُنذر أمام مذبح الله.

ساد الصمت برهة، حدقت المركيزة والكاهن فيها النظر من النافذة إلى الأفق المغشى بالضباب كان باستطاعتهما أن يريا من فَقَدا إلى الأبد.

استأنف الكاهن: لم يُسم كاهن مدينة، بل خوري قرية[1] بسيطًا.

قالت وهي تمسح دموعها: في سان لانج..

- نعم ياسيدتي.

لم يظهر أبدًا جلال الألم لجولي بمثل هذا الكبر من قبل، وسقطت عبارة نعم يا سيدتي مباشرة على القلب كأنها ثقل ألم لا نهاية له. فهذا الصوت الذي يرنّ بعذوبة في الأذن يخرق الأحشاء. آه! إنه حقًا صوت الشقاء، هذا الصوت الممتلئ الرصين، الذي يبدو كأنه يجرف سيّالاً نفّاذًا.

قالت المركيزة بشكل أقرب إلى الاحترام: سيدي، ماذا سأغدو إذن إن لم أمت.

أليس لك ولد يا سيدتي؟

قالت ببرود: نعم، لي ابنة.

---

(١) هو كاهن من سلسلة كهنة الريف الحائزين على إعجاب بلزاك: جانفيه في «طبيب الريف» وبروستا في «الفلاحين» وبونه في «كاهن القرية». وفقدانه لأولاده الثلاثة دفعه إلى الكهنوت أما شكله فمماثل لبلزاك.

ألقى الخوري على تلك المرأة نظرة مماثلة لتلك التي يلقيها طبيب على مريض في خطر، وصمّم على أن يبذل جميع جهوده لينتزعها من قبضة سلطان الأذى الذي يبسط هيمنته عليها.

- كما ترين يا سيدتي، حكم علينا العيش مع آلامنا، والدين وحده يقدّم لنا المواساة الحقيقية، فهل تسمحين لي بالعودة لأسمعك صوت رجل يعرف كيف يتوافق مع الهموم والذي ليس عنده، حسب اعتقادي، ما يرعب؟

- نعم يا سيدي، عد متى شئت، وأنا أشكرك لتفكيرك بي.

- حسن يا سيدتي، إلى لقاء قريب.

أراحت هذه الزيارة، إن صحّ القول، نفس المركيزة؛ وقد كانت قواها مستثارة بعنف بالحزن والعزلة، فقد مسح الكاهن جراح قلبها بعطر بلسمي، وبوقع الكلمات الدينية الناجع، وأحسّت بعدها بذلك النوع من الرضى الذي يبهج سجيناً يسمع بعد معاناته لعمق عزلته، وثقل قيوده، قرعاً على جدار زنزانته يتعرّف فيه على جار له يمكنه أن يتبادل معه أفكاراً مشتركة، ووجدت في الكاهن نجياً لم تتوقع لُقياه. لكنها ارتدت سريعاً إلى تأملاتها المرّة. وقالت في نفسها، كما يقول السجين، إنَّ رفيقاً في الألم لن يخفّف قيودها ولا بؤس مستقبلها. ولم يرد الكاهن أن يثير ذعر متألّمة معتزة بذاتها منذ أول زيارة، لكنه تأمّل، بفضل فنّه، أن يحقّق نجاحاً للدين في مقابلة ثانية، وعاد بعد يومين، وتبيّن له في الواقع، من ترحيب المركيزة بقدومه، الرغبة في زيارته.

قال الخوري العجوز: إيه! يا سيدتي المركيزة، هل فكرت قليلاً بمدى الآلام الإنسانية؟ هل رفعت عينيك إلى السماء؟ وهل رأيت فيها سعة تلك العوالم، التي تقلّل من أهميتنا، وتسحق كبرياءنا وبذلك تخفّف آلامنا؟...

أجابت: كلا يا سيدي، فالقوانين الاجتماعية تثقل كثيراً على قلبي، وتقطّع نياطه بحدّة حتى أنني لا أستطيع أن أرفع ناظري إلى السماء. لكن القوانين قد تكون أقل قسوة من ممارسات المجتمع. أوه! يا للمجتمع!

twitter @baghdad_library

- يجب علينا يا سيدتي، أن نذعن لهذه وتلك؛ فالقوانين هي الكلمات، والممارسات هي أفعال المجتمع.

ردّت المركيزة وقد بدرت منها حركة هلع: إطاعة المجتمع؟... إيه! يا سيدي، إن جميع مصائبنا تأتي من ذلك. فالله لم يصدر أي قانون يسبّب الشقاء لكن البشر باجتماعهم حرّفوا عمله، فنحن، معشر النساء قد أساءت الحضارة معاملتنا أكثر من إساءة الطبيعة. فالطبيعة فرضت علينا متاعب جسمانية لم تلطفوها والحضارة نمّت فينا عواطف تخدعونها دون انقطاع. الطبيعة تخنق الكائنات الضعيفة؛ وأنتم تحكمون عليها بالحياة لتكبدوها شقاءً مستمراً. والزواج وهو المؤسّسة التي يرتكز عليها المجتمع يحمّلنا وحدنا كل أثقاله: فللرجل الحريّة، وعلى المرأة الواجبات. نحن نخصكم بكل حياتنا وأنتم لا تخصّصون لنا من حياتكم إلا لحظات نادرة، أخيراً يقوم الزجل بالاختيار حيث يجب علينا الإذعان دون أي تبصّر. إيه! يا سيدي، لك يمكن التصريح بكل شيء، والحقّ يقال إنّ الزواج كما يمارس حالياً هو بغاء مشروع كما يبدو لي. ومن هنا نشأت جميع عذاباتي لكنني وحدي من جميع المخلوقات التعيسات اللواتي حتّم عليهن الزواجُ ملزمة بالصمت! فأنا وحدي صانعة شقائي، فقد أردت هذا الزواج وتوقّفتْ، وذرَفَت دموعاً مُرّة وبقيت صامتة؛ ثم استأنفت.

وفي هذا البؤس العميق، ووسط هذا الأوقيانوس من الآلام وجدت موضع قَدَم على الرمال حيث يمكنني أن أتألم كما أشاء؛ لكن إعصاراً جرَف كل شيء. وها أنا وحيدة دون سَنَد. جدُّ ضعيفة ضد العواصف الهوجاء.

قال الكاهن: نحن لسنا أبداً ضعفاء عندما يكون الله معنا. وعلى كل حال إن لم يكن لديك مودّات تشبعينها في هذه الدنيا، ألا تترتب عليك فيها واجبات تملئينها.

صاحت بنوع من نفاد صبر: واجبات على الدوام! ولكن بالنسبة لي، أين هي العواطف التي تمنحنا القوّة لإتمامها؟ يا سيدي، لا يُولد شيء من لا شيء، ولا شيء دون ثمن هذه هي القوانين الحقّة في الطبيعة مادياً ومعنوياً. أتريد من هذه الأشجار

أن ترفل بالأوراق دون نُسُغ يغذيها ويفتّح نضارتها؟ للروح نسغها أيضًا! وهذا النسغ بالنسبة لي قد جف في منبعه.

- لن أحدثك عن العواطف الدينية التي تولّد القناعة والاستسلام، لكن الأمومة يا سيدتي، أليست هي إذن....

- قاطعته المركيزة سريعًا: توقف يا سيّدي، فأنا أريد أن أكون صادقة معك. مع أنني، للأسف لن أستطيع ذلك بعد الآن مع أي إنسان. فقد حُكِم علي بالنفاق لأن هذا العالم يتطلب ابتسامات مزيّفه على الدوام، وهو يلزمنا بإطاعة مصطلحاته تحت طائلة التعرّض للعار. يوجد نوعان من الأمومة. وقد كنت أجهل سابقًا هذه التميّزات؛ أما الآن فإنني أعرفها. إنني نصف أم فقط. وكان الأفضل ألا أكون أمًا أبدًا. فهيلين ليست ممن أحبّ. إيه! لا ترتعش فسان لانج[1] مهواةٌ غرقت فيها كثير من العواطف الزائفة، وانطلقت منها ومضات أشعة مشؤومة، وانهارت فيها صروح واهنة لقوانين ضد الطبيعة. لديّ ولَد، هذا يكفي؛ إنني أم هكذا يريدني القانون، لكنك يا سيدي تملك قلبًا رحيمًا بالغ الرقّة، وستدرك على الأرجح صيحات امرأة مسكينة لم تدع لأية عاطفة مفتعلة أن تتسرّب إلى قلبها، سيدينني الله، لكنني لا أعتقد أنني خالفت قوانينه باستجابتي لعاطفة سكبها في روحي، وهوذا ما حصل لي منها. أليس الولد يا سيدي، صورة مخلوقين، ثمرةَ عاطفتين اندمجتا بكل حريّة؟ فإذا لم يُرغَب به بكل أحاسيس الجسم وبكل عواطف الروح، وإذا لم يُذكّر بالأهواء العذبة، والأزمنة والأمكنة التي استمتع فيها هذان الكائنان بالسعادة، ولغتها الممتلئة بالموسيقى الإنسانية، وبأفكارهما الحلوة، فإنّ هذا الولد مخلوق ناقص. نعم يجب أن يكون بالنسبة لهما نمنمة صغيرة رائعة يسترجعان فيها قصائد حياتهما المضاعفة السريّة؛ ويهيّئ لهما ينبوع انفعالات غزيرة، وأن يكون في آن واحد كل ماضيهما

(١) يذكّر اعتزال المركيزة في سان لانج بعزلة البلدي برندون مع ولديها في جزء الرماد، وكذلك السيدة دي بوسيان في «المرأة المهجورة»، بل وبوضع كونتة مونبسان في «الرسالة».

twitter @baghdad_library

وكل مستقبلهما. وطفلتي الصغيرة المسكينة هيلين ابنة أبيها، ابنة الواجب والمصادفة، وهي لاتصادف في نفسي إلا غريزة المرأة، والقانون الذي يدفعنا بشكل لايقاوم لحماية المخلوق المولود من رحمنا. أنا لا ألامُ من وجهة النظر الاجتماعية، ألم أضحّ من أجلها بحياتي وسعادتي؟ وصراخها يثير إشفاقي، وإن سقطت في الماء، فسألقي بنفسي فيه لإنقاذها. لكنها ليست في قلبي. آه! جعلني الحبّ أحلم بأمومة أكثر سموّاً، وأكثر كمالاً. داعبت في حلُمٍ متلاش الطفل الذي تصوّرته رغباتي قبل أن يتكوّن. خلاصة القول، ولُدت هذه الزهرة الحلوة في الروح قبل أن ترى النور. وأنا بالنسبة لهيلين ما يجب، في النظام الطبيعي، أن تكونه أمٌ من أجل ذريتها، وعندما ستصل إلى العمر الذي لاتحتاج به لي ينتهي كل شيء، ينتفي السبب فيتوقّف مفعوله. وإذا أحست الأمّ بتلك الميزة المشتهاة التي تدفعها إلى بسط أمومتها على حياة ولدها بكاملها، ألا يجب أن يُنسب إلى تألّقات حَملها المعنوي هذا الاستمرار الإلهي في العاطفة؟ عندما لايكون للولد روح أمه غلافاً أولاً، تتوقّف الأمومة بعدئذٍ في قلبها، كتوقفها عند الحيوانات. هذه حقيقة أحسّ بها: فمع نموّ ابنتي الصغيرة المسكينة ينقبض قلبي، فالتضحيات التي بذلتها من أجلها تفصلني عنها. بينما لو كان الأمر مع ولد آخر لأحسست بأن عواطف قلبي لاتنفد، فبالنسبة لهذا الآخر ليس ثمة تضحية وكل شيء متعة. هنا يا سيدي العقل والدين، فكل شيء يغدو مجرّداً من القوة أمام عواطفي. فهل تخطئ امرأة ترغب بالموت لأنها ليست أماً ولا زوجة؛ وقد شاء سوء حظّها أن تستشف الحبّ في مفاتنه اللانهائية، والأمومة في مباهجها اللامحدودة؟ ماذا سيحصل لها؟ هل أخبرك عما تحسّ؟ مئة مرّة خلال النهار، ومئة مرة خلال الليل، تلهب رعشة رأسي وقلبي وجسمي عندما تحمل لي ذكرى لم تُجدِ مقاومتها صور سعادة أفترض أنها أكبر مما هي. هذه النزوات الباهتة تهدّد عواطفي بالأفول، وأقول في نفسي: كيف كانت ستغدو حياتي لو...؟ وأخفت وجهها بين يديها واسترسلت في البكاء. ثم استأنفت هو ذا قلبي في صميمه. لو أنّ لي ولداً منه لارتضيت أقسى المصائب! والمسيح الذي مات متحملاً كلّ خطايا الأرض سيغفر لي هذه الفكرة القاتلة بالنسبة لي. لكنني أعرف أن

العالم قاس لا يرحم، وكلماتي بالنسبة له تجديف. وأنا أشتم كل شرائعه. آه! أريد أن أعلن الحرب على هذا العالم لتتجدد شرائعه وتصرفاته، ولتتحطم! ألم يجرّحني في جميع أفكاري وجميع مشاعري، وعواطفي، ورغباتي، وآمالي، في المستقبل والحاضر والماضي؟ فالنهار بالنسبة لي ممتلئ بغياهب الظلمات، والفكر سيف مصلّت، والقلب جرح دامٍ، وابنتي مظهر سلبي. نعم، عندما تحدثني هيلين أودُّ لو أن لها صوتًا آخر، وعندما تنظر إليّ أودّ لها غير هاتين العينين؛ إنّها هنا لتبيّن لي كل ما يجب أن يكون وكلّ ما لم يكُن، إنّها مصدر إزعاج لي! أبتسمُ لها، وأحاول أن أعوّضها عن العواطف التي أسرقها منها. وأتألم! أوه! يا سيدي، إنني أتألم كثيرًا في تحمّل الحياة وأنا أُعدُّ امرأة فاضلة! لم أرتكب أيّ أخطاء! وسأحظى بالاحترام! قاومت الحبّ اللاإرادي ورأيت وجوب عدم الانقياد له. ولكن في محافظتي على الشرف الفيزيائي، هل تمكّنت من صيانة قلبي؟ وأردفت وهي تضع يدها اليمنى على ثديها الأيسر: كان هذا القلب لمخلوق آخر. وهكذا فإن ابنتي لم تنخدع به؛ توجد نظرات، وأصوات، وحركات للأم تكيّف بقوتها روح الأولاد، وصغيرتي المسكينة لا تشعر بارتعاش ذراعي، ولا بتهدّج صوتي، ولا بعذوبة عيني عندما أنظر إليها أو أحدثها أو أضمها بذراعي، إنّها ترميني بنظرات اتهام لا أتحمّلها! أرتعش أحيانًا عندما أجد فيها محكمة ستدينني دون سماع دفاعي. أرجو السماء ألاّ تقيم الحقد بيننا ذات يوم! أيّها الإله القادر! الأولى أن تهيّئ لي قبري، وتجعلني أنتهي في سان-لانج! أريد أن أذهب إلى العالم الذي سأجد فيه روحي الأخرى، حيث سأكون بالفعل أمًا! أوه! عفوك يا سيّدي. أكاد أجَنُّ فهذه الكلمات كانت تخنقني، وقد صرّحت بها. آه! إنك تبكي معي! وأنت لا تزدريني. ثم صاحت بنوع من القنوط وهي تسمع وقع خطا ابنتها عائدة من نزهتها: هيلين، هيلين، تعالي يا ابنتي.

وجاءت الصغيرة ضاحكة، هاتفة، وهي تحمل فراشة أمسكت بها، وصمتت عندما رأت أمّها باكية، ووقفت إلى جانبها. ورفعت لها رأسها لتقبل جبينها.

قال الكاهن: ستغدو صبيّة جميلة.

twitter @baghdad_library

أجابت المركيزة وهي تقبّل ابنتها بحرارة كأنها تفي ديناً مستحقاً أو تبعد تبكيت ضمير : إنّها نسخة عن أبيها .

-إنّك حارة يا ماما .

أجابت المركيزة : اذهبي، واتركينا يا ملاكي .

وذهبت الطفلة دون أسف، ودون أن تنظر إلى أمّها، سعيدة تقريباً لأنها تهرب من أمام وجه حزين، كأنها تدرك أن العواطف المعبّر لها عنها مناقضة للحقيقة . فالابتسامة خاصية الأمومة ولغتها، وتعبيرها . والمركيزة لا تستطيع الابتسام . واحمرت وهي تنظر إلى الكاهن : تأمّلت أن تظهر أمّاً، لكنها لم تستطع لاهي ولا ابنتها الكذب ؛ والواقع أن قبلات المرأة المخلصة لها طعم العسل الإلهي الذي يضع في تلك الدعابة روحاً، ونارا نفاذة يلج منها القلب . والقبلات المجرّدة من تلك الطلاوة الممتعة مُرّة وجافّة . وأحسّ الكاهن بهذا الفرق، وأمكنه أن يسبر الهوّة الموجودة بين أمومة الجسد وأمومة القلب . وهكذا بعد أن ألقى على تلك المرأة نظرة فاحصة، قال لها :

إنّك على حق يا سيدتي، أفضل لكِ أن تموتي .

أجابت : آه! إنك تدرك عذاباتي، كما أرى . لأنك، وأنت الكاهن المسيحي، تخمّن هذه القرارات المشؤومة التي أوحت بها وتقرّها . نعم، أردت أن أقتل نفسي إنما لم أملك الشجاعة الضرورية لتنفيذ مرامي . لكن جسمي كان يضعف عندما تقوى روحي ؛ وعندما لا ترتعش يدي تترنّح روحي! وأنا أجهل سرّ هذه الصراعات وهذه التناوبات، إنني دون شك، وبشكل محزن جداً، امرأة لاثبات في إرادتها، وهي قوية لتحبّ فقط . إنني احتقر نفسي! في المساء عندما ينام خدمي، أذهب إلى بئر المياه بكل جرأة . وعندما أصل إلى الحافة تخشى طبيعتي الواهنة الدمار . إنني أعترف لك بضعفي . وعندما أجد نفسي في السرير، أخجل من جبني، واسترد

شجاعتي، وفي إحدى هذه المرات أخذت لودانوم وعانيت من آلام شديدة لكنني لم أمت. اعتقدت أنني تناولت كل ما تحتويه الزجاجة، ولكن يبدو أنني توقفت عند منتصفها.

قال الخوري برصانة وبصوت يتهدّج بالدموع: إنّك ضائعة، ياسيدتي، تدخلين في العالم وتخدعين العالم؛ ستبحثين فيه، وستجدين ما ترينه تعويضاً عن شقائك؛ ثم تحملين، في يوم ما، همّاً ملذاتك.

صاحت: أنا، أنا سأبحث عن أول محتال يعرف أن يُمثل أدوار الهوى وأسلّمه آخر ثروات قلبي وأثمنها، وأفسد حياتي من أجل لحظة متعة مشكوك بها؟ كلا إن حياتي ستستهلك بلَهَب نقي. يا سيدي، إن لجميع الرجال أحاسيس جنسهم، لكن من له الروح، ويرضي مستلزمات طبيعتنا كلّها بتناسقها المنسجم غير المتأثر إلا بضغط العواطف لا يصادف مرتين في الحياة. أنا أعرف أن مستقبلي رهيب، فالمرأة لاشيء دون الحبّ؛ والجمال لاشيء دون المتعة. ولكن ألا يستنكر العالم سَعادتي إن تهيّأت مرة أخرى لي؟ إنني ملزمة بأن أكون أمّاً شريفة لابنتي. آه! إنني ملقاة في طوق حديدي لا أستطيع الخروج منه دون خزي. والواجبات العائلية المنجزة دون جزاء ستضايقني؛ وسألعن الحياة لكن سيكون لابنتي، على الأقل، شبه أم جيّدة. سأحوّل لها كنوز الفضيلة عوضاً عن كنوز المحبّة التي حرمتها منها. وأنا لا أرغب حتى بالعيش لتذوّق المسرات التي تمنحها سعادة الأولاد لأمهاتهم. أنا لا أؤمن بالسعادة. ماهو مصير هيلين؟ ذات مصيري على الأرجح؛ إذ ما هي الوسائل التي يمكن أن تتوفر لأي أمّ لتتأكد من أن الرجل الذي ستسلمه ابنتها هو الزوج الذي يلائم قلبها؟ إنكم تشهرون بالمخلوقات المسكينة اللواتي يبعن أجسادهن ببضع دراهم لرجل عابر، والجوع والحاجة يغفران هذه الاتصالات العابرة؛ بينما المجتمع يتساهل في اتحاد فوري، بل ويشجّعه رغم رهبته، بين فتاة ساذجة ورجل لم تشاهده لثلاثة أشهر مضت، وتباع له للحياة كلّها. صحيح أن الثمن مرتفع! فلو أنكم بعدم سماحكم لها بأي تعويض عن آلامها تحترمونها لهان الأمر، ولكن كلاّ، فالعالم

twitter @baghdad_library

يفتري على الأكثر فضيلة بيننا! وهذا هو قدرنا برؤيته من الوجهين: دعارة عامة وعار، ودعارة خفية وتعاسة. أمّا البنات الفقيرات دون بائنة، فمصيرهن الجنون أو الموت؛ ولن يلقين أيّة رحمة أو شفقة! والجمال ومكارم الأخلاق ليست قيماً في بازاركم البشري، وتسمّون مجتمعاً وكر الأنانية هذا. لكن احرموا النساء من المواريث! إنّما أتمّوا على الأقل قانون الطبيعة باختياركم رفيقات حياتكم والزواج منهن وفق أمنيات القلب.

- سيّدتي، كلماتك تبرهن لي أنك غير متأثرة بالروح العائلية أو بالروح الدينية. لذلك لا تترددي بين الأنانية الاجتماعية التي تجرحك، وأنانية المخلوق التي ستجعلك تشتهين الملذات.

- هل العائلة موجودة ياسيدي؟ إني أنكر العائلة في مُجتمع تتوزع فيه الأملاك عند موت الأب أو الأم بين الأبناء ليذهب كل منهم في جهته[1]، فتغدو العائلة تجمّعاً موقتاً وعرضياً يحلّه الموت بسرعة، وقد حطّمت قوانيننا البيوتات، والمواريث، ودوام القدوات والتقاليد، ولا أرى إلاّ أنقاضاً اسمها جولي.

- سيدتي، لن تعودي إلى الله إلا عندما ستثقل يدهُ عليك، وأتمنى أن يتوفّر لك الوقت لتتصالحي معه. إنك تفتشين عن تعزياتك وأنت تحوّلين أنظارك إلى الأرض بدلاً من أن ترفعي عينيك نحو السماء، فالتفلسف والمصلحة الشخصية نهشا قلبك. وأنت تُصمّين سمعك دون صوت الدين، على شاكلة أبناء هذا القرن عديمي الإيمان! إن مسرّات العالم لاتولّد إلا العذاب. وستغيرين آلامك، هذا كلّ ما في الأمر.

قالت وهي تبتسم بمرارة: سأعمل على تكذيب نبوءتك؛ وسأبقى مخلصة لمن مات لأجلي.

أجاب الكاهن: ليس الألم قابلاً للاستمرار في الحياة إلا في النفوس التي أعدّها الدين لتقبّله. وغضّ طرفه باحترام ليحجب الشكوك التي يمكن أن تعبّر عنها

---

(١) هذا هو موقف السيد شوليو في «مذكرات زوجتين شابتين» حول موضوع تقسيم الملكية.

نظرته، فالطاقة الظاهرة في الشكاوى المنطلقة من المركيزة أحزنته، وتراءت له فيها الأنا البشرية بأشكالها المتعدّدة، وقنط من تطرية هذا القلب الذي جفّفه الشقاء بدلاً من أن يليّنه، وتوقّع ألا تنتش فيه حبّة البَذار السماوي لأن صوته العذب كان يختنق في ضجيج الأنانية الكبير والرهيب. غير أنه أظهر مثابرة الرُّسُل وعاد لزيارة المركيزة في مناسبات عديدة مؤملاً على الدوام أن يعيد إلى حظيرة الله تلك الروح النبيلة المعتزّة. لكنه فقد الأمل في اليوم الذي لاحظ فيه أن المركيزة لا تحبّ التحدّث إليه إلا لأنها تجد في محاورته حلاوة التحدّث عن ذلك الذي لم يَعُد موجوداً[1]، ولم يُرد أن يُحطّ من قيمة كهنوته بإظهاره الرضى عن هوى محرّم، فأوقف مداولاته، وعاد تدريجياً إلى الصيغ والأماكن المشتركة في الحديث. وحلّ الربيع، ووجدت المركيزة ما يسليها عن عميق حزنها، واهتمت بالبطالة السائدة في أرضها، وراق لها أن تدير بعض الأعمال فيها. وفي شهر تشرين أول تركت قصرها القديم في سان لانج حيث استعادت نضارتها وجمالها في بطالة ألم كان عنيفاً أولاً، كقرص رمي بقوة، وانتهى إلى التخامد في الكآبة، كما يتوقّف القرص بعد ترجحات تضعف بشكل تدريجيّ. والكآبة تتألّف من تتابع ترجّحات متماثلة معنويّة تلامس الأولى منها القنوط بينما تصل الأخيرة إلى البهجة، فهي في الشباب شفق الفجر، بينما هي في الشيخوخة غَسَق الغروب.

عندما مرّت العَرَبَة في القرية، تلقّت المركيزة تحيّات الكاهن الذي كان عائداً من الكنيسة إلى دار خورنيته؛ لكنها بردّها تحيته خفضت عينيها وأشاحت برأسها كي لايتبين ملامحها. لقد كان الكاهن على حقّ في موقفه ضد تلك المسكينة المماثلة لآرتميز أفسس.

---

(١) أهو تذكير بموقف المركيزة دي كاستري التي بقيت على وفائها لمترنيخ؟!

twitter @baghdad_library

III

في عصر الثلاثين

في حفلة رقص أقامتها السيّدة فيرمياني، ظهر شاب تبدو عليه بشائر نجاح فائق، ينتمي إلى أحد هذه البيوت التاريخية التي تبدو أسماؤها على الدوام، رغم حظر القوانين أحيانًا، على صلة وثيقة بأمجاد فرنسة. وكانت تلك السيّدة قد أعطته بعض رسائل توصية، اثنتين أو ثلاثًا إلى صديقاتها في نابولي؛ وجاء السيد شارل دي فاندنس[1]، وهذا هو اسم الشاب، ليشكرها ويودّعها. كان فاندنس قد أنهى بمهارة عدة مهام كلّف بها وألحق مجدّدًا بأحد وزرائنا المفوّضين المرسلين إلى مؤتمر لاياخ[2] وأراد أن يستغل رحلته لدراسة إيطالية. كانت حفلة الرقص هذه، بالنسبة للشاب، نوعًا من الوداع لمباهج باريس، ولتلك الحياة السريعة، وتلك الدوّامة من الأفكار والمسرّات التي يُفترى عليها غالبًا، ولكن من الممتع الانصراف إليها. كان فاندنس قد ألف منذ ثلاث سنوات أن يحيي العواصم الأوروبية، وأن يُغادرها وفقًا لنزوات قدره الدبلوماسي، غير أن ما يأسف عليه عند مغادرة باريس قليل جدًا. فالنساء

(١) أوجد بلزاك شخصية شارل دي فاندنس في «المرأة في الثلاثين» وهو الأخ الأكبر لفليكس دي فاندنس بطل «الزهرة في الوادي». ونجد شارل يتبع الملك إلى غان خلال حكم المئة يوم ويشترك في مؤتمر فيينا ويغدو في آنة لواء زوج إميلي دي فونتين أرملة الأميرال دي كرجاروه، وهو يعاشر في رواية «آنت أرسي» المتهتكين في مختلف الصالونات الباريسية وخاصة صالون المركيزة دي إغلمون والكونتة دي ليستومير والسيدة فيرمياني.

(٢) مؤتمر لاياخ (حاليًا لوبليانا)؛ جمع ملوك النمسة وبروسية وروسية ونابولي وفرنسة وإنكلترة لبحث وسائل سحق الحركات الثورية النابوليتانية وحصل مترنيخ فيه على حق بلاده في إقامة النظام، وقد انفض هذا المؤتمر بتاريخ ١٢ أيار ١٨٢١ بعد أربعة أشهر من المداولات.

لايمارسن أي تأثير عليه سواء لأنه لا ينظر إليهن بهوى حقيقي لأنهن يشغلن مكانًا كبيرًا في حياة رجل سياسي، أو لأن الاهتمامات الحقيرة المتعلقة بمغازلات سطحية تبدو له فارغة جدًا نسبة لشخصية قويّة. ونحن جميعًا نملك ادعاءات كبيرة تتعلّق بقوة الروح، وما من إنسان في فرنسة، وإن كان نافهًا، لايوافق على عَدِّه، بكل بساطة، روحانيًا. وهكذا فإن شارل، على حداثة سنّه (على مشارف الثلاثين من العمر) تعوّد فلسفيًا أن يرى الأفكار، والنتائج، والوسائل حيث يبصر الرجال ممن في عمره العواطف والمسرّات والأوهام، وهو يُبعد حرارة الشباب وحماستهم الطبيعية إلى أعماق روحه، التي تتميّز بشهامة فطريّة ويعمل بكل رباطة جأش وتنظيم دقيق، وحسن تصرّف لوضع قدراته المعنوية التي يعدّها وليدة المصادفة، في صيغ محببة، ومظاهر إغراء، وهي مهمة حقيقية لرجل طموح، ودور شاق يطّلع به هادفًا للوصول إلى ما نسميه مكانة رفيعة. وألقى نظرة أخيرة على الصالونات حيث يجري الرقص، فقد أراد، على الأرجح، قبل أن يغادر هذه الحفلة أن يحمل في ذاكرته صورة عنها كمشاهد لايخرج من مقصورته في الأوبرا دون أن يتأمل المشهد الأخير لكن بنزوة أيضًا، يسهل فهمها، كان السيد دي فاندنس يدرس هذه الحركة الفرنسية الخالصة، وألق الوجوه الضاحكة في هذه الحفلة الباريسية ليقارنها بالفكر مع المظاهر الجديدة والمشاهد الرائعة التي تنتظره في نابولي حيث ينوي أن يقضي عدة أيام قبل أن يلتحق بوظيفته. كان يبدو وكأنه يوازن فرنسة السريعة التبدّل، التي درسها واقعيًا في الحال، مع بلاد لايعرف عن تقاليدها، ومواقعها إلا ما يسمع ويقال بتناقضاته، أو ما تتضمنه بعض كتب غير موثوقة في معظمها، ومرت في رأسه بعض أفكار شاعريّة تقريبًا، لكنها عُدَّت شائعة جدًا الآن وهي تتجاوب دون علمه تقريبًا، مع أمنيات خفيّة في قلبه، المتشدّد دون نفور، الخالي دون ذبول. وقال في نفسه:

- هي ذي النساء الأكثر أناقة وغنى، ونُبلَ محتد في باريس، وهنا مشاهير هذا الزمن، ونوابغ المنابر، والشخصيات الارستقراطية والأدبية، وهناك الفنانون، ورجال السلطة. غير أني لا أرى إلا دسائس صغيرة، وغراميات مجهضة وابتسامات فاترة، واستخفافًا دون سبب، ونظرات دون بريق، وكثيرًا من الذكاء لكنه مشتّت

twitter @baghdad_library

دون هدف؛ وجميع هذه الوجوه البيضاء والوردية تبحث عن اللهو أكثر منها عن المسرّة؛ فما من عاطفة حقيقية. فإن أردت حسن ترتيب ريش القبعات، والأثواب المهفهفة، والزينات الأنيقة، والنساء النحيفات القدود؛ إن كانت حياتك ملامسة السطح دون الغوص في العمق فهوذا عالمك. اقنع بهذه العبارات التافهة، وهذه التكشيرات العريضة؛ ولا تطلب عاطفة في القلوب. أمّا أنا فتروّعني هذه الدسائس المسطحة التي تنتهي بعقد زيجات، أو بمنصب رئيس منطقة إدارية، أو بوصفات عامة، وإن تعلّقت بالحبّ فبترتيبات خفيّة، إذ يبدو أن الخجل سائد مما يشبه الهوى. وأن لا أدري أيًّا من هذه الوجوه المعبّرة التي تعلن لك روحًا منصرفة إلى فكر كما إلى تبكيت ضمير. هنا الأسف أو الشقاء يحتجبان بخجل تحت السخريات، ولا ألاحظ أيًّا من هؤلاء النساء اللواتي أحب الصراع معهن، واللاتي يقدنك إلى هوّة لاقرار لها. أين تجد القدرة في باريس؟ الخنجر شيء يثير الفضول يُعلّق في مسمار مذهّب، ويزيّن بغمد جميل. والنساء والأفكار، والعواطف، كلها تتشابه، ولا توجد أهواء لأن الفرديات الذاتية اختفت؛ فالمراتب، والعقول، والثروات قد سُوّيت، وارتدينا كلّنا الثياب السوداء كأننا في حداد على فرنسة الميتة. ونحن لانحبّ نظراءنا. فبين عاشقين يجب وجود فروق لتُزال، ومسافات ليتمّ تجاوزها وجاذبية الحب هذه تلاشت في العام ١٧٨٩! ومشكلتنا، وتقاليدنا المضجرة ناتجة عن نظامنا السياسي. ففي إيطالية على الأقل حسم كل شيء، والنساء ما يزلن فيها حيوانات شرسة، وحوريات بحر خطرات، دون عقل أو منطق إلا أذواقهن وشهيّاتهن ووجوب الحذر منهن كما يُحذر من النمور.

جاءت السيّدة فيرمياني تقطع عليه هذه المناجاة الداخلية بآلاف أفكارها المتناقضة، وغير التامّة، والمبهمة التي لايمكن التعبير عنها. إن مزيّة حلم اليقظة تتجلّى في إبهامه الكلي؛ أليس هو نوعًا من البخار الذهني؟.

قالت وهي تأخذ بذراعه: أريد أن أقدمك لسيّدة ترغب رغبة شديدة في التعرف عليك بعد أن سمعت الكثير عنك.

وقادته إلى صالة مجاورة، ودلّته بحركة، وابتسامة، ونظرة باريسية بالفعل إلى امرأة تجلس قرب المدفأة.

سأل الكونت دي فاندنس بحماسة : من تكون؟

- إنّها سيدة تداولتم، بالتأكيد، في مجالسكم أكثر من مرة لتمدحوها أو تذموها. امرأة تعيش في عزلة، ولغز محيّر.

- إن كانت الرحمة إحدى مزايا حياتك فأرجو أن تمنّي علي باسمها.

- المركيزة دي إغلمون.

- سأذهب لأتلقى دروسًا منها : فقد عرفت أن تجعل من زوج غير كفؤ عينًا من أعيان فرنسة، ومن رجل تافه قدرة سياسية. لكن أخبريني، أتعتقدين أن اللورد غرنفيل قد ضحّى بنفسه من أجلها كما تزعم بعض نساء المجتمع.

- ربّما، فمنذ تلك المغامرة، صحيحة كانت أو كاذبة، تغيّرت تلك المرأة المسكينة، وهي ما تزال نادرة الظهور في المجتمع، وهذا أمر يسترعي الانتباه في باريس، خاصة وأنه استمرّ أربع سنوات، وإذا كنت تراها الآن هنا. . . . وتوقفت السيدة فيرمياني ثم أضافت بمظهر ماكر : نسيت أنّ من واجبي السكوت. اذهب وتحدث معها.

بقي شارل لوقتٍ ساكنًا، وقد أسند ظهره برفق إلى إطار الباب مستغرقًا بتأمّل امرأة غدت مشهورة، دون أن يهتم أحد بالتفكير في الأسباب الموجبة لشهرتها، فالعالم يقدّم كثيرًا من هذه الشواذات المثيرة للفضول. فشهرة السيّدة دي إغلمون ليست بالتأكيد أكثر غرابة من تلك التي يتمتع بها بعض الرجال المنصرفين باستمرار إلى عمل مجهول : إحصائيون متمسكون بعمق الإيمان بحسابات يحرصون على عدم نشرها، وسياسيون يعيشون على مقال في صحيفة، ومؤلفون أو فنانون لايغادر نتاجهم الحقائب؛ وعلماء مع أولئك الذين لايعرفون شيئًا عن العلم على مثال سغَنارل* المتحدّث باللاتينية مع أولئك الذين يجهلون اللاتينية؛ رجال اصطلح على

* سغنارل : شخصية في مسرحيات موليير.

twitter @baghdad_library

منحهم قدرات في مجال ما، سواء في إدارة الفنون، أو في بعثات هامّة. ويبدو أن هذه العبارة العجيبة: **هذا موضوع اختصاص** قد أحدثت لهذه الأنواع من الرؤوس الفارغة السياسية أو الأدبيّة. وبقي شارل مدة طالت أكثر مما أراد، ولم يكن مسروراً لهذا الشعور بالاهتمام الشديد بامرأة، وما أحدثه وجودها من نقص للأفكار التي تصوّرها الدبلوماسي الشاب عند تأمله مظهر حفلة الرقص.

كانت المركيزة آنذاك في الثلاثين من عمرها، جميلة رغم نحولها الظاهر ورقة تقاطيعها تستمد جاذبيتها الكبرى من مظهر يكشف هدوؤه عن عمق روحي مدهش، فعيناها تشعّان بريقًا لكنه يبدو محتجبًا بقناع من فكرة ثابتة تنمّ عن حياة محمومة وإذعان تام لمشيئة القدر. وأجفانها مطأطئة بطهر إلى الأرض بشكل دائم تقريبًا، ولا ترتفع إلا نادراً عنها، فإذا ألقت نظرات حولها فبحركة حزينة كأنّها تحتفظ بألق عينيها لتأملات خفيّة، وهكذا يشعر كل رجل سام بأنّه منجذب بفضول نحو تلك المرأة اللطيفة الصامتة. وإذا أراد العقل أن يخمن غوامض ردّة الفعل الدائمة التي ترتد من الحاضر نحو الماضي، ومن العالم إلى عزلتها، لن تكون النفس أقل اهتماماً بالإلمام بأسرار قلب معتزٍ، تقريبًا، بآلامه؛ ومع ذلك فما من شيء فيها يكذّب الأفكار التي تُنسج حولها، وكجميع النساء ذوات الشعر الطويل، تقريبًا، كانت تبدو شاحبة ببياض تام، وببشرة ذات نعومة فائقة[1]، هي عَرَض نادراً ما يخدع، يُعلن عن حساسية حقيقية تؤكدها طبيعة قسماتها المتميزة بهذا الكمال الرائع الذي يعبّر عنه الرسّامون الصينيون في صورهم الخيالية؛ وربّما كان عنقها أطول من المعتاد، لكن هذه الأشكال من الأعناق هي الأكثر جاذبية، وتعطي لرؤوس النساء تماثلاً مبهماً مع تموّجات الأفعى المغناطيسية لو لم توجد أكثر من ألف قرينة تكشف للملاحظ الطبائع الأكثر استتاراً لكفاه أن يتأمل بعناية حركات الرأس، ولفتات العنق المتنوعة والمعبرة إلى أبعد الحدود ليحكم على طبع امرأة.

(١) وصف جولي دي إغلمون بذكر هنا بالمركيزة دي كاستري التي تودّد إليها بلزاك وحاول إغواءها لكنها صدّته إنّما استمرّ على صداقة فاترة معها.

ومرأى السيدة دي إغلمون ينسجم مع الفكرة السائدة عن شخصيتها، وضفائر شعرها المحبوك بشكل عريض تشكّل فوق رأسها تاجًا ساميًا لاتختلط فيه أيّة زينة إذ يبدو أنها ودّعت إلى الأبد الاستعانة بوسائل التجميل، لذلك لاتلاحظ لديها أبدًا تلك الحسابات الصغيرة من الغنج التي تفسد كثيرًا من النساء، ولكن أيًا كانت بساطة صدارها فإنّه لا يخفي أناقة قوامها، كما أن أبّهة ثوبها الطويل تعتمد على تفصيل فائق التميّز، وهو يبين مدى دقة الأفكار المبذولة في اختيار النسيج وترتيبه، حتى ليمكن القول أن الطيّات العديدة والبسيطة فيه تضفي عليها علامة النبل الكبيرة، غير أن مواطن الضعف المستعصية لدى المرأة قد تظهر في تلك العناية الفائقة التي توليها لقدميها ويديها، لكن إن كانت تظهرها ببعض سرور، فإنه يتعذّر على أمكر منافسة لها أن تكتشف التكلّف في حركاتها المتسمة بطابع لا إرادي، أو الناتجة عن عادات طفولية. وهذه البقيّة من غنج تلقى العذر لعدم مبالاة ظريفة. وهذه الكتلة من الملامح وهذه المجموعة من الأشياء الصغيرة التي تجعل المرأة دميمة أو جميلة، جذّابة أو بغيضة، لايمكن إلا أن تذكر خاصة وأن الروح لدى سيّدة كالمركيزة دي إغلمون تربط جميع التفاصيل وتطبعها بوحدة حلوة. كما أن تصرفها يتوافق تمامًا مع قسمات وجهها ووضعها، فبعض النساء في عمر ما فقط، بعض النساء المتميزات يعرفن وحدهن أن يعطين لغة لمظهرهن. أهو الشقاء، أهو الهناء، الذي يضفي على المرأة في عمر الثلاثين، على المرأة المحظوظة، أو التعيسة سرّ هذا المظهر المعبّر؟ إنّه دائمًا لغز حقيقي يفسّره كل واحد حسب رغباته، أو آماله، أو أسلوبه، والطريقة التي أسندت فيها المركيزة مرفقيها على مسندي كنبتها، وضمّت أطراف أصابع كل يد فبدت كأنها تعزف على البيانو، وانحناءة عنقها، والعفوية في إراحة جسمها التعب، إنّما المرن حتى ليبدو كأنه مثنيٌ بأناقة على الكرسيّ، وعدم التحفّظ في مدّ ساقيها، واللامبالاة في وضعها وحركاتها التي يبدو فيها السأم؛ كلّها تكشف عن امرأة ملّت الحياة، ولم تعرف أبدًا مسرّات الحبّ، لكنها حلمت بها، وهي تنحني تحت الأثقال التي ترهقها بها ذاكرتها: امرأة قنطت منذ مدة طويلة من المستقبل أو من نفسها. امرأة بطّالة تُعدُّ الفراغ عدمًا. وتأمل شارل دي فاندنس بإعجاب هذه اللوحة الرائعة، إنّما

twitter @baghdad_library

كنتاج صُنع أكثر مهارة من نتاج النساء العاديات. فهو يعرف دي إغلمون، ومن النظرة الأولى التي ألقاها على تلك المرأة التي لم يرها من قبل، أدرك الدبلوماسي الشاب عندئذٍ عدم التناسب، أو بالأصح، التنافر بين هذين الشخصين وهو من القوة حتى ليتعذر على المركيزة أن تحبّ زوجها. غير أن السيدة دي إغلمون حافظت على سيرة فاضلة، وعفتها لاتزال تقيّم عاليًا جميع الألغاز العصية التي يمكن للملاحظ أن يستشفها في حياتها. وبعد أن تجاوز دي فاندنس أول مظاهر الدهشة التي عرته، فتش عن أحسن الوسائل للتصدّي لمخاطبة السيّدة دي اغلمون، وبدهاء شائع تقريبًا في الدبلوماسية، التزم أن يضايقها ليعرف كيف تقابل حماقة. قال وهو يجلس إلى قربها:

سيدتي، مصادفة فضول سعيدة، جعلتني أعرف، دون أن أعلم بأيّة صفة، أنّ الحظّ قد حالفني لأكون موضع التفاتة كريمة منك، وأنا مدين لك بالشكر لأنني لم أكن أبدًا محطّ مثل هذه الحظوة. لذلك خذي بالحسبان أحد عيوبي؛ فمن الآن وصاعدًا، لن أكون أبدًا متواضعًا. . . .

قالت ضاحكة: أنت مخطئ، ياسيدي، فيجب أن تترك الزهو لأولئك الذين ليس لديهم شيء آخر يتباهون به.

بدأت عندئذٍ محادثة بين المركيزة والشاب، استعرضا فيها، حسب العادة، في مدّة قصيرة، مواضيع متعددة: الرسم والموسيقى، والأدب، والسياسة، والناس، والأحداث والأشياء، ثم وَصَلا إلى المنزلق غير المحسوس المتعلق بالموضوع الأزلي في الأحاديث الفرنسية والأجنبية، الحب، والعواطف، والنساء.

قالت: إننا إماء.

قال: بل أنتن ملكات.

كانت العبارات المتبادلة بين شارل والمركيزة تنمّ عن ذكاء تقريباً ويمكن أن تختصر بذلك التعبير البسيط الذي ينطبق على جميع الأحاديث الحالية والمستقبلية الجارية حول هذا الموضوع؛ ألا تعني هاتان العبارتان دائماً القول في زمن محدّد:
- أحبني - سأحبك.

هتف شارل دي فاندنس بلطف: سيدتي، ستجعلينني أتأسّف بشدّة على مغادرتي باريس، فأنا لن أجد، بالتأكيد، في إيطالية ساعات بمثل روحانية هذه الساعة الحاضرة.

- قد تحظى بالسعادة يا سيدي، وهي أفضل من جميع الأفكار البرّاقة الحقيقية أو المزيّفة التي تقال في باريس كل مساء.

قبل أن يحيي شارل المركيزة مستأذناً بالانصراف، حصل منها على إذن بزيارتها مودّعاً قبل سفره. وعَدَّ نفسه سعيداً جداً لأنه أعطى لالتماسه الأسلوب اللائق بسلامة النيّة، خاصة وقد تعذّر عليه، مساء عندما أوى إلى فراشه، وطوال نهار اليوم التالي أن يبعد ذكرى تلك المرأة عن خاطره. تساءل حيناً ما الذي دفع المركيزة إلى إبداء رغبتها في التعرّف عليه. وما هي نواياه بدوره عندما طلب رؤيتها مجدّداً. وخطرت له تبريرات متعددة لم تنقطع، واعتقد حيناً آخر الاهتداء إلى أسباب هذا الفضول؛ وانتشى عندئذٍ بالآمال أو فترت همته وفق التفسيرات التي علل بها تلك الأمنية المهذبة، المألوفة في باريس. تارة هي كلّ شيء، وتارة أخرى هي لاشيء. أخيراً أراد أن يقاوم الميل الذي يجذبه نحو السيدة دي إغلمون، لكنه ذهب إليها؛ إذ توجد أفكار نُذعن لها دون أن ندركها: وهي فينا دون علمنا. ورغم أن هذه الخاطرة يمكن أن تبدو موهمة بالتناقض أكثر من الصحّة، فإنّ كل شخص حسن النيّة يجد ألف برهان عليها في حياته. وبتوجّه شارل إلى منزل المركيزة كان يذعن إلى أحد هذه الأفكار السابقة الوجود، ولن تكون خبرتنا واستمالات نفسنا إلا تطوّراتها المحسوسة. فللمرأة في سن الثلاثين جاذبية لاتقاوم على شاب، ومامن أمر أكثر واقعية، وأشد متانة، وأحسن انسجاماً، من مودات عميقة يقدّم العالم لنا كثيراً من

twitter @baghdad_library

الأمثلة عنها بين امرأة كالمركيزة دي إغلمون ورجل مثل فاندنس والواقع أن الفتاة الشابة العزباء كثيرة الأوهام، عديمة التجربة، والجنس كثير الإغراء في الحبّ وبه يتمكن الشاب من أن يرضي زهوه، بينما تعرف المرأة مدى التضحيات المقدمة عليها. وحيث تكون الأولى منجذبة بالفضول، والإغراءات الغريبة عن إغراءات الحبّ فإن الثانية تلبي نداء عاطفة واعية. الأولى تستسلم، والثانية تختار؛ أليس في هذا الاختيار إطراء فائق. أليست المرأة ذات الخبرة، المسلحة بمعرفة دفعت ثمنها غاليًا بأوقات شقاء، تبدو وهي تستجيب للحبّ وكأنها تمنح أكثر من نفسها، بينما الفتاة العزباء جاهلة، ساذجة، لاتعرف شيئًا، ولايمكنها إجراء أي مقارنة، أو تقييم، تقبَلُ الحبّ وتتعلمّ، بينما المرأة ذات الخبرة تعلمنا، وتنصحنا في سنٍّ نحب فيها أن نتقبَّل الإرشاد، ونسرّ بالطاعة[1]. الأولى تريد أن تتعلّم كل شيء، وتبدو ساذجة في مجال تبدو فيه الأخرى غاية في الرقة. تلك لا تهيّئ لك إلا انتصاراً واحداً، وهذه تلزمك بخوض معارك مستمرّة. ليس للأولى إلا الدموع والمسرّات، وللثانية الملذّات والندم. لتغدو الفتاة خليلة يجب أن تكون في منتهى الفساد، وتُهْجَرُ عندئذ باشمئزاز، بينما للمرأة ألف وسيلة للاحتفاظ بقدرتها وعزّة نفسها. الأولى بغيّ لاتحسّ معها بطعم الراحة والأخرى خسرت كثيراً فلا تطلب من الحب تحولاته المتعدّدة؛ العار يلحق بالأولى وحدها، أمّا الثانية فتقتل عائلة كاملة من أجلك. ليس للفتاة إلا تدلّل واحد. وتعتقد أن كل شيء قد قيل عندما تتعرّى من ثيابها، أما المرأة فلا يُحصى تدلّلها وهي تحتجب تحت ألف قناع؛ أخيراً هي تداعب كل مظاهر الزهو بينما تقتصر المبتدئة على إرضاء مظهر واحد. لكن الحيرة والرهبة والمخاوف والاضطرابات والعواصف تتحرك لدى امرأة الثلاثين عامًا مما لا يصادف أبدًا في حبّ الفتاة؛ وعندما تصل المرأة إلى ذلك العمر فإنها تطلب من الشاب أن يعيد لها التقدير الذي ضحّت به من أجله، فهي لاتحيا إلاّ له، وتهتم بمستقبله، وتريد له حياة

(١) هذا يُذكّر بغرام بلزاك بالنساء الأكبر عمراً منه فالسيدة دي برني تزيده ٢٢ عامًا، والدوقة دابرنتس أعمر منه بخمسة عشر عامًا.

جميلة، وتأمره أن يجعلها مجيدة؛ وهي تطيع، وترجو، وتأمر، وتتواضع وتتسامى، وتعرف كيف تواسي في مناسبات عديدة حيث لاتعرف الفتاة إلا أن تتنهّد. أخيراً، فإن المرأة في الثلاثين، عدا عن مزايا وضعها، يمكن أن تظهر كفتاة، وتلعب جميع الأدوار، وتبدو حيّة. وتزداد جمالاً حتى في الشقاء؛ وبين الاثنتين ما لايقاس من الفروق الممتدة من المتوقع إلى غير المتوقّع، ومن القوة إلى الضعف. المرأة في الثلاثين تشبع كل الرغبات، والفتاة تحت طائلة ألا تكون، لا تشبع شيئًا. هذه الأفكار تنمو في قلب الشاب، وتشكّل لديه أقوى الأهواء، لأنها العواطف المفتعلة المتولّدة عن الطبائع إلى العواطف الحقيقية الناتجة عن الطبيعة. الدور الرئيس والحاسم في حياة النساء هو بالضبط ذلك الذي تنظر إليه امرأة دائمًا كأنه عديم الشأن؛ فعندما تتزوج تفقد أنوثتها، وتغدو ملكة وأمة المنزل العائلي. وقدسية النساء غير قابلة للتوفيق مع واجبات وحريات المجتمع؛ فمنح النساء الحرية إفساد لهن، ألا يعني إعطاء غريب حق الدخول إلى حَرَم العائلة القدسي الوقوع تحت رحمته؟ لكن أليس خطأ أن تجتذبه المرأة إلى ذلك الحرم، أو بتحري الدقة بداية الخطأ؟ يجب قبول هذه النظرية بكل صرامتها، أو الصفح عن الأهواء. وحتى الوقت الحاضر عرف المجتمع في فرنسة أن يتبع حداً متوسطًا ويسخر من المصائب. وكالإسبارطيين الذين لم يكونوا يعاقبون إلاّ لرعونة، يبدو أن مجتمعنا قد ارتضى السرقة. لكن قد يكون هذا الأسلوب عاقلاً جداً؛ فالازدراء العام يشكّل أفظع العقوبات لأنه يصيب المرأة في القلب؛ فالنساء يحرصن، ويجب عليهن جميعاً أن يحرصن على أن يحظين بالاحترام، فدونه لاوجود لهن، وهكذا فأول ما يطلبنه في الحب رفع هذه العقوبة، والأكثر فسادًا بينهن توجب، قبل كل شيء صفحًا عن الماضي ببيعها مستقبلها، وتحاول أن تفهم عشيقها أنّها تستبدل بمتع لاتقاوم الإكرام الذي حرمها العالم منه؛ وما من امرأة تستقبل في منزلها لأول مرّة شاباً وهي بمفردها معه إلا وتتصوّر هذه الأفكار خاصة إن كان مثل شارل دي فاندنس على قدر من الوسامة أو الذكاء؛ وبالمقابل فقلائل الشبان الذين لا تخالجهم بعض أمنيات خفيّة حول واحدة من آلاف الأفكار التي تبرّر حبهم الفطري للنساء الجميلات، والنبيهات والتعيسات مثل السيدة دي

twitter @baghdad_library

إغلمون. وهكذا اضطربت المركيزة عندما أعلن لها عند قدوم السيد دي فاندنس، كما بدا على الشاب الخجل تقريبًا رغم الثقة بالنفس التي تُعَدُّ لدى الدبلوماسيين مألوفة كالبزّة التي يتأنقون بها تقريبًا. لكن المركيزة اتخذت سريعًا ذلك المظهر الودود الذي تلتجئ النساء إليه ضد تأويلات الزهو وهو مظهر يستبعد كلّ قصد خفيّ ويفسح المجال، إن صحّ القول، لإظهار العاطفة بتلطيفها ضمن آداب حسن الاستقبال والترحيب، ويمكن للنساء أن يبقين ما شئن في ذلك الوضع المبهم، كما على مفترق طرق يؤدي، إلى الاحترام كما يؤدّي إلى اللامبالاة أو الدهشة أو الهوى. وفي عمر الثلاثين فقط، يمكن للمرأة أن تعرف مخارج هذا الوضع، ويمكنها أن تضحك فيه، وتمزح، وتتلاطف بتودّد، دون تورّط؛ وهي تمتلك عندئذ اللباقة الضرورية لتضرب على جميع الأوتار الحسّاسة عند الرجل ولتدرس الأصوات التي تحدثها وتستخلص النتائج. صمتها خطر ككلامها، ولايمكن أن تعرف أبدًا في ذلك العمر إن كانت صريحة صادقة أو متكلفة متكتمة، إن كانت تسخر أو تعبّر عن نية سليمة في اعترافاتها. وبعد أن تمنحك حق الصراع معها، تنهي المعركة فجأة بكلمة، أو نظرة، أو بإحدى هذه الحركات التي تعرف مدى قدرتها، وتهمل موقفك لتبقى سيدة سرك، وهي حرّة في أن تضحي بك بدعابة، حرّة في أن تهتمّ محتمية في ذات الوقت بضعفها وبقوتك. وبالرغم من أن المركيزة وضعت نفسها خلال هذه الزيارة الأولى، على تلك الأرض المحايدة، فإنها عرفت كيف تحتفظ برفعة المرأة السامية، وكانت آلامها الخفية تخيّم دائمًا على مرحها المتكلف كسحابة خفيفة تحجب جزئيًا أشعة الشمس. وخرج فاندنس بعد أن شعر في تلك المحادثة بمتع مجهولة، لكنه بقي مقتنعًا بأن المركيزة هي إحدى أولئك النساء اللواتي يكلّف غزو قلوبهن ثمنًا غاليًا قبل الاستجابة لميل الوقوع في حبّهن.

قال في نفسه وهو يغادر المنزل: ستكون عاطفة على مد النظر، ومراسلات ترهق رئيس ديوان طموح! إنّما إن أردت جيّدًا... هذه العبارة المشؤومة **إن أردت جيّدًا** أضاعت باستمرار المكابرين. فالاعتزاز بالنفس في فرنسة يقود إلى الهوى. وعاد شارل إلى زيارة السيدة دي اغلمون وبدا له أنّها تشعر بالارتياح لمحادثته؛ وبدلاً

من أن ينصرف ببراءة إلى الاستمتاع بالحبّ، أراد أن يلعب دوراً مضاعفًا، فجرّب أن يظهر مغرمًا على أن يحلّل ببرود سير هذه الخدعة، أن يكون عاشقًا ودبلوماسيًا، لكنه شاب وشهم، وهذه المحاولة يمكن أن تقوده إلى حبّ لاحدود له، فالمركيزة مخادعة كانت أو طبيعية هي دائمًا أقوى منه. وفي كل مرة يخرج فيها شارل من زيارة السيدة دي إغلمون يزداد اقتناعًا بشكوكه، ويسلّط على الأوضاع التدريجية التي تمرُّ فيها روحه تحليلاً قاسيًا يقتل انفعالاته الخاصة.

قال في نفسه بعد الزيارة الثالثة: أفهمتني هذا اليوم أنها تعيسة جداً، ووحيدة في هذا العالم، وأنها تتحرّق شوقًا للموت، لولا وجود ابنتها، كانت مستكينة تمامًا للقدر، والحال أنني لست أخاها ولا كاهن اعترافها، فلماذا تسرُّلي. بهمومها؟ إنّها تحبني. وبعد يومين، وأثناء ذهابه لزيارتها انتقد التقاليد الحديثة قائلاً:

يأخذ الحبّ لون كل عصر، فهو في العام ١٨٢٢[1]، مذهبي، وقبل أن يتثبت، كما في السابق، بالوقائع، يُناقش، ويُبحث تفصيلاً، ويخطب عنه على المنابر، وتردُّ مواقف النساء فيه إلى ثلاث وسائل: فهنّ أولاً يطرحن على بساط البحث هوانا، ويرفضن الاعتراف بقدرتنا على الحبّ بقدر ما يَحبْن. غنجٌ! وتحدّ حقيقي واجهتني به المركيزة هذا المساء. ثم أنهنّ يبدون تعيسات جداً ليثرن شهامتنا الطبيعية، أو عزة نفسنا؛ ألا يزهو الرجل في مواساته شقيّة كبيرة؟ أخيراً فإن لديهن هوس البكارة! إنّها تنزع إلى التفكير بأنني أعتقد أنها ماتزال في تمام جدّتها، وسلامة طويّتي يمكن أن تغدو مضاربة فائقة.

وفي أحد الأيام بعد أن استنفد شكوكه، تساءل إن كانت المركيزة صادقة، وإن كان يمكن لمثل هذه الآلام أن تحدث، ولماذا التظاهر بالاستكانة؟ كانت تحيا في عزلة عميقة، وتفترس بصمت أحزانها فلا يمكن تخمينها إلا بالانتباه الدقيق إلى آهة مكبوتة تقريبًا. ومنذ تلك اللحظة أبدى شارل اهتمامًا كبيراً بالسيدة دي إغلمون؛

(١) تلميح إلى كتاب ستندال: «من الحب» الذي ظهر في العام ١٨٢٢.

twitter @baghdad_library

غير أنه بحضوره إلى موعد معتاد غدا ضرورياً لكل منهما وتحدّد وقته تلقائياً بالفطرة، وجد حبيبته ماكرة أكثر منها صادقة، وكانت فكرته الأخيرة:

- هذه المرأة بارعة جداً بالتأكيد. ودخل فرأى المركيزة في وضعها المفضل، وضع تكتنفه الكآبة، ورفعت نحوه عينيها دون أن تبدي أيّة حركة، وألقت عليه إحدى هذه النظرات المتأمّلة الأشبه بالابتسامة. كانت السيّدة دي إغلمون تعبّر عن ثقة، وعن صداقة حقيقية، لكن ليس عن حبّ. وجلس شارل ولم يستطع أن يتفوّه بكلمة، كان تحت تأثير أحد هذه الانفعالات التي تعجز اللغة عن التعبير عنها.

قالت له بصوت رقيق: مالك؟

- لاشيء ثم استدرك: بلى، أفكر بشيء لم يخطر أبداً على بالكِ.

- وماهو؟

- ولكن... إن المؤتمر قدانتهى.

- إيه! هل كان عليك أن تذهب إلى المؤتمر؟

الجواب المباشر والمناسب هو التصريح العاطفي الأكثر فصاحة ودقّة؛ لكنه لم يبدر من شارل. فملامح السيدة دي إغلمون تنطق بصداقة بريئة تحطم كل حسابات الزهو، وجميع آمال الحبّ، وجميع ارتيابات الدبلوماسي. كانت تجهل أو بدت أنّها تجهل كليًا ما يكنّه لها من حبّ واضطر شارل أن ينطوي على نفسه مرتبكًا وأن يعترف ضمنًا بأنه لم يفعل ولم يقل شيئًا يتيح لتلك المرأة الشعور بحبه. ووجد السيد دي فاندنس المركيزة خلال تلك الأمسية كما هي دائمًا: بسيطة، متوددة، صادقة في ألمها، سعيدة لأنها وجدت صديقًا، معتزة بلقائها روحًا تعرف كيف تفهم روحها، لكنها لم تذهب إلى أبعد من ذلك، ولم يفترض أن امرأة تسمح بتعرضها للإغواء مرتين؛ لكنها عرفت الحبّ وهي تحتفظ به داميًا في صميم قلبها، وهي لا تتصوّر أن السعادة يمكن أن تحمل لامرأة نشوتها مرتين، لأنّها لاتؤمن فقط بالنفس وإنما بالزوج، والحبّ بالنسبة لها ليس إغراءً رغم أنه يتضمن كل الإغراءات النبيلة. في تلك

اللحظة غدا شارل شاباً يافعاً، وسيطر عليه ألق هذا الخلق الكبير، وأراد أن يُلم بجميع أسرار تلك الحياة التي أذبلتها المصادفة أكثر من الخطأ. ولم تلق السيدة دي إغلمون إلا نظرة على صديقها وهي تسمعه يطلب منها أن تصارحه بسرّ هذا الغمّ الذي يضفي على جمالها كلّ هذه التناسقات من الحزن. لكن هذه النظرة العميقة كانت كختم عقد مهيب. قالت:

- لاتطرح عليّ أسئلة مماثلة، في مثل هذا اليوم منذ ثلاث سنوات، مات الرجل الذي أحبّني، الرجل الوحيد الذي كنت مستعدة أن أضحي حتى بمكانتي في سبيل إسعاده. مات لينقذ شرفي. توقّف هذا الحبُّ فتياً، نقياً، ملؤه الأوهام، قبل أن استسلم لهوى يدفعني إليه قَدَرٌ لا مثيل له، كنت قد أغويت بما يضلّل العديد من الفتيات، برجل تافه لكنه مليح الشكل، وعرّى الزواج آمالي وأسقطها واحدة بعد أخرى. وقد فقدت الآن السعادة الشرعية، وهذه السعادة المسماة جرميّة دون أن أعرف طعم السعادة. ولم يبق لي شيء. وإذا لم أعرف أن أموت فيجب أن أبقى أمينة لذكرياتي.

لم تبكِ بعد هذه الكلمات لكنها طأطأت بصرها ولوّت قليلاً أصابعها بعد أن صالبتها بحركتها المألوفة. قالت هذا ببساطة، لكن نبرة صوتها كانت تنطق بقنوط بمثل العمق الذي يبدو في حبها، ولم تترك أيّ أمل لشارل. هذه الحياة المروّعة المعبّر عنها بثلاث جُمَل، والمفسّرة بليّ أصابع اليد، وذلك الألم الشديد تعانيه امرأة ضعيفة، وتلك اللجّة يغرق فيها رأس جميل؛ وأخيراً الكآبات، ودموع حداد ثلاث سنوات سحرت فاندنس، الذي بقي صامتاً وصغيراً أمام هذه المرأة الكبيرة والنبيلة: لم يعد يرى المفاتن الماديّة على روعتها وتمامها، إنّما الروح في منتهى حساسيتها. صادف أخيراً تلك المخلوقة المثالية التي طالما حلُم بها خيالياً، وناداها بقوة جميع أولئك الذين يرهنون حياتهم لهوى يبحثون عنه بحرارة، ويموتون غالباً دون أن يستطيعوا الاستمتاع بجميع كنوزه المرتجاة.

twitter @baghdad_library

وجد شارل، عند سماعه هذه اللغة، وأمام ذلك الجمال السامي، أفكاره محدودة. وأمام عجزه عن إيجاد الكلمات المناسبة لمقام هذا المشهد المتميز في آن واحد بالبساطة والرفعة، أجاب بعبارات مبتذلة حول قَدَر النساء، وقال:

سيدتي، يجب أن تعرفي كيف تنسين آلامك، أو تحفرين لك قبراً.

لكن العقل يبقى ضعيفًا أمام العاطفة، فهو بشكل طبيعي محدود ككلّ شيء إيجابي، أما العاطفة فلانهائية. المحاكمة عقليًا في موقف يقتضي الشعور عاطفيًا خاصة نفوس دون سعة في قدراتها لذلك لزم فاندنس الصمت، وتأمّل طويلاً السيّدة دي إغلمون، وخرج وقد تملكته أفكار جديدة تعظّم المرأة. فكان أشبه برسّام اقتصرت لوحاته على نماذج محترفه العاديّة، ثم صادف فجأة منموزين* المتحف. أجمل التماثيل القديمة وأقلّها تقديراً. وأحسّ شارل بهيام عميق. فهو يحبّ السيدة دي إغلمون بتلك النيّة الصادقة المميّزة للشباب، وذلك الورع الذي يمنح الأهواء الأولى ظرفًا لايوصف، والطهر الذي لايجده الرجل إلا أنقاضًا عندما يحب مرة أخرى فيما بعد: أهواء عذبة تتذوقها النساء اللاتي يولّدنها بحلاوة دائمًا لأن الثلاثين، هذا العمر الرائع هو قمة الشاعرية في حياة المرأة، ويمكنها أن تتقبّل فيه كل المغازلات، وأن تنظر إلى الماضي كما تنظر إلى المستقبل؛ فالنساء يعرفن عندئذٍ كل قيمة الحبّ ويستمتعن به خشية أن يفقدنه: وهن ما يزلن عندئذٍ بجمال روح الشباب الذي يبدأ بهجرهن بينما يشتد الهوى باستمرار أمام مستقبل يروعهن.

قال فاندنس في نفسه وهو يغادر منزل المركيزة: وقعت في الحبّ هذه المرّة، ولسوء حظي أجد من أحبّها امرأة متعلّقة بالذكريات؛ والصراع صعب ضد ميت لم يعد موجودًا، ولايمكنه أن يرتكب الحماقات، لايسبّب كَدَرًا أو تنغيصًا ولا تبقى منه إلا مزايا الطيّبة. أليست تنحية للكمال عن عرشه محاولة القضاء على مفاتن ذكريات

* منموزين Mnémosyne: في الميثولوجية الإغريقية ابنة أورانوس (السماء) وربة الذاكرة وأمّ ربّات الفنون (م المترجم).

وآمال استمرت حيّة بعد فقد العاشق لأنه بالضبط لم يوقظ إلا الرغبات وهي الأجمل والأكثر إغراءً في الحب؟

هذه الفكرة الحزينة الناتجة عن القنوط والخشية من عدم النجاح وهما بداية جميع الأهواء الحقيقية كانت الحساب الأخير لدبلوماسية دي فاندنس المتلاشية. ومن حينها فقد مقاصده الخفيّة، وغدالعبة الحبّ وضلّ في توافه هذه السعادة المبهمة التي تتعلل بكلمة، ولحظة صمت، وأمل غامض. وأراد أن يحبّ أفلاطونيًا، وأن يأتي كل يوم يتنفس الهواء الذي تستنشقه السيدة دي إغلمون، ويلازم تقريبًا منزلها، ويرافقها إلى كل مكان بتسلّط الهوى الذي يضمّ الأثرة والإيثار المطلق. وللحبّ غريزته، وهو يعرف أن يجد طريقه إلى القلب كما تسير أضعف الحشرات نحو زهرتها بإرادة لاتقاوم دون أن ترتعب من شيء. وكذلك فعندما تكون العاطفة حقيقية فإن قدرها غير مشكوك فيه. لكن ألا تتعرض المرأة لكل الهموم الرهيبة إن فكّرت أن حياتها تتعلّق تقريبًا بالحقيقة، والقوة، والاستمرارية التي سيضعها عشيقها في رغباته؟! والحال أن من المتعذر على امرأة، أو زوجة، أو أم أن تحترز من حبّ شاب، والشيء الوحيد الذي يمكنها القيام به هو عدم الاستمرار في رؤيته من اللحظة التي تخمن فيها هذا السر الكامن في القلب، والمرأة قادرة على الكشف عنه دائمًا. لكن هذا الإجراء يبدو حاسمًا جداً حتى ليصعب على المرأة اتخاذه في عمر يثقل فيه الزواج عليها ويتعبها ويسبّب لها الملل، وعندما تغدو العاطفة الزوجية فاترة جداً، دون أن يكون الزوج قد هجرها. إن كانت النساء دميمات فإنهن يزهون بحبّ يجعلهن جميلات؛ أمّا الشابات الظريفات فإنهن يأملن بإغراء واسع على قدر إغراءاتهن؛ وأما الفاضلات الورعات، فتنتابهن عاطفة أرضية سامية ليجدن ما لا أعلم من غفران يتناسب مع كبر التضحيات التي يبذلنها لعشيقهن وللظفر في ذلك الصراع الصعب؛ وكل ما فيه شركٌ، لذلك ما من درس يصل في قوة تعاليمه إلى مجابهة تلك الإغراءات الشديدة. والانعزال الذي كان يفرض على المرأة سابقًا في اليونان والشرق والذي غدا موضة في إنكلترة هو الحامي الوحيد للأخلاق المنزلية. ولكن في ظلّ هذا النظام فإن مباهج العالم تزول: فلا المجتمع، ولا التهذيب، ولا أناقة الطبائع ممكنة عندئذٍ، وعلى الأم أن تختار.

twitter @baghdad_library

وهكذا فبعد عدة أشهر من أول لقاء لهما، وجدت السيدة دي إغلمون حياتها مرتبطة بشكل وثيق مع حياة دي فاندنس؛ ودهشت دون كثير من الارتباك وببعض مسرّة تقريباً في مشاركته الأذواق والأفكار. هل تبنّت أفكار فاندنس، أو أن فاندنس إئتلف مع أقلّ نزواتها؟ لم نتحرّ عن ذلك. كانت تلك المرأة الرائعة التي سبق لها أن انساقت مع تيار الهوى تقول في نفسها بحسن نيّة يزيّفها الخوف: ـ اوه! كلا! سأبقى أمينة للشخص الذي مات من أجلي.

قال باسكال: الشك بالله يعني الإيمان به. كذلك المرأة لا تتمنّع إلاّ عندما تقع في الشِّباك. وفي اليوم الذي اعترفت فيه المركيزة بأنها محبوبة كانت تعوم بين آلاف العواطف المتضاربة؛ فتشاؤمات التجربة تنطق بلغتها. أتكون سعيدة؟ هل يمكن أن تجد السعادة خارج القوانين التي أقام عليها المجتمع، خطأً أو صواباً، أسسه الأخلاقية؟ حتى الآن لم تقدّم لها الحياة إلا المرارة، فهل يوجد حلٌ سعيد ممكن للروابط التي تضمُ كائنين منفصلين باللياقات الاجتماعية؟ ولكن هل تكلّف السعادة أيضاً ثمناً عالياً جداً؟ ثم هل يمكن لها أن تصادف أخيراً هذه السعادة المرغوبة بكل هذه الحرارة والتي كان من الطبيعي أن تسعى إليها؟! إن الفضول يشهد دائماً لمصلحة العُشّاق، وفي خِضمّ هذا النقاش السريّ الخفي حضر فاندنس، فتلاشى بوجوده شبح العقل المتافيزيقي؛ ولئن كانت هذه هي التحولات المتابعة التي تمرّ بها العاطفة، وإن كانت سريعة، لدى شاب وامرأة في الثلاثين من العمر، فستأتي لحظة تنصهر فيها الفروق وتنتهي الحجج إلى استدلال واحد، وتفكير أخير يختلط بالرغبة ويعزّزها. وكلّما كانت المقاومة طويلة، كلّما كان صوت الحبّ قوياً. هنا يتوقّف إذن هذا الدرس، أو بالأحرى هذه الدراسة المجراة على المسلوخ*، إن كان من المسموح الاستعارة من الرسم أحد تعابيره الأكثر روعة، لأن هذه القصة تشرح أخطار وآلية

* المسلوخ Ecorché: صورة أو تمثال مجسّم لإنسان يتخذ كنموذج يرسمه طلاب الفنون الجميلة (م. المترجم).

الحبّ أكثر مما تصوّره. ولكن منذ تلك اللحظة يضيف كلُّ يوم ألوانًا إلى هذا الهيكل العظمي، ويكسوه بمحاسن الشباب، وينضرُ الجسد فيه، ويحيي الحركات، ويعيد البريق والجمال وإغراءات العواطف وجواذب الحياة. وجد شارل السيّدة دي إغلمون مستغرقة في التفكير؛ وعندما قال لها بتلك اللهجة النفّاذة التي جعلها سحر القلب الرائع مقنعة: ما لك؟ احترست من الجواب. كان ذلك الطلب الناعم ينمّ عن تفاهم روحي تام، وبغريزة المرأة الرائعة أدركت المركيزة أن الشكاوي أو التعبير عن الشقاء الحميم سيُعَدُّ بطريقة ما نوعًا من المراودة، وإن كانت سابقًا، كلٌّ من كلماتها لها مدلولها المحدّد لدى كلّ منهما، ففي أيّة لجّة يمكن أن تضع قدميها؟ وأدركت بنظرة واضحة جليّة ما يجول في خاطرها فصمتت وقلّدها فاندنس في صمتها.

قالت أخيرًا وهي مذعورة من المرامي العالية للحظة تتمكن فيها لغة الأعين من أن تعوّض تمامًا من عجز الكلام: إنني متألّمة.

أجاب شارل بصوت ودود لكنه متأثر بعنف: سيدتي، للجسد والروح قدرة، بالسعادة تغدين شابة نضرة. لماذا ترفضين أن تطلبي من الحبّ ما كان قد حرمك منه؟ أنت تعتقدين أن الحياة انتهت في اللحظة التي يجب أن تبدأ بالنسبة لك. ثقي بعناية صديق. كم هو عذب أن يكون الإنسان محبوبًا!

قالت: إنني عجوز الآن، ومامن عذر لي إذن إن لم استمرّ في الألم كما في الماضي. أتقول إن عليّ أن أحب؟ إيه! لست ملزمة، ولا أستطيع؛ فما عداك، أنت الذي تسكب صداقتك بعض الحلاوة في حياتي، لا يعجبني أحد، ولا يعرف أحد أن يمحو ذكرياتي، إنني أرضى بالصديق، وأهرب من العشيق. ثم أمِنَ الشهامة أن أقدّم قلبًا ذابلاً لمن يعطيني قلبًا شابًا، وأستقبل أوهامًا لا أستطيع المشاركة فيها، وأسبّب سعادة لا أؤمن بها أبدًا أو أخشى أن أفقدها؟ قد أجيب بأنانية ردًّا على تضحية الحبيب، وبحساب مني على عاطفة منه، وذاكرتي تجرح حيوية مسرّاته. كلاّ. إن الحبّ الأول لا يمكن استبداله، كما ترى. أخيرًا أيّ رجل يقبل قلبًا بهذا الثمن؟.

twitter @baghdad_library

هذه الكلمات المنطبعة بغنج رهيب كانت آخر جهود التعقّل ـ إيه! إن ثبطت عزيمته فسأبقى وحيدة وأمينة. وردت تلك الفكرة على قلب تلك المرأة، فكانت بالنسبة لها كما غصن السوحر الضعيف جداً يمسك به غريق قبل أن يجرفه التيّار. وبسماع هذا القرار أفلتت من فاندنس ارتعاشة لا إرادية، كانت على قلب المركيزة أشدّ قوّة من جميع مبادراتها السابقة. ما هو أكثر تأثيراً على النساء هو أن يصادفن فينا أحاسيس رقيقة وعواطف مرهفة بقدر مالديهن منها، ذلك أن الرقة والإحساس بالنسبة لهن قرائن الصدق. وحركة شارل تكشف حباً حقيقياً. والسيدة دي إغلمون تعرف قوّة عاطفة فاندنس مقارنة بقوة ألمها. قال الشاب ببرود: ربّما كنت على حق، فالحب الجديد، همٌّ جديد. ثم غيّر موضوع الحديث، وتطرّق إلى مواضيع مختلفة، إنّما بدا عليه بشكل ظاهر التأثّر، ونظر إلى السيدة دي إغلمون بانتباه مركّز، وكأنه ينظر إليها لآخر مرّة. وأخيراً تركها وهو يقول لها بانفعال:

- وداعاً يا سيدتي.

قالت بذلك الدلع الماكر الذي تعرف سرّه نساء النخبة فقط: إلى اللقاء. لكنه لم يجب وخرج.

بعد أن خلا مكان شارل، وتكلّمت كرسيه الفارغة نيابة عنه؛ أحست بألف أسف، ووجدت أخطاءها كثيرة. فالهوى يجري تقدّمًا هائلاً في اللحظة التي ظنّت فيها أنّها تصرّفت بقليل من الكرم أو أنها جرحت روحًا نبيلة. لايجب أبداً الاحتراس من العواطف السيّئة في الحبّ فهي نافعة جداً، والنساء لا يرزحن إلا تحت وطأة الفضيلة، والقول المأثور: الجحيم مرصوف بالنوايا الطيّبة ليس مفارقة واعظ. انقطع فاندنس عن زيارة المركيزة عدّة أيام، وكانت في كل أمسية، في الموعد المعتاد تنتظره بفارغ الصبر المغلّف بتبكيت الضمير. والكتابة له اعتراف؛ عدا عن أنّ غريزتها تحدّثها بأنه سيعود. وفي اليوم السادس أعلن لها الخادم وصوله، فتلقت سماع اسمه بسرور لامثيل له من قبل. وذُعرت لفرحها.

قالت له: عاقبتني جيّدًا.

نظر إليها فاندنس كالأبله وردّد: عاقبتك على ماذا؟

فهم شارل جيّدًا ماتعنيه المركيزة، لكنه أراد الانتقام للآلام التي عاناها، في لحظة اشتبهت فيها بألامه.

سألته مبتسمة: لماذا لم تحضر لرؤيتي؟

قال متجنبًا الجواب المباشر: ألم يأت أحد لزيارتك؟

- جاء السيد دي رونكرول، والسيّد دي مارسي، ودي اسغرينيون؛ زارني الأول البارحة، والآخر هذا الصباح وبقي لمدة ساعتين. وقد رأيت على ما أظن السيّدة فيرمياني، وأختك السيدة دي ليستومير.

عذاب آخر! وألم لايفهمه أولئك الذين لايعانون الحب بتلك الاستبدادية الشرسة المكتسحة، وأقل آثارها غيرة رهيبة، ورغبة مستمرة في إبعاد المحبوب عن كل تأثير غريب عن الحبّ.

قال فاندنس في نفسه: ماذا! لقد استقبلت ورأت أشخاصًا مرحين، وتحدثت معهم بينما بقيت وحيدًا، تعيسًا.

أخفى حزنه وكتم حبّه في أعماق قلبه كنَعْش ملقى في البحر، وطغت عليه أفكار من تلك التي لايعبر عنها، ولها سرعة تلك الحموض التي تقتل بتبخرها غير أن جبينه اكفهر كسماء غطّتها السحب، واستجابت السيدة دي إغلمون لغريزة المرأة، فشاركته ذلك الحزن دون أن تفهمه، فهي لم تكن تضمر الإساءة، ولاحظ فاندنس ذلك، فراح يتحدّث عن وضعه وغيرته وكأنها إحدى هذه الفرضيات التي يحلو للعشاق مناقشتها. وأدركت المركيزة كل شيء، وتأثرت إلى درجة لم تستطع فيها أن تحبس دموعها؛ ومنذ تلك اللحظة حلّقا في سموات الحبّ. أليست السماء وجهنم قصيدتين كبيرتين تصوغان نقطتين وحيدتين يدور حولهما وجودنا: السرور أو الألم. ألم تكن السماء، وستكون دائمًا، صورة لانهاية عواطفنا التي لن تُصوَّر إلا في تفاصيلها لأن السعادة واحدة؛ ألا تمثّل جهنم العذابات اللانهائية لآلامنا التي يمكن أن تصاغ قصيدة لأنّها متباينة كلّها؟

twitter @baghdad_library

ذات مساء كان العاشقان وحدهما، جالسين أحدهما إلى جانب الآخر في صمت، منشغلين في تأمّل أحد أجمل أطوار القبّة الزرقاء، إحدى هذه السموات النقيّة التي تلقي عليها أواخر إشعاعات الشمس ألوانا ذهبيّة وأرجوانية ضعيفة. في تلك الأونة من النهار، يبدو أن تدرجات النور البطيئة توقظ العواطف الحلوة، فمشاعرنا تهتزُّ باسترخاء، ونستمتع بإثارات عنف لايُدرك كنهه وسط الهدوء؛ فالطبيعة تدعونا، وهي تظهر لنا السعادة بصُورٍ مبهمة، للتمتّع بها ما دامت قريبة منا، أو أننا سنأسف على مسافات عند هروبها.

في تلك اللحظات الخصبة بالمفاتن، وتحت قبّة ذلك الأُلق الذي تتّحد تناسقاته المرهفة مع الإغراءات الحميمية، تصعب مقاومة أمنيات القلب البالغة السحر! وعند ذلك يكلّ الحزن، ويُسكِرُ الفرح، ويُرهق الألم، وتشجّع أبّهات المساء على الاعترافات وهي إشارة لها، ويغدو الصمت أكثر خطراً من الكلام بثّه في الأعين كلّ قدرة لانهاية السموات التي يعكسها. فإذا دار الحديث، تمتلك أقلّ كلمة قدرة لاتقاوم. أليس في الصوت نورٌ عندئذٍ، وفي النظرة لونُ الأرجوان؟ ألا تبدو السماء وكأنها حلّت بنا، أو أننا نبدو وكأننا في السماء؟ غير أن فاندنس وجولييت، إذ أنّها أحبّت منذ بضعة أيام أن تُنادى بهذا الاسم دون تكلّف من قبل من راق لها أن تسميه شارل، كانا يتكلمان لكنّ الموضوع الأولي في حديثهما بعيد جداً عنهما، وهما لايدركان معنى عباراتهما إنّما يستمتعان بالأفكار الخفيّة التي تغطيها، وكانت يد المركيزة في يد فاندنس وهي مطمئنة إلى أنها لا تمنحه بذلك أيّة حظوة.

انحنى الاثنان معًا ليتأمّلا أحد هذه المشاهد الجليلة، والثلج والجليد والظلال الرماديّة تلوّن سفوح الجبال الخيالية؛ إحدى هذه اللوحات الممتلئة بالتعارضات بين تموّجات أنوار الغسق الحمراء ودكنة السحب السوداء التي تزين السموات كقصيدة عابرة لايمكن تقليدها؛ أقماط رائعة تزنّر الشمس، أو كفن جميل تحتضر فيه أشعتها. في تلك اللحظة لامست خصلات من شعر جولييت خدّي دي فاندنس؛ وأحسّت بهذا التماس الخفيف، فارتعشت بعنف، وكانت ارتعاشة دي فاندنس أعنف، لأنّ

كلاً منهما قد وصل بالتدريج إلى إحدى تلك الأزمات التي لايمكن تعليلها حيث يضفي الهدوء على الحواس إدراكًا دقيقًا جداً حتى أنّ أضعف الصدمات تدفع إلى انهمار الدموع وتفجّر الحزن، إن كان القلب غارقًا في هذه الكآبات. أو أنّها تمنحه مسرّات لاتوصَف إن كان يسرح في دُوار الحبّ. وضغطت جولييت بشكل لا إرادي تقريبًا على يد صديقها. ومنح هذا الضغط الموثوق الشجاعة لخجل العاشق. فانصهرت مسرّات تلك اللحظة وآمال المستقبل في انفعال هو أول تودّد تجلّى في قبلة طاهرة متواضعة استقبلتها السيّدة دي إغلمون على وجنتها. لكن كلّما كان الإنعام ضعيفًا بدا أكثر قوّة وأشدُّ خطراً، ولتعاستها لم يكن فيه تظاهراً ولا نفاقًا، إنّما هو تفاهم روحين جميلتين، تفصل بينهما كل الشرائع، بينما توحدهما كل إغواءات الطبيعة.

في تلك اللحظة دخل الجنرال دي إغلمون، وقال: تغيّرت الوزارة، وعمّك هو أحد أعضاء التشكيلة الجديدة، وهكذا فحظّك كبير في أن تسمى سفيراً يا فاندنس.

تبادل شارل وجولي النظرات وقد توردّت وجنتاهما، وكان خجلها المشترك رابطة أخرى تضمهما. طرأت لكليهما الفكرة ذاتها وتبكيت الضمير ذاته؛ رابطة رهيبة أقرب بقوتها إلى مشاركة قاطعي طريق في قتل رجل، منها إلى موقف عاشقين تبادلا قبلة. لكن كان على فاندنس إجابة المركيز، فقال:

لكنني لا أريد مغادرة باريس.

عقّب الجنرال مبديًا حذق الرجل الذي يكتشف سراً: إنّك لاتريد الابتعاد عن عمك ليسميك وريثًا لمنصب العين الذي يشغله.

لجأت المركيزة إلى غرفتها وهي تقول في نفسها تلك الكلمة الرهيبة عن زوجها: إنه أيضًا أحمق كبير.

twitter @baghdad_library

IV

إصبع الله

ما بين حاجز إيطالية وحاجز الصحة على الجادة الداخلية، المؤدّية إلى حديقة النباتات في باريس، يوجد منظر جدير بأن يسحر الفنان وحتى المسافر غير المبالي بمُتع المشاهدة، فإذا وصلتم إلى إحدى الروابي الصغيرة التي تبدأ عندها الجادة، المظللة بالأشجار الكبيرة المورقة، بالالتفاف على جمال أحد الممرات الحراجية الخضراء والصامتة، تصادفون أمامكم، على الحواف الممتدة عند أقدامكم وادياً عميقًا تنتشر فيه مصانع نصف قروية، وتتناثر فيه الخضرة، وتسقيه مياه البيفر[1] أو الغوبلنز العكرة، وعلى السفح المقابل بضعة آلاف من السطوح المتراصّة كرؤوس جماهير متزاحمة، وهي تكشف عن بؤس ضاحية سان ـ مارسو، وقبّة البانتيون الرائعة، مع قبّة ڤال ـ دي ـ غراس القاتمة الكئيبة تهيمنان بزهو على مدينة كاملة بشكل مدرّج ترسم درجاته شوارع متعرّجة بأشكال غريبة، ومن هناك تبدو نسب هاتين الأبدتين عملاقة؛ تسود في ذات الوقت على المساكن الهزيلة وعلى أشجار الحور في الوادي الصغير؛ وإلى اليسار، المرصد، الذي يخترق نوافذه، وأروقته النور محدثًا بهرجات لاتُفسَّر؛ وهو يبدو كطيف أسود معروق. ثم على البُعد مصباح الإنڤاليد الأنيق يتوهج بين كتل أبنية اللوكسمبورغ المزرقّة وأبراج سان سولبيس الرمادية؛ مناظر تختلط فيها الخطوط المعمارية، مع خضرة الغصون، وهي تخضع لتزوات سماء يتغير لونها، أو نورها، أو مظهرها دون انقطاع، وعلى مسافة منك، تغطي الأبنية

(١) البيفر Bièvre: ينبع نهر بيفر من فرساي قرب سان سير، ويصب في السين بواسطة ذراعين ما بين محطة أوستر لبتز وقصر بوربون، وهو بطول نحو ٤٠ كم.

المساحات، ومن حولك تتلوّى صفوف الأشجار المتموّجة وشعاب الدروب الريفيّة. وعلى الجهة اليمنى، ترون في فرضة عريضة بساط قناة سان مارتن الأبيض الطويل، وقد أحاطت بها أحجار ضاربة إلى الحمرة، وتزينها أشجار الزيزفون، وتحف بها منشآت رومانية حقيقية تشكّل عنابر الخصب، وفي اللوحة الخلفية هضاب بلفيل الغارقة في الضباب، والحافلة بالمنازل والطواحين، وهي تمزج تضاريسها مع تموّجات السحب. غير أن مدينة توجد غير مرئية بين صفوف السطوح المحيطة بالوادي، وهذا الأفق المبهم كذكرى طفولة. مدينة واسعة تائهة بين قمم هضاب «الرحمة» وأعلى مقبرة «الشرق»، بين العذاب والموت، وهي تسمع هينمة صماء أشبه بهدير المحيط خلف جُرف جبلي. كأنه يقول: إنّي هنا. وعندما تسكب الشمس دفقات أشعتها على هذا الوجه من باريس، وتنقي الخطوط فيها وتميّعها، وتضيء الواجهات الزجاجية، وتبهج الآجر، وتوهّج الصلبان المذهّبة، وتبيّض الجدران، وتحوّل الجو إلى غلالة شفافة، وعندما تخلق تباينات ثريّة مع الظلال الخيالية وتتحول السماء إلى لازورد، وترتعش الأرض، وتتكلّم الأجراس، عندها ستتأملون بإعجاب إحدى هذه الروائع المؤثّرة التي لا تنساها المخيّلة أبدًا، بل ستهيمون بها بورع كأنها إحدى أعاجيب نابولي أو استنبول أو فلوريدا*، فهذا التوافق لاينقصه أي انسجام، فهنا يتمتم ضجيج العالم، وسلام العزلة الشاعري، وصوت ملايين الكائنات وترنيمة الله، هنا ترقد عاصمة بين أشجار سرو مقبرة الأب لاشيز.

في صباح يوم ربيعي، وفي اللحظة التي تلمّع فيها الشمس كل مفاتن هذا المنظر التي كنت أتأمّلها بإعجاب وأنا مستند إلى جذع شجرة دردار ضخمة ترسل مع الريح أزهارها الصفراء، ومع مظهر هذه اللوحات الثرية والسامية، كنت أفكر بمرارة بازدرائنا لبلادنا في الوقت الحاضر حتى في الكتب التي ندرسها. ولعنت هؤلاء

* يعبر بلزاك عن إعجابه بشبه جزيرة فلوريدا في الولايات المتحدة الأمريكية ويعدّها بمتجمعاتها البحرية «ميامي وبالم بيتش» مدينة واحدة.

twitter @baghdad_library

الأغنياء المساكين الذين اشمأزّوا من وطننا الفرنسي الجميل فذهبوا يشترون بسعر ذهبي حتّى الاستهانة بوطنهم وهم يزورون على عجل، ويفحصون عبر المناظير مواقع البلاد الإيطالية التي غدت مبتذلة. وتأمّلت بهيام باريس الحديثة، وسرحت في حلم، وسمعت فجأة ضجّة قبلة عكّرت وحدتي وأطارت أفكاري الفلسفية. وفي الممرّ الجانبي الذي يتوّج السفح الشديد الميل الذي ترتعش المياه في أسفله، اكتشفت وأنا أنظر إلى ماوراء جسر غوبلنز امرأة بدت لي أنها ما تزال شابة وهي في هندام بسيط غاية في الأناقة وقد عكَس مظهرها الناعم بهجتها السعيدة بجمال الطبيعة المحيطة بها، وشاب وسيم يجلس على الأرض أجمل ولد يمكن أن تراه العين، حتى أنني لم أعرف إن كانت القبلة قد رنّت على وجنتي الأم أم على وجنتي الولد. كانت فكرة واحدة ناعمة وحيّة تبرق في عيني الشابين، وحركاتهما وابتسامتهما، فيشابكان ذراعيهما بحركة سريعة مرحة، يتقاربان فيها بتفاهم رائع، وهما منشغلان عمّا حولهما حتى أنّهما لم يلاحظا وجودي، بينما ألقى عليّ ولدٌ آخر، حرد ومتكدّر، كان يدير ظهره لهما، نظرات مشوبة بتعبير مؤثّر. كان قد ترك أخاه يركض لوحده، مرّة خلف أمّه والشاب، ومرّة أمامهما. وهذا الولد بذات لباس الآخر وجاذبيته، إنّما أكثر نعومة في المظهر، وقد بقي صامتًا، ساكنًا، في موقف حيّة متخدرة. وتبيّنته فتاة صغيرة؛ وآلية لا أدري كنهها ظهرت في نزهة المرأة الجميلة وصاحبها، فقد اكتفيا، ربّما لمجرّد التسلية، أن يتجولا ذهابًا وإيابًا عبر المسافة القصيرة القائمة بين الجسر الصغير وعربة متوقفة في منعطف الجادّة، وكانا يبدأان مشوارهما باستمرار في وقفة، ينظر فيها كل منهما إلى الآخر، ويضحكان مستسلمين لنزوات محادثة تتجدّد حرارتها مرة بعد مرّة هوجاء أو رصينة بعد فتور.

كنت محتجبًا خلف جذع شجرة الدردار الضخم، وأنا أرقب بإعجاب هذا المشهد الطريف، وكنت سأحترم دون شك خفاياه، لو لم أفاجأ على وجه الفتاة الصغيرة الحالمة، الصامتة بآثار فكرة أكثر عمقًا مما يمكن أن يَعيه مَنْ في عمرها. فعندما كانت أمّها والشاب يرجعان بعد وصولهما إلى قربها، غالبًا ما كانت تميل برأسها بشكل مراوغ، وتلقي عليهما وعلى أخيها نظرة خفيّة غريبة؛ من الصعب التكهّن بما

تتضمنه من حيلة ثاقبة، وسذاجة ماكرة وانتباه فظّ ترتسم على قسمات هذا الوجه الطفولي ذي العينين التعبتين قليلاً؛ وعندما كانت المرأة الجميلة أو رفيقها يداعبان خصلات شعر الطفل الشقراء، ويضغطان بلطف على عنقه النضر بياقته الصغيرة البيضاء، في اللحظة التي يحاول فيها بمرح الطفولة السير معهما؛ كان يبدو، بكل يقين انفعال الرجل على المظهر الهزيل لتلك الفتاة الصغيرة الغريبة الأطوار. إنّها تتألم أو تفكر. والحال من يتنبأ بمزيد من التأكيد بالموت لدى هذه المخلوقات وهي في عمر الورود؟ أهو الألم الكامن في الجسم أم الفكر العجول يفترس أرواحها وهي في طور النمو؟ قد تعرف الأم ذلك. أمّا أنا فلا أعرف شيئًا أكثر رهبة من تفكير عجوز على جبين طفل. إن التجديف على شفتي عذراء أقل فظاظة من ذلك. وهكذا كان الموقف شبه الأبله لتلك الفتاة المفكرة، وندرة حركاتها، كل شيء يثير اهتمامي. ورحت أتأملها بفضول. وبنزوة طبيعية لدى الملاحظين، كنت أقارنها بأخيها، وأنا أحاول الكشف عن أوجه الشبه والخلاف بينهما. كانت الأولى ذات شعر كستنائي، وعينين سوداوين وقدرة مبكّرة وهي تشكّل تبيانًا ثريًا مع شعر أخيها الأشقر وعينيه الخضراوين بلون مياه البحر، وضعف الحداثة الحلو. كانت الكبرى بعمر سبع أو ثمان سنوات تقريبًا أما الصبي ففي السادسة تقريبًا. وكانا يرتديان ثيابًا متشابهة، غير أنني بالنظر إليها بمزيد من الانتباه، لاحظت على ياقتي قميصيهما فرقًا تافهًا تقريبًا كشف لي فيما بعد حكاية كاملة عن الماضي، ومأساة عن المستقبل، وهذا شيء قليل، فعلى ياقة الفتاة السمراء كفاف يزنّرها، بينما تظهرُ تطريزات جميلة تزين ياقة أخيها. وتكشف عن سرّ قلب، وعن تفضيل ضمني يقرأه الأولاد في نفوس أمهاتهم، وكأن روح الله حلّت فيهم. كان الصبي لامباليًا ومرحًا، وهو يشبه بشقرته طفلة صغيرة لنضارة بشرته البيضاء، وحركاته الجذابة، ومظهره الناعم؛ بينما أخته البكر رغم قوتها، وجمال تقاطيعها، وبريق لونها أشبه بصبيّ مريض، فعيناها اليقظتان محرومتان من الألق الرطب الذي يمنح مزيدًا من الجاذبيّة لنظرات الأطفال وتبدوان كأعين المتملقين جافتين بنار داخلية. أخيرًا يخالط بياض بشرتها مسحة

twitter @baghdad_library

كامدة مائلة للون اخضرار زيتوني، وهي دلالة عزيمة قويّة؛ وقد جاء أخوها الصغير مرتين يعرض عليها، برقّة مؤثّرة، ونظرة ناعمة، وهيئة معبّرة تسحر شارله[1] لورأها، بوق الصيد الذي كان ينفخ فيه أحيانًا، لكنها في كل مرّة لم تكن تجيب إلا بنظرة شرسة على عبارته التي يطلقها بصوت متودّد:

- خذي يا هيلين، ألا تريدين هذا البوق؟ وتبدو الفتاة الصغيرة قاتمة ورهيبة تحت مظهرها اللامبالي ظاهريًا، وترتعش بل وتحمرُّ بشدة عندما يقترب أخوها منها؛ ويبدو أن الصغير لم يكن يلاحظ مزاج أخته المتكدر، وانتهت لامبالاته المختلطة بالسعي لتحقيق رغبته إلى إثارة طبع الفتاة الحقيقي واهتمامها بمعرفة الناس المتجلي على وجهها الصغير المكفهر بأفكارها القاتمة.

صاح الصبي الصغير الذي انتهز اللحظة التي وقفت فيها أمه مع الشاب صامتين على جسر غوبلنز ليضجّ بشكواه: ماما، إن هيلين لاترغب في اللعب.

- دعها يا شارل، أنت تعلم أنّها دائمة التذمّر.

هذه الكلمات التي رمتها الأم دون تبصّر، واستدارت بعدها فجأة مع الشاب، اقتلعت الدموع من عيني هيلين؛ فحدّقت بهما صامتة، ثم ألقت على أخيها إحدى هذه النظرات العميقة التي بدت لي عصيّة على الفهم وتحوّلت بنظرة شريرة إلى الحافة التي وقفت في أعلاها ثم إلى نهر البيڤر والجسر وإليّ وإلى ما يحيط بها.

خشيت أن تلحظ الأم ورفيقها اللاهيين وجودي وقد عكّرت دون شك حديثهما فانسحبت بهدوء لأختبئ خلف سياج من جنيبات البيلسان تحجبني أغصانها الخضراء كليًا عن الأنظار كلّها. وجلست بهدوء في أعلى المنحدر أنظر بصمت مرّة بعد أخرى إما إلى بهاء الموقع وتغيّراته، وإما إلى الفتاة الصغيرة الشرسة التي أمكنني الاستمرار في مراقبتها عبر فجوات السياج بعد أن وضعت رأسي على مستوى الجادة

(١) شارله، نيكولا توسين (١٧٩٢ - ١٨٤٥) رسّام وطبّاع على الحجر اشتهر برسوم رجال الحرس الامبراطوري والأطفال، ويعد من أشهر الفنانين الشعبيين كما ذكر في مقال بُسب إلى بلزاك ظهر في مجلة لامور في ١٨٣٠.

تقريباً. وبدت هيلين قلقة بعد أن غبت عن ناظريها، وراحت عيناها السوداوان تفتشان عني في عمق الممرّ، وخلف الأشجار بفضول لايمكن تفسيره. ماذا أعني إذن بالنسبة لها؟ وفي تلك اللحظة انطلقت قهقهات شارل ترن في صمت المكان كزقزقة عصفور؛ فالشاب الوسيم الأشقر مثله كان يرقصه بين ذراعيه، ويقبله، وهو يناغيه ويضحكه بهذه الكلمات الصغيرة بلا نَسَق، والمحرّفة عن معناها الحقيقي التي جرت العادة على توجيهها بتودّد إلى الأطفال؛ وكانت الأم تبتسم وهي تشاهد هذه الألعاب، وتنطق بين حين وآخر، بصوت منخفض دون شك، بكلمات خارجة من القلب، لأن رفيقها كان يتوقّف وينظر إليها بعين زرقاء تشع دفئاً وهياماً، وتختلط أصواتها مع هتاف الصبي فتثير ما لا أدري من حبور؛ كان الثلاثة في منتهى الظرف، وعمّ هذا المشهد العذب وسط هذه الطبيعة الرائعة بحلاوة لاتُصدّق. امرأة جميلة، بيضاء ضاحكة، وطفل محبوب، ورجل يتألّق شباباً، وسماء صافية؛ أخيراً توافقت كل تناسقات الطبيعة لتبهج الروح، وفتنت بما حولي وتملكني الابتسام كأن سعادة هؤلاء الناس سعادةٌ لي. وسمع الشاب الوسيم رنات ساعة تعلن التاسعة، فقبل رفيقته بحنان، وبدت عليه الرزانة الأقرب إلى الحزن، وعاد نحو عربته التي تقدّمت ببطء يقودها خادم عجوز. واختلطت مناغاة الطفل المحبوب مع القبلات التي غمره بها الشاب، وبعد أن صعد هذا إلى العربة، واستمعت المرأة الساكنة إلى ضجّة عجلاتها وهي تجري وتتابع أثرها من تصاعد الغبار في ممر الجادة الأخضر، هرع شارل إلى أخته القريبة من الجسر، وسمعتُه يقول لها بصوت فضيّ الرنّة: لماذا لم تأت لتودّعي صديقي الطيب؟.

عندما رأت هيلين أخاها على حافة المنحدر، ألقت عليه أرهب نظرة أبرقت في عيني طفلة ودفعته بحركة غاضبة، وانزلق شارل على السفح الوعر واصطدم ببعض الجذور التي ألقته بعنف على حجارة الجدار الحادة فتحطّم جبينه وهوى والدماء تتفجر من رأسه في مياه النهر الموحلة. وتباعدت الموجة في ألف دفقة عكرة تناثرت تحت الرأس الأشقر الجميل، وسمعت صرخات الصغير المسكين الحادّة، ولكن سرعان ما غابت نبراتها مختنقة في الوحل حيث اختفى محدثاً رجّة ثقيلة كرجّة حجر

twitter @baghdad_library

يغرق. لم يكن البرق أكثر سرعة من تلك السقطة. ونَهضتْ فجأة وأسرَعتُ بالنزول عبر أحد الشعاب، وهيلين المذعورة تطلق صرخات ثاقبة: ـ ماما! ماما! وكانت الأم هناك، قريبة مني، فقد هرعت كعصفور طائر، لكن لم تستطع عينا الأم ولا عيناي أن تتعرف على المكان الذي غابت فيه جثة الطفل، فالماء الأسود يغلي ضمن مساحة واسعة. وسرير البيفر يحوي في ذلك المكان عشرة أقدام من الوحل. ويفترض أن الطفل قد مات مختنقًا فيها، ومن المستحيل إنقاذه. ففي تلك الساعة، واليوم هو الأحد، كان كل شيء يركن إلى الراحة، فليس في النهر زوارق أو صيّادون، ولم أر قصبة يمكن فيها سبر عمق الماء النتن، ولا إنسانًا على البعد. فلماذا إذن أتحدّث عن هذا الحادث المشؤوم أو أقول سرَّ هذه الكارثة؟ ربّما انتقمت هيلين لأبيها، فغيرتها، على الأرجح، سيف الله. غير أنني كنت أرتعش وأنا أنظر إلى الأم، فأي استجواب رهيب ستتعرّض له من زوجها، ومن ديّانها الأزلي؟ وهي تجرُّ معها شاهدًا نزيهًا لايكذب. فجبين الطفولة شفّاف، ولونها شفيف، والكذب عندها كالنور يلوّن بالحمرة حتى النظرة. ولم تكن المرأة المسكينة تفكر بما ينتظرها من هوان في المنزل. بل بقيت تنظر إلى نهر البيفر.

مثل هذا الحادث يجب أن يحدث تأثيرات مروّعة في حياة امرأة، وهوَذا أحد الأصداء الأكثر رهبة التي كانت من وقت إلى آخر تعكرّ غراميات جولييت.

بعد سنتين أو ثلاث سنوات، وذات مساء، بعد العشاء، وفي منزل المركيز دي فاندنس، وكان آنذاك في حداد على وفاة والده، ولديه ميراث يجب تصفيته؛ وُجِدَ كاتب عدل، غير ذلك القصير القامة في ستيرن*، بل هو كاتب عدل ضخم وبدين من باريس، أحد هؤلاء الرجال الجديرين بالتقدير الذين يرتكبون الحماقات على المقاس، ويدوسون بثقل رجلهم الغليظة على الجرح المجهول، ويسألون صاحبه عن سبب شكواه، وإذا علموا مصادفة سبب حماقتهم القاتلة قالوا: ـ لعمري، لم أكن

* ستيرن Sterne: لورنس (١٧١٣ ـ ١٧٦٨) كاتب ايرلندي فكاهي رقيق اشتهر بمؤلفه «حياة تريستان شاندي وآرائه (١٧٥٩ ـ ١٧٦٧) استشهد به بلزاك مرات عديدة.

أعلم شيئًا! . أخيرًا هو كاتب عدل أخرق بحق. لا يرى في الحياة إلا العقود. وكان قرب الدبلوماسي السيّدة دي إغلمون، فقد انسحب الجنرال بلطف، بعد العشاء ليصحب ولديه إلى أحد المسارح على الجادة، الامبيغو ـ كوميك أو الغيتة، وبالرغم من أن الميلو دراما تهيّج العواطف فإنّها تُعَدُّ في متناول الأطفال في باريس ودون خطر، لأن البراءة فيها تنتصر دومًا. وذهب الأب دون انتظار التحلية لأنّ ابنته وابنه ألحا عليه للذهاب مبكرين ليصلوا قبل رفع الستارة.

لم يستطع كاتب العدل الثابت الجنان أن يتساءل لماذا ترسل السيدة دي إغلمون ولديها وزوجها إلى المسرح دون أن تصحبهم، وبقي منذ العشاء كأنّه مسمّر على كرسيّه، وقام نقاش خلال التحلية أطال مدة تناولها، وأخر الخدم عن تقديم القهوة. واستهلكت هذه التوافه العارضة وقتًا ثمينًا دون شك، واقتلعت حركات تضجّر من المرأة الجميلة حتى ليمكن مقارنتها بحصان أصيل يضرب الأرض بحوافره قبل بدء السباق. لكن كاتب العدل الذي لايفهم شيئًا عن الخيول أو النساء، وجد بكل سذاجة في المركيزة امرأة ملؤها الحيوية والمرح، وراقت له صحبة سيدة على الموضة، ورجل سياسة شهير، فأبدى براعته في الفكاهة، وعَدَّ ابتسامة المركيزة الباهتة استحسانًا له، واسترسل في الحديث حتى أفقدها الصبر، كما أن رب المنزل، بالتوافق مع رفيقته سمح لنفسه أكثر من مرة بالتزام الصمت في مناسبة توقع فيها كاتب العدل جوانب ثناء وتقريظ، لكن خلال هذه اللحظات من الصمت كان هذا الرجل الشيطان ينظر إلى نار المدفأة مفتشًا عن طرائف أخرى. ولجأ المركيز إلى ساعته. أخيرًا اعتمرت المرأة الجميلة قبعتها استعدادًا للخروج، ولم تخرج. لكن الكاتب العدل لم ير ولم يلحظ شيئًا، فهو مزهو بنفسه، واثق من أنه أثار اهتمام المركيزة فتوقفت عن المغادرة، وقال في نفسه: «من المؤكد أنني سأحظى بهذه المرأة زبونة لي».

وقفت المركيزة تضع قفّازيها وتلوي أصابعها وهي تنظر على التناوب إلى المركيز دي فاندنس الذي يشاركها في تضجرها، وإلى الكاتب العدل الذي يسمّر كلاً

twitter @baghdad_library

منهما بإشراقات فكره، ومع كل وقفة يجريها هذا الرجل المحترم، كان الثنائي الجميل يتنفس الصعداء، ويعبّر بإشارة: أخيراً سيرحل! لكن عبثًا كان كابوسًا معنويًا انتهى إلى إثارة هذين الشخصين المشبوبي العاطفة اللذين يتلاعب بهما الكاتب العدل كشعبان يترصد عصفورين، مما يضطرهما إلى بعض تصرفات خشنة؛ وفي خضم رواية عن الوسائل البشعة التي لجأ إليها دوتيه في جمع ثروته، وهو رجل الأعمال الشهير آنذاك. وخلال استرسال الكاتب العدل النبيه في تفاصيل تدابيره المعيبة؛ سمع الدبلوماسي الساعة تدقّ التاسعة، ورأى أن كاتبه العدل رجل بليد حقًا، ويجب صرفه صراحة، ووجّه إليه إشارة حازمة بالتوقف. قال الكاتب العدل وهو يتناول الملقط ويقدّمه لزبونه: أتريد الملقط، ياسيدي المركيز؟

- كلاّ، أيها السيّد، لكنني أريد أن أصرفك، فالسيدة المركيزة تريد اللحاق بولديها ولي الشرف في مرافقتها.

قال الكاتب العدل الذي كان يتكلم لوحده منذ أكثر من ساعة: الساعة الآن التاسعة، كم يمر الوقت سريعًا في صحبة الأشخاص اللطفاء.

وسعى إلى قبعته ثم ارتد ليتسمر ثانية أمام المدفأة وهو يحبس بصعوبة فواقًا، ويقول لزبونه دون أن يلاحظ النظرات الصاعقة التي ترميه بها المركيزة.

- لنلخص القضية، ياسيدي المركيز، فللأعمال الأفضلية. غدًا سنوجه تكليفًا للسيد أخيك نلزمه فيه بالبقاء في المنزل لمباشرة عملية الجرد، وبعدها، لعمري. . . .

فهم كاتب العدل نوايا زبونه خطأ حتى أنه تناول القضية بشكل يعاكس تمامًا التعليمات المعطاة له، وهذا الأمر العارض كان من الدقة حتى أن فاندنس اضطر مكرهًا إلى تصحيح أفكار الكاتب العدل الأخرق، مما استلزم مناقشة تطلبت بعض الوقت، قال بعدها الدبلوماسي نتيجة إشارة من المرأة الشابة:

- استمع، إنّك تسبب لي الصداع، عُد غدًا صباحًا عند الساعة التاسعة مع محاميّ.

- لكن لي الشرف ياسيدي المركيز أن ألفت نظرك إلى أننا غير متأكدين من الالتقاء بالسيد دي روش غدًا، وإذا لم يوجّه التكليف قبل الظهر تفوت المدة، و. . .

في تلك اللحظة دخلت عربة إلى فناء الدار، والتفتت المرأة المسكينة عند سماع ضجّتها لتخفي الدموع التي ترقرقت في عينيها. ودق المركيز الجرس ليقال للزائر إنّه غير موجود لكن الجنرال عاد من الغيته في وقت غير متوقّع، وتقدّم الخادم وهو يمسك بإحدى يديه ابنته المحمرّة العينين وباليد الأخرى ابنه الذي بدا غافلاً متكدراً.

قالت المرأة لزوجها: ماذا حدث لكم؟

- رد الجنرال وهو يتوجّه إلى غرفة جلوس مجاورة كان بابها مفتوحاً وأبصر فيها بعض الصحف: سأخبرك فيما بعد.

عيل صبر المركيزة فألقت نفسها بقنوط على أحد المقاعد، واعتقد الكاتب العدل أن من واجبه أن يتلاطف مع الأولاد، فتكلّف الابتسام وهو يخاطب الصبي:

حَسَنٌ يا صغيري، ماذا رأيت في المسرح؟

أجاب غوستاف متذمراً: **وادي السيل**[1].

قال الكاتب العدل: قسماً بشرفي، إن مؤلفي أيامنا أنصاف مجانين! وادي السيل لماذا لايقولون **سيل الوادي**؟ من الممكن وجود وادي دون سيل. وبالقول **سيل الوادي** فإنّهم أبرزوا شيئاً واضحاً، ومعيناً ومميّزاً ومفهوماً. لكن لندع هذا. كيف يمكن أن تصادف مأساة في سيل، وفي وادٍ؟ ستجيبونني بأن الجاذب الرئيس، حالياً، في هذا النوع من العروض يكمن في زخرفاتها وهذا العنوان يشير إلى ذلك تماماً. ثم أضاف وهو يجلس أمام الطفل: هل تسليت جيداً يا شريكي الصغير؟

في اللحظة التي كان الكاتب العدل يتساءل فيها عن المأساة التي يمكن أن تصادف في قاع سيل، التفتت ابنة المركيزة ببطء باكية، وكانت الأم مغتاظة بعنف فلم تلاحظ حركة ابنتها.

---

(١) وادي السيل أو النيم والقاتل: مسرحية لدوبني ميري مثّلت في العام ١٨١٦ في بورت سان مارتن.

twitter @baghdad_library

أجاب الولد: أوه! نعم يا سيدي، تسليت جيداً، يوجد في التمثيلية ولد صغير لطيف جداً، لكنه وحيد في العالم لأن أباه الحقيقي لم يستطع أن يظهر أبوته له، وهكذا فعندما وصل إلى أعلى الجسر فوق السيل، جاء رجل ضخم خبيث ذو لحية ويرتدي ثياباً سوداء كلّها وألقى به في الماء، وعندها بدأت هيلين تبكي وتنتحب، وصاح بنا جمهور القاعة فأسرع والدي وأخرجنا من المسرح.

بقي السيّد دي فاندنس والمركيزة مندهشين، كأن مصيبة لحقت بهما فمنعتهما من التفكير والحركة.

صاح الجنرال: غوستاف، اسكت، سبق أن منعتك من التحدّث عما تشاهد في عرض مسرحي، وقد نسيت الآن توصياتي.

قال الكاتب العدل: سامحه يا سيادة المركيز، كان خطئي أنني سألته وأنا أجهل خطورة الحَدَث....

قال الأب وهو ينظر إلى ابنه ببرود: كان يجب عليه ألا يردّ.

بدا سبب عودة الولدين المفاجئة مع والدهما واضحاً جداً للدبلوماسي والمركيزة. ونظرت الأم إلى ابنتها فوجدتها تبكي، فنهضت لتذهب إليها لكن وجهها انقبض بعنف، وظهرت عليه علامات قسوة لا يخفف منها شيء.

قالت: يكفي يا هيلين، اذهبي إلى غرفة الجلوس وجففي دموعك.

قال الكاتب العدل الذي أراد أن يهدئ غضب الأم وبكاء الابنة: ولكن ماذا فعلت هذه الصغيرة المسكينة؟ إنّها من الجمال حتى لتبدو أعقل مخلوقة في العالم، إنني متأكّد يا سيدتي أنها لا تسبّب لك إلا المسرات، أليس كذلك يا صغيرتي؟.

نظرت هيلين إلى أمّها وهي ترتعش، ومسحت دموعها، وحاولت أن تظهر بوجه هادئ وهربت إلى غرفة الجلوس.

استمر الكاتب العدل في كلامه: بالتأكيد يا سيدتي، إنك أم طيّبة جداً، توزعين الحب بالتساوي على ولديك، وفضيلتك الكبيرة أبعد عن ذلك التفريق

المحزن الذي تنكشف آثاره الضارة بشكل خاص، لنا نحن الكتّاب العدل. فالمجتمع يمرُّ بين أيدينا، وهكذا فنحن نرى الأهواء بصورتها الأكثر بشاعة، صورة المصلحة. فهنا أمٌّ تريد حرمان أولاد زوجها من الميراث لمصلحة الأولاد الذين تفضّلهم؛ بينما الزوج من جهته يريد أن يحتفظ بثروته للولد الذي يحظى بكره أمّه؛ وعندها تقوم المعارك، والمخاوف، والإجراءات، والسندات المضادة، والمبيعات الصّوريّة، والهبات الإيصائية، أخيراً فوضى يرثى لها، قسماً بشرفي، يُرثى لها! وهناك آباء يقضون حياتهم في حرمان أبنائهم من الميراث، بسرقة أملاك زوجاتهم... نعم سرقة، هي الكلمة. إننا نتحدّث عن مأساة، آه! أؤكد لك أننا لو نستطيع كشف سرّ بعض الهبات، لتمكّن مؤلفونا أن يصوغوا منها مسرحيات مأساوية بورجوزاية. أنا لاأعلم أيّة قدرة تستخدمها النساء لتحقق كلّ ما تريد. إذ بالرغم من الظواهر، ومن ضعفهن، فإنهن المنتصرات دائماً. آه! غريب أمرهن، لكنهن لايخدعنني، فأنا أدرك دائماً سبب تفضيلاتهن التي تُنعت بطريقة مهذبة في المجتمع بأنها غير قابلة للتحديد! لكن الأزواج لايتكهنون بها. هذه حقيقة يجب الاعتراف لهن بها. ستجيبينني على هذا، هناك ظُرفٌ و..... عادت هيلين مع أبيها من غرفة الجلوس إلى الصالة، وأصغت بانتباه إلى الكاتب العدل وبدا أنها تعي جيّداً ما يقول حتى أنها ألقت على أمّها نظرة خائفة وهي تستشعر بكل حدس عمرها الغضّ أنّ هذه الظروف ستضاعف القسوة التي تدوم حولها. وشحب لون المركيزة وهي توجّه انتباه مضيفها بحركة مذعورة إلى زوجها الذي كان مطرقاً غارقاً في التفكير وهو ينظر إلى أزهار وشي السجادة. وفي تلك اللحظة لم يعُد الدبلوماسي يطيق، رغم لباقته، هذر كاتب العدل، وألقى عليه نظرة صاعقة، وهو يقول له:

تعال معي. وتوجّه بسرعة إلى الغرفة الواقعة قبل الصالة.

تبعه كاتب العدل وهو يرتعش دون أن ينهي عبارته. أغلق المركيز بعنف باب الصالة التي ترك فيها المرأة وزوجها وتوجه إلى الكاتب العدل بغضب مركّز قائلاً:

twitter @baghdad_library

- أيها السيّد، منذ العشاء، وأنت ترتكب هنا الهفوات وتنطق بالحماقات. كرمى لله! انصرف قبل أن تسبّب أكبر المصائب؛ فإن كنت كاتب عدل ممتاز، الزم مكتبك؛ وإن شاءت المصادفة ووجدت في المجتمع، فحاول أن تكون متبصراً في كلامك. . . . ثم دخل إلى الصالة وترك الكاتب العدل دون أن يحييه. وبقي هذا للحظة ذاهلاً خاملاً، دون أن يعلم أين هو؛ وعندما هدأ الطنين في أذنيه، خيّل إليه أنه يسمع تنهدات وذهابًا وإيابًا في الصالة حيث أجراس استدعاء الخدم تقرع بعنف، وخشي أن يرى مجدّداً المركيز ربّ المنزل؛ وعندما شعر أن ساقيه تقويان على حمله أسرع إلى الدرج لائذاً بالفرار. لكنه اصطدم عند خروجه بالخدم وهم يهرعون لتلبية أوامر سيّدهم.

قال في نفسه عندما وصل إلى الشارع وهو يفتش عن عربة أجرة تقلّه إلى منزله: هكذا هم جميع هؤلاء النبلاء، يحملونك على الكلام، ويحرضونك عليه بالمديح، وتعتقد أنك تسليهم، إطلاقًا! ثم يلومونك بوقاحة، ويوقفونك عند حدك، بل ويطردونك دون حياء. أخيراً، كنت نبيهًا تمامًا، فلم أقل إلا الكلام المعقول، والرصين، والملائم لعمري، طلب المركيز أن أكون أكثر تبصراً، وهذا لا ينقصني. إيه! إنني كاتب عدل، ومعلّم في مكتبي. أما هو فسفير متقلب؛ ولاحرمة لشيء لدى هؤلاء الأشخاص. غداً سأطلب منه تبريراً لقوله: إنني لم أفعل في منزله إلا ارتكاب الهفوات والنطق بالحماقات. أعني سأطلب منه حسن المحاكمة. وبالإجمال ربّما كنت مخطئًا لعمري، إن طيبتي تدفعني لإجهاد الفكر! إنّما مالي ولهذا الأمر؟.

عاد الكاتب العدل إلى منزله، وعرض هذا الأمر الغامض على زوجته وهو يروي لها أحداث المساء نقطة نقطة.

- يا عزيزي كروتا، إن سعادة السفير محقٌ تمامًا في قوله إنك لم تفعل إلا ارتكاب الهفوات والنطق بالحماقات.

- لماذا؟

- ياعـزيزي إن قلت لك فـهـذا لن يمنعك من أن تكرّر ذلك غـداً في مكان آخـر . سأوصيك فقط بعدم التـحدث في المجتمع إلا في موضـوع الأعـمـال المكلّف بها .

- إن رفضت قول ذلك لي ، فسأطلبه غداً من . . .

- يا إلهي ، إن أشد الناس غباءً يحرصون على كتمان هذه الأمور ، وأنت تعتقد أن سفيراً سيصرّح لك بهـا . ولكن ياكروتا ، لم أرك من قبل بمثل هذا القدر من عدم الإحساس .

ـ شكراً يا عزيزتي ! .

twitter @baghdad_library

- V -

اللقاءان

حضر ضابط قديم من مرافقي نابوليون، سنطلق عليه فقط اسم المركيز أو الجنرال، وهو من جمع ثروة طائلة بعد ذلك في عهد الملكية الثانية، إلى فرساي ليقضي أيام العزّ في فرساي حيث سكن في بيت ريفي يقع بين الكنيسة وحاجز مونروي على الطريق المؤدي إلى شارع سان كلو، فوظيفته في القصر لاتسمح له بالابتعاد عن باريس.

بني هذا البيت سابقًا ليستعمل ملاذ غراميات عابرة لأحد كبار النبلاء، وكانت له ملاحق واسعة، فالحدائق المحيطة به من كلّ جانب تبعده في ذات الوقت، من اليمين واليسار عن بيوت مونروي الأولى، وعن الأكواخ المقامة في جوار الحاجز، وهكذا كان ينعم سادة تلك الملكية، دون أن يشعروا بالعزلة، وهم على بعد خطوتين من مدينة، بجميع مباهج الوحدة. وفي تناقض غريب كانت واجهة وبوابة المنزل تطلاّن مباشرة على الطريق الذي لم يكن مطروقًا كثيراً في السابق، على الأرجح. وتبدو هذه الفرضية محتملة إذا فكّرنا بأنه ينتهي إلى الدارة الرائعة التي أمر لويس الخامس عشر ببنائها للآنسة دي رومانس؛ والتي كان الفضوليون يعرفون بوجود أكثر من كازينو هنا وهناك، يفضح وضعه الداخلي وزخرفته خلاعات جدودنا الممتعة التي كانوا يحرصون مع ذلك على أن تتمّ في الخفاء والغموض رغم ما نتهمهم به من فجور.

في إحدى أمسيات الشتاء، كان المركيز وزوجته وأولاده وحيدين في ذلك المنزل النائي، بعد أن منحوا خدمهم الإذن بالذهاب إلى فرساي للاحتفال بعرس أحد

رفاقهم، وظنّ الخدم أن أبّهة احتفالات عيد الميلاد المقترنة بتلك المناسبة تمنحهم عذراً مقبولاً لدى أسيادهم، ولم يتورّعوا عن أن يخصّصوا لذلك الاحتفال وقتاً يزيد عمّا منحهم الإذن المنزلي. ولما كان الجنرال معروفاً بأنه رجل لايتراجع أبداً عن تنفيذ كلمته باستقامة صارمة، فإنّ العاصين منهم كانوا يحسّون بالندم وهم يتابعون الرقص عندما انتهت مدة الإذن وحان موعد العودة. ودقّت الساعة معلنة الحادية عشرة، ولم يعد أيّ خادم. وكان الصمت العميق المخيّم على الريف يتيح سماع ريح الشمال تعصف بين حين وآخر عبر أغصان الأشجار السوداء، أو تهدر بين المنازل، أو تتغلغل في الممرّات الطويلة. وقد نقّى الجليد الهواء وصلّب الأرض وسمّر حجارة رصف الطرقات، ممّا منح كل شيء تلك الرنّة الجافّة التي تدهشنا ظواهرها دائماً، فترنّح سكير متأخر أو ضجيج عربة عائدة إلى باريس، يرنان بشدة، ويُسمعان لمسافة أبعد من المعتاد. وأوراق الأشجار المتساقطة، المتراقصة ببعض دوّامات مفاجئة تحفّ وهي ترتعش على حجارة الفناء فتعطي صوتاً للليل يريد أن يكون صامتاً. كانت أخيراً إحدى تلك الليالي القارسة التي تنتزع من أنانيتنا شفقة عقيمة على فقير أو مسافر في العراء؛ وتجعل ركن المدفأة ألذ مكان في نظرنا. كانت العائلة في تلك اللحظة مجتمعة في الصالة، لايقلقها غياب الخدم، ولا التفكير بمن هم دون مأوى، ولا الشعر الذي يمكن أن تجود به القرائح في سهرة شتائية، فالعائلة غير مهتمة بفلسفة دون سبب، والزوجة والأولاد مطمئنون لحماية عسكري قديم، وهم منصرفون إلى الاستمتاع بمسرات تولّدها حياة داخلية لاحرج فيها للعواطف، والمودّة والصراحة تنعش الأحاديث، والنظرات والحركات.

كان الجنرال جالساً، أو بالأصح غارقاً في كنبة عالية عريضة، قرب المدفأة التي تتوهّج فيها نار متأججة تنشر جواً من الدفء المنعش المنبئ عن البرد الشديد في الخارج، وكان رأس هذا الأب الطيب مستنداً إلى ظهر المقعد، ومرتدّاً قليلاً في وضع متراخ يعبر عن هدوء كامل، وتهلّل انشراح هادئ. ذراعاه نصف نائمتين وهما متدليتان خارج مسندي الكنبة كأنّهما يتمّمان التعبير عن فكرة سعيدة. كان يتأمل أصغر أولاده صبيّاً لما يبلغ الخمس سنوات، وهو نصف عار يرفض أن تتمّم له أمه

twitter @baghdad_library

خلع ثيابه؛ والطفل يهرب من قميص وطاقية النوم التي تهدّده أمه بها أحيانًا، وهو يحتفظ بياقته المطرّزة، ويضحك لأمّه عندما تناديه، ملاحظًا أنّها تضحك بدورها من هذا التمرّد الطفولي؛ وبدأ عندئذ يلعب مع أخته، البريئة مثله، لكنها أكثر حركة وحبًا للهو منه، كما أنّها أكثر تميّزًا في الكلام، لكن عباراتها غير المحدّدة وأفكارها المشوّشة تكاد لاتدرك من قبل ذويها، وموانا الصغيرة التي تكبر أخاها بعامين تستثير، بغنج أنثوي، سابق لأوانه، ضحكات لاتنقطع[1]، وهي تنطلق كصواريخ ولأتفه الأسباب، ولكن رؤية كليهما يتقلب قرب المدفأة، وهما يكشفان دون خجل عن جسميهما الجميلين، وبشرتهما البيضاء الناعمة، وخصلات شعرهما السوداء والشقراء، ووجهيهما المتوردين، والفرح يتألق على قسماتهما البريئة، يدرك الأب، وتدرك الأم خاصة حبور هاتين الروحين الصغيرتين المتميّزتين بالنسبة لهما، والمولعين بهما. فأمام تألق ألوان عيونهما المخضلتين، ووجناتهما اللامعة، وبشرتهما البيضاء، تشحب نقوش أزهار السجادة الوثيرة، وهي مسرح مَرَحهما، فعليها يسقطان، ويتقلبان، ويتشاجران ويتدحرجان دون خطر. كانت الأم عند الركن الآخر من المدفأة جالسة على ديوان يواجه كنبة زوجها تحيط بها ملابس متناثرة، وماتزال فردة حذاء حمراء في يدها في مظهر معبّر عن العفوية. وقساوتها المشكوك فيها تغيب خلف ابتسامة ترتسم على شفتيها. كانت في السادسة والثلاثين من عمرها تقريبًا، وهي ما تزال تحتفظ بجمال يعود إلى كمال نادر في قسمات وجهها التي تسكب عليها الحرارة والسعادة والنور في تلك اللحظة بريقًا غير طبيعي، وغالبًا ما كانت ترتد بناظريها عن أولادها لتحوّلها إلى وجه زوجها الرزين، ويتبادل الزوجان عندما تتلاقى أعينهما أحيانًا تعابير متّع صامتة وأفكار عميقة. كان للجنرال وجه تلوّحه سمرة ظاهرة، وتتدلّى على جبينه العريض النقي بعض خصلات شعر وخطها الشيب، ويتألق وميض الرجولة في عينيه الزرقاوين، وتسجل تجاعيد وجنتيه الذابلتين معالم الشجاعة والإقدام، وهي تشير إلى أنّه حصل بما بذله من جهود قاسية

(١) هي لوحة نادرة لعائلة سعيدة، عرفت العائلة فيها بعد الأزمات السلام الزوجي. وفيها برسم بلزاك صورة ولدين مختلفين: موانا ابنة الحب وأبل ابن الواجب.

على تلك الشريطة الحمراء التي تزين عروة سترته دلالة وسام جوقة الشرف المنعم به عليه. كانت أفراح ولديه البريئة، في تلك اللحظة، تنعكس على مظهره القوي الحازم الذي تتجلى فيه طيبة وبراءة فائقتا الوصف، فقد عاد هذا الضابط القديم الى عهود الصبا دون بذل جهود كبيرة. ألا يغرم الجنود قليلاً بأيام الفتوة التي اختبروا فيها مصائب الحياة التي مكّنتهم من معرفة شقاء القوة وميزة الضعف؟ وعلى بعد قليل، وأمام طاولة مستديرة مضاءة بمصابيح كوكبية تصارع أضواؤها الوهّاجة أضواء الشموع الشاحبة الموضوعة على حافة المدفأة، جلس فتى في الثالثة عشر من العمر يقلّب بسرعة صفحات كتاب كبير، لايلهيه عن ذلك صراخ أخيه أو أخته، وتنمّ تقاطيع وجهه عن فضول الصبا. ويتبرّر هذا الاهتمام بالروائع المشوّقة التي يتضمنها كتاب **ألف ليلة وليلة**[1] وبزهو الفتى ببزّة طالب الكلية. وقد بقي ساكنًا، في موقف متأمّل، مرفقه على الطاولة، وقد أسند رأسه بإحدى يديه، فبدا شعره الأسود يتموّج متباينًا مع بياض أصابعه. كان الضوء يسقط عموديًا على وجهه بينما باقي الجسم في الظلمة، وكان بذلك يشبه تلك الصور المرسومة بأقلام الفحم الأسود التي رسمها رافاييل لنفسه وهو يطرق متأمّلاً، يفكر بالمستقبل. وبين تلك الطاولة والمركيزة كانت فتاة طويلة القامة، جميلة الوجه، تجلس أمام نول حياكة، وقد مال جسمها وهي تعمل عليه بينما كان رأسها يبعد ويقرب بحركة متناوبة، فيعكس شعرها الأسود الإبنوسي النور. كانت هيلين لوحدها تُعَدُّ مشهداً رائعًا، فجمالها يتميز بسمة نادرة تجمع القوة إلى الأناقة؛ وبالرغم من أنّها رفعت شعرها بطريقة يرسم فيها إطاراً حيًّا حول هامتها فإنه كان من الغزارة حتى أفلتت خصلات تدلّت متمردة على أسنان المشط وتجعّدت بقوة عند منشأ العنق؛ وكان حاجباها كثيفي الأشعار ومنتظمي المنبت وهما يتباينان بسوادهما مع بياض جبينها؛ وظهر على شفتها العليا خالٌ بلون أسمر قاتم، دلالة شجاعة ترتسم تحت أنف إغريقي بدا محيطه في منتهى الكمال؛ لكن الاستدارات الأخّاذة في قوامها، وبراءة التعبير في أساريرها الأخرى. وشفافية بشرتها المرهفة، وإغراء عذوبة شفتيها، وتناهي بيضوية وجهها؛ وخاصة قدسيّة

(١) تأثر بلزاك بهذا الكتاب، وكان يريد للملهاة الإنسانية أن تغدو ألف ليلة وليلة الغرب.

twitter @baghdad_library

نظرتها العذراء كانت تطبع ذلك الجمال المتين بحلاوة أنثوية، وتواضع ساحر نهفو إليهما لدى ملائكة السلام والحبّ هؤلاء. غير أنّ ما من مظهر ضعف لدى تلك الشابة، وقلبها وروحها بمثل عذوبة وقوة تناسقاتها الرائعة ووجهها الجذاب. كانت تقلّد صمت أخيها تلميذ الكلية وتظهر فريسة أحد هذه التأمّلات المقدّرة على الفتيات والممتنعة غالبًا عن ملاحظة أب أو أم وغالبًا عن فطنة ودراية الأمهات: حتى لتتعذر معرفة إن كان يجب أن تُنسَبَ إلى حركة الضوء أو إلى هموم خفيّة، تلك الظلال المتقلبة على وجهها كالغمام في سماء نقيّة.

كان كبيرا الأولاد هذان منسيين في تلك اللحظة كليًا من قبل والديهما؛ غير أن الجنرال وجّه أكثر من مرّة نظرة متسائلة إلى المشهد الصامت الذي يُظهر في خلفية الصورة إنجازًا عذبًا للآمال التي تسجّلها الجلبة الطفوليّة المتعالية في مقدّمة هذه اللوحة المنزلية. وترف السجف التي تزين ذلك الصالون، وتنوّع الأوضاع، وتعارض الملابس المختلفة اللون، وتباينات هذه الوجوه المتميزة بمختلف الأعمار والأطر التي تبرزها الأضواء، تبسط على هذه الصفحات الإنسانية كل الثراء الذي يرغب به النحاتون والرسامون والكتّاب. أخيرًا فالصمت والشتاء، والعزلة والليل تخلع جلالها على هذا التكوين السامي والساذج، بتأثير عذب للطبيعة. والحياة الزوجية ممتلئة بهذه الساعات المقدّسة، التي يعود سحرها الغامض، على الأرجح، لذكرى عالم أفضل، فبعض إشعاعات سماوية تتفجر دون شك، على هذه الأنواع من المشاهد المخصّصة لتخفّف عن الإنسان قسمًا من أحزانه، ولتدفعه إلى قبول وجوده، ويبدو أن الكون هنا يظهر أمامنا، بشكل خلاّب ليبسط أفكار نظامه الكبيرة التي تطالب بها الحياة الاجتماعية من أجل قوانينها المتعلقة بالمستقبل. إنّما بالرغم من نظرة الحنان التي تلقيها هيلين على آبل وموانا عند تفجر أحد مظاهر سرورهما، ورغم السعادة المرتسمة على وجهها المشرق عندما تتأمل خلسة أباها، فإن شعور كآبة عميقة ينطبع على حركاتها، وموقفها، وخاصة في عينيها المحتجبتين بأهداب طويلة؛ وترتعش يداها البيضاوان القويتان اللتان يخلع عليهما النور أثناء مروره احمرارًا شافًا شبه مائع. ومرّة واحدة، ودون تحدٍّ متبادل، اصطدمت عينا هيلين

بعيني المركيزة، وفهمت كلّ من المرأتين الأخرى بنظرة، كليلة، باردة، مراعية لواجبات الاحترام لدى هيلين؛ قاتمة ومهدّدة لدى الأم. وخفضت هيلين بسرعة بصرها على النول، وسحبت الإبرة بخفّة، وبقيت مدة لم ترفع فيها رأسها الذي بدا حمله ثقيلاً جداً عليها. هل كانت الأم قاسية جداً على ابنتها، وهل كانت ترى هذه القسوة ضرورية؟ هل كانت تغار من جمال هيلين، وهي ما تزال قادرة على منافستها، إنّما مع استخدام كل وسائل الزينة؟.. أو أن الابنة كشفت، ككثيرات من البنات عندما يغدون نافذات البصيرة، أسرار تلك المرأة، التي تعتقد أنها دفنتها في قلبها بمثل عمق قبر، وتبدو في الظاهر أمينة بتقوى لواجباتها؟.

كانت هيلين قد وصلت إلى عمر تحمل فيه طهارة الروح على صرامة تتجاوز المقياس الصحيح الذي يجب أن تبقى فيه العواطف؛ وفي بعض النفوس تأخذ الأخطاء مناسيب الجريمة، ويؤثر الخيال عندئذٍ على الضمير، وغالبًا ما تغالي الشابات آنذاك في العقوبة بشكل متناسب مع مدى تقديرهن لشناعة الجريمة. بدت هيلين تعتقد بأنها غير جديرة بإنسان. سرٌّ في حياتها الباطنة، قد يكون حادثًا، غير مفهوم في البدء، لكنه نما مع حساسية ذكائها المتأثّر بأفكار دينية، بدا منذ مدّة وجيزة، وكأنّه يحطُّ من قدرها في نظرها بالذات. بدأ هذا التغيّر في سلوكها منذ اليوم الذي قرأت في ترجمة حديثة عن المسارح الأجنبية مأساة **غليوم تل** الجميلة لمؤلفها الشاعر شيلر[1]. وبعد أن أنّبت الأم ابنتها وسحبت منها الكتاب لاحظت أن الدمار الذي سببته تلك القراءة في نفس هيلين ناتج عن المشهد الذي يقيم فيه الشاعر نوعًا من الأخوّة بين غليوم تل الذي يسفح دم رجل لينقذ شعبًا بكامله وبين جان-لي-باريسيد[2]. وغدت متواضعة، خاشعة، ورعة. فلم تعد ترغب في الذهاب إلى المرقص. وزاد تدليل والدها لها، وخاصّة عندما لاتكون المركيزة شاهدة على هذه

(١) شيلر، فردريك (١٧٥٩ ـ ١٨٠٥) شاعر وأديب ألماني. له مسرحيات شهيرة منها عذراء أورليان (١٨٠١) وغليوم تل (١٨٠٤) نقلت مسرحياته إلى الفرنسية في العام ١٨٢١.

(٢) هو المشهد الخامس من مسرحية غليوم تل وفيه يقتل جان دونزيش عمه الملك.

twitter @baghdad_library

الملاطفات للابنة الشابّة. لكن إن وُجد برود في مودّة هيلين لأمّها فقد كان من الدقّة في عدم الظهور حتى لم يلاحظه الجنرال، فأيّا كانت الغيرة من الرابطة السائدة في العائلة، لن يكون لأيّ رجل تلك العين الثاقبة القادرة على سبر عمق هذين القلبين الأنثويين: أحدهما شاب وكريم، والآخر حسّاس ومعتّز. الأول كنز تسامُح، والثاني مفعم بالرقّة والحبّ. وإذا كانت الأم تكدّر ابنتها باستبداد لبق، فهو لا يظهر إلا لعيني الضحيّة، ومع ذلك فالحدث وحده يولّد هذه التكهّنات غير القابلة للحلّ، إنّما حتى تلك الليلة لم تتسرب أيّة بارقة اتهام من هاتين الروحين؛ لكن ما بينهما وبين الله كانت ترتفع بالتأكيد علائم سرّ مريع.

هتفت المركيزة وهي تغتنم لحظة بقي فيها الصبي وأخته موانا ساكنين، بعد أن نال منهما التعب والصمت: هيّا، تعال، يا ولدي، يجب أن تنام . . . وألقت عليه نظرة آمرة، وأخذته خلسة على ركبتيها.

قال الجنرال: ماذا، أهي الساعة العاشرة والنصف، ولم يَعُدْ أيّ من خدمنا؟ آه! يا للمكّارين. ثم أضاف وهو يلتفت إلى ابنه الأكبر: غوستاف، لم أعطك هذا الكتاب إلا بشرط أن تتركه في الساعة العاشرة؛ كان يجب عليك أن تغلقه بنفسك في تلك الساعة المحدّدة وتذهب إلى النوم كما وعدتني، إذا أردت أن تغدو رجلاً ذا مكانة فيجب أن تعُدَّ كلمتك دينًا ثانيًا لك، وتحرص على الالتزام بها كحرصك في الحفاظ على شرفك. كان فوكس* أحد كبار خطباء إنكلترة متميّزًا بكريم سجاياه، وكان التزامه بعهوده أفضل مزاياه. وكان أبوه إنكليزي من أرومة أصيلة، وأراد في طفولة ولده أن يعطيه درسًا متينًا يكون ذا تأثير خالد على نفس الفتى. وعندما أتى فوكس، وهو في عمرك، خلال إحدى العُطَل، إلى المنزل العائلي؛ وكان لدى الأب، كمعظم أغنياء الإنكليز، منتزه واسع حول قصره. ووجد في هذا المنتزه كُشْك قديم آن هدمه وبناؤه في مكان آخر ذي إطلالة رائعة. وبما أن الأولاد يحبّون

* فوكس، شارل (١٧٤٩ـ١٨٠٦) سياسي بريطاني عارض سياسة جورج الثالث، تزعم حزب الهويغ (الأحرار) المنافس لبيت Pitt.

كثيراً رؤية التهديم والإعمار، فقد أراد فوكس الصغير أن يمدّ عطلته عدة أيام ليحضر سقوط ذلك الكشك، لكن الأب حرص على أن يعود ابنه إلى الكلية في اليوم المحدّد للافتتاح، لكن الأم، ككل الأمهات، دعمت موقف ابنها؛ ووعد الأب عندئذٍ صراحة ولده، حسماً للخلاف أن يؤجّل هدم الكشك حتى العطلة القادمة. وعاد فوكس إلى الكليّة، وظنّ الأب أن الفتى المنشغل بدروسه سينسى ذلك الأمر العارض، فهدم الكشك وبناه مجدّداً في المكان الآخر المرغوب. لكن الفتى العنيد لم يكن يفكر إلا بهذا الكشك. وعندما عاد خلال العطلة التالية، كان أول اهتماماته الذهاب لرؤية الكشك القديم، وعاد في وقت الغداء والحزن يملأ قلبه، وقال لوالده: لقد خدعتني. ورد النبيل الإنكليزي العجوز بخجل ملؤه الإحساس بالكرامة: هذا صحيح يا ولدي، لكنني سأصحح غلطتي، إذ يجب الحرص على الكلمة أكثر من الحرص على الثروة. فالالتزام بالكلمة تعطي الثروة، لكن كل الثروات لاتمسح عاراً لحق بوجدان حنث بكلمته. وأمر الأب ببناء الكشك القديم كما كان، ولما أعيد بناؤه، أمر بهدمه أمام عيني ولده. ليكن لك في هذا الدرس عبرة ياغوستاف.

أغلق غوستاف الكتاب في الحال، بعد أن أصغى بكل اهتمام إلى أبيه، ومرّت لحظة صمت حمل فيها الجنرال موانا، التي كانت تغالب النعاس وضمّها برفق إلى صدره، وألقت الصغيرة رأسها المترنّح على كتفه، وغفت للحال وقد أحاطت خصلات شعرها الجميل الذهبية كغطاء بظهرها. وفي تلك اللحظة سمع وقع خطوات سريعة في الشارع، ثم على المدخل، وقُرع الباب فجأة بثلاث ضربات رنّت أصداؤها في المنزل. كان لهذه الضربات القويّة المتطاولة نبرة يسهل فهمها كصرخة رجل يتهدده خطر الموت، وعلا نباح كلب الحراسة مزمجراً بغضب، وارتعش غوستاف وهيلين والجنرال وزوجته بشدّة؛ لكن آبل الذي أنهت أمّه تغطيته وموانا لم يستيقظا.

صاح الرجل العسكري وهو يضع ابنته على الكنبة: كم هو عجول هذا الطارق.

twitter @baghdad_library

وخرج فجأة من الصالون دون أن يستجيب لرجاء زوجته.

- لاتذهب ياصديقي . . .

دخل المركيز غرفة نومه وتناول منها مسدسًا، وأشعل فانوسه الأصم، وانطلق نحو السلم، ونزل بسرعة البرق، ووجد نفسه سريعًا على بوّابة المنزل حيث تبعه ابنه بإقدام.

سأل: من هنا؟

أجابه صوت يكاد يختنق بأنفاسه المتقطّعة: افتح.

- هل أنت صديق؟

- نعم صديق.

- هل أنت وحدك؟

- نعم، ولكن افتح، فها هم قادمون.

وانزلق رجل تحت كنّة المدخل بمثل سرعة ظل وهمي عندما فتح الجنرال البوابة بانفراج بسيط تمكن الغريب من وضع قدمه فيه، وأتمّ فتحها بضربة قويّة من الرجل الأخرى ودخل وأغلقها خلفه مستندًا بظهره عليها، كأنما يحاول منع إعادة فتحها.

رأى الجنرال وهو يصوّب مسدسه إلى رأس الرجل بسرعة ليوقفه عند حدّه ويرفع مصباحه حتى صدره، رأى رجلاً متوسط القامة، متدثّرًا بمعطف مبطن بالفرو، لباس عجوز واسع يبدو أنّه ليس له وقد أغرق رأسه حتى أذنيه، سواء عن حرص أو مصادفة، بقبعة غطت جبينه وحجبت عينيه.

- قال الغريب مخاطبًا الجنرال: سيدي، أبعد فوهة مسدسك، فأنا لا أنوي البقاء في منزلك دون موافقتك؛ لكنني إن خرجت فالموت ينتظرني على الحاجز. وأي موت! ستكون مسؤولاً عنه أمام الله. إنني أطلب ضيافتك لمدة ساعتين. فكّر

بذلك يا سيدي. وأيًا كان توسّلي فقد اقتضته وطأة الضرورة. أريد الضيافة العربية التي تؤمّن لي حمايتك، وإلا افتح، فسأذهب إلى الموت. يلزمني الكتمان والتخفّي، وأمان الملجأ، والماء. أوه! أين الماء؟

ردّد بصوت أشبه بالحشرجة.

سأله الجنرال، وهو مندهش من الطلاقة المحمومة التي يتكلّم بها المجهول: من أنت؟

- آه! من أنا؟ افتح وسأبتعد. أجاب الرجل بلهجة تتضمّن سخرية هائلة.

رغم مهارة المركيز في تسليط أشعة مصباحه على الرجل، فإنه لم يتمكن إلا من رؤية أسفل وجهه، وما من شيء يشجع على منحه ضيافة، طولب بها بمثل هذه الغرابة. كانت وجناته مرتعشة، وقسماته متشنّجة بشكل رهيب؛ وعيناه ترتسمان في الظل الذي تلقيه حافة قبعته مثل ومَاضين يشحبان تقريبًا مثل نور الشمعة الضعيف. غير أن من الواجب إعطاء جواب.

قال الجنرال: أيّها السيد، إن كلامك شديد الغرابة، حتى ليدفع من في مكاني إلى . . .

صاح الغريب بصوت رهيب مقاطعًا مضيفه: إنّك تتصرّف بحياتي.

قال المركيز مترددًا: مدة ساعتين.

كرّر الرجل: مدة ساعتين.

لكنه فجأة أزاح قبعته بحركة قنوط وكشف عن جبينه وألقى نظرة، كمحاولة أخيرة، تغلغلت بجلائها إلى روح الجنرال. هذه النفثة من الذكاء والإرادة كانت أشبه بالبرق، وبدت ساحقة كالصاعقة، إذ تمرّ لحظات يتمتع فيها الرجال بقدرة لايمكن تحديدها.

استأنف ربّ المنزل برصانة كمن يستجيب إلى إحدى هذه الحركات الغريزية التي لايتسنى للإنسان شرحها دائمًا: هيّا، فأيًا كنت، ستجد تحت سقفي الأمان.

twitter @baghdad_library

أضاف الغريب وقد أطلق تنهدة ارتياح عميقة : جزاك الله خيراً .

سأله الجنرال : هل أنت مسلّح؟

اختصر الغريب جوابه بفتح طرفي معطفه بسرعة ثم طيّهما ؛ بدا دون سلاح ظاهر ، وفي بزّة شاب خارج لتوّه من حفلة رقص . وأيًّا كانت سرعة تحرّي العسكري المرتاب ، فقد رأى ما يكفي لقوله : في أي مكان شيطاني تمكنت أن تلطخ ثيابك في مثل هذا الطقس القارس الجاف؟

أجاب الغريب متعاليًا : أمزيد من الأسئلة أيضًا!

في تلك اللحظة أبصر المركيز ابنه خلفه وتذكر الدرس الذي لقّنه إياه حول ضرورة التنفيذ القطعي لكلمة تعهّد وبدا عليه الاستياء بشدّة لهذه المصادفة مما دفعه إلى أن يوجّه له اللوم بلهجة ممتزجة ببعض الغضب :

- كيف صدف أيّها الولد الماكر ، أنّك هنا بدلاً من أن تكون في سريرك؟ .

أجاب غوستاف : اعتقدت أن بإمكاني تقديم العون لك في حال الخطر .

قال الأب متلاطفًا وقد راق له جواب ابنه : هيّا اصعد إلى غرفتك . ثم توجه إلى الغريب قائلاً : وأنت تعال معي .

ساد بين الرجلين الصمت كلاعبين يتحدى كل منهما الآخر . بل وبدأت تخالج الجنرال هواجس مشؤومة فالغريب بدأ يثقل على قلبه كأنه كابوس ، لكن سيطر عليه الولاء لكلمة عهد أطلقها له ، وقاده عبر ممرات المنزل وسلالمه ، إلى أن وصل به إلى غرفة واسعة في الطابق الثاني ، تقع فوق الصالون ، وهي غير مسكونة ، وتستخدم في الشتاء مكانا للتجفيف ولا تتصل بأيّ من الأجنحة ، وهي خالية من أي أثاث أو زينة على جدرانها الأربعة المصفرّة ، باستثناء مرآة بشعة تركها المالك السابق فوق حافة المدفأة ، وأخرى كبيرة الحجم وجدت دون مكان مناسب لها عند انتقال المركيز فوضعت في مواجهة الأولى موقتًا . كانت أرضية تلك السقيفة

الواسعة وسخة لم تكنس يومًا، والهواء فيها بارد جداً، وكرسيان قديمان زال قشهما مرميان في إحدى الزوايا.

قال الجنرال بعد أن وضع مصباحه على حافة المدفأة مخاطبًا الغريب: إن سلامتك تتطلب أن تكون هذه السقيفة البائسة ملجأ لك، وبما أنني أعطيتك كلمتي بالمحافظة على سرك فاسمح لي بأن أحبسك هنا.

طأطأ الرجل رأسه موافقًا وقال: لا أطلب إلا الملجأ وكتمان أمري، وتأمين ماء لي.

أجاب المركيز الذي أغلق الباب بعناية، ونزل بتلمّس حذر إلى الصالون ليأخذ شمعدانا ويذهب بنفسه إلى غرفة الخدمة ليأتي بدورق ماء: لك ماطلبت.

سألت المركيزة زوجها بحرارة: وبعد ياسيدي، ما الأمر؟.

أجاب ببرود: لاشيء يا عزيزتي.

- لكننا استمعنا جيّدًا إلى أنك تقود أحد الأشخاص إلى الطابق العلوي. . . .

- استأنف الجنرال كلامه وهو ينظر إلى ابنته التي رفعت رأسها متسائلة نحوه: هيلين، فكّري بأن شرف أبيك منوط بكتمانك. تصرفي وكأنك لم تسمعي شيئًا.

أجابت الفتاة الشابة بإيماءة ذات دلالة من رأسها. وبقيت المركيزة منذهلة، ومتضايقة في سرها من الطريقة التي اتبعها زوجها في فرض التزامها بالصمت. وحمل الجنرال دورق الماء والكأس إلى الغرفة التي ترك فيها سجينه؛ فوجده واقفًا، مستندًا إلى الجدار، قرب المدفأة عاري الرأس، بعد أن ألقى قبعته على أحد الكرسيين. ولم يكن يتوقّع على الأرجح أن يسلّط عليه الضوء إلى هذا الحدّ؛ فتغضّن جبينه، وبد القلق على وجهه عندما التقت عيناه بعيني الجنرال الثاقبتين، لكنه هدأ وبدت على ملامحه علائم اللطف وهو يشكر مضيفه. وعندما وضع الأخير الكأس والدورق على حافة المدفأة، قطع الغريب الصمت، وألقى على المركيز نظرة متقدة، وقال بصوت هادئ خلا من التشنّجات الحلقية السابقة غير أنه لايزال ينمّ عن ارتعاش داخلي:

twitter @baghdad_library

- سيدي، سأبدو لك غريب الطبع. اعذر نزواتي التي تقتضيها الضرورة، وإذا بقيت هنا فأرجوك ألا تنظر لي وأنا أشرب.

اغتاظ الجنرال من الإذعان دائماً لرجل لايروق له، لكنه استدار فجأة مشيحاً بوجهه عنه، وتناول الغريب من جيبه منديلاً أبيض أحاط به يده اليمنى وتناول الدورق، وشرب محتواه من الماء دفعة واحدة. ونظر المركيز بصورة آلية إلى المرأة الكبرى، دون أن يفكّر بالإخلال بوعده السابق المُضمر. لكن تقابل المرآتين أتاحت له الإحاطة بجميع حركات الغريب، ورأى عندئذ المنديل يصطبغ بالحمرة القانية فجأة عند ملامسة اليدين الممتلئتين دماً.

صاح الرجل بعد أن شرب والتف مجدّداً بمعطفه ونظر إلى الجنرال نظرة متشكك: آه! نظرت إليّ. لقد ضعت، لقد أتوا، هاهم!

- لم أسمع شيئاً، قال المركيز.

- لأن ليس لديك مثل اهتمامي في التنصّت عبر الفضاء.

قال الجنرال وقد بدا عليه التأثر بعد أن لاحظ بقع الدم الكبيرة التي تلطّخ ثياب ضيفه:

أنت خارج من مبارزة إذن، تناثر الدم فيها هكذا على ثيابك.

ردّد الغريب وقد أبرقت شفتاه بابتسامة مُرّة: نعم، هي مبارزة كما تقول.

في تلك اللحظة سُمع وقع خبب عدة أحصنة على البعد. لكن ضجيجها كان بعيداً كأشعة الصباح الأولى. وعرفت أذن الجنرال الخبيرة فيه انتظام جري خيول مفرزة عسكرية.

قال: إنّهم رجال الدرك.

ألقى على أسيره نظرة من طبيعتها أن تبدّد الشكوك التي أثارها فضوله

اللاإرادي، وحمل المصباح، وعاد إلى الصالون، وما كاد يضع مفتاح الغرفة العليا على المدفأة حتى تزايد ضجيج الخيالة واقترب من المنزل بسرعة جعلته يرتعش. والواقع أن الخيول توقّفت أمام بابه. وبعد أن تبادل أحد الخيالة بعض الكلمات مع رفاقه، نزل وقرع الباب بعنف، مما اضطر الجنرال إلى الذهاب ليفتح له، وقد انتابته الدهشة خفية لمرأى ستة دركيين بقبعاتهم المحاطة بالفضة وهي تلمع تحت ضوء القمر.

قال له أحد الرقباء: ألم تسمع يا صاحب السعادة منذ لحظة ضجّة رجل يركض نحو الحاجز؟

- نحو الحاجز؟ كلاّ.

- ألم تفتح باب منزلك لأي شخص؟.

- وهل جرت العادة أن أفتح أنا بالذات باب منزلي؟.

- العفو، ياسيدي الجنرال، في هذه اللحظة يبدو لي...

- آه! ماهذا؟ صرخ الجنرال بنبرة غضب، هل تريدون المزاح؟ هل يحق لكم..

- أبدًا، أبدًا، ياصاحب السعادة، استأنف بلطف الرقيب: اغفر لنا حميّتنا. نحن نعلم أن عينًا من كبار أعيان فرنسة لن يُعرض نفسه لاستقبال قاتل في هذه الساعة من الليل، لكن الرغبة في الحصول على بعض المعلومات...

صاح الجنرال: قاتل! من يكون إذن...

استأنف الدركي: لقد قُتل السيد البارون دي موني بضربة فأس. ولوحق القاتل بسرعة، ونحن متأكّدون أنه في الجوار، وأننا سنضيّق الخناق عليه. اعذرنا، ياسيدي الجنرال.

قال الدركي هذه الكلمات وهو يمتطي حصانه. فلم يتمكن لحسن الحظ أن

twitter @baghdad_library

يرى وجه الجنرال لكن ربّما، وهو المتعوّد على مختلف الاحتمالات، خالجته بعض الشكوك لرؤية هذا المظهر المتلوّن بكل حركات الروح.

سأل الجنرال: هل عُرف اسم القاتل؟

أجاب الفارس: كلا، وقد ترك خزانة المكتب ممتلئة بالنقود الذهبية والعملات الورقية دون أن يلمس شيئًا منها.

قال المركيز: هذه عملية انتقام.

- آه! على رجل عجوز؟ . . . كلا، كلا، يبدو أن الوقت لم يتوفر لهذا الشخص الجريء ليحقق الغاية من ضربته.

والتحق الدركي برفاقه الذين ابتعدوا في جريهم، وبقي الجنرال زمنًا وهو فريسة حيرة يسهل معرفة سببها، سمع بعدها ضجة خدمه عائدين وهم يتناقشون بنوع من الحرارة جعلت أصواتهم تتعالى عند مفرق طرق مونروي، وعندما وصلوا صبّ عليهم جام غضبه ببريق الصاعقة، وهو من يفتش عن ذريعة لينفث سعار نفسه، ورنت أصداء صوته في المنزل. ثم هدأ فجأة، عندما أبدى له وصيفه، وهو أكثرهم شجاعة ولباقة، اعتذارًا عن تأخرهم قائلاً: إنّهم أوقفوا على مدخل مونروي من قبل الدرك وأفراد الشرطة المتحرّين عن قاتل. وصمت الجنرال بغتة، وذكّرته هذه الكلمة بواجبات وضعه الغريب، فأمر بشكل فظّ خدمه بالذهاب للنوم على الفور، مع ما اعتراهم من دهشة للسهولة التي اقتنع بها بكذبة وصيفه.

لكن بينما كانت هذه الأحداث تجري في فناء المنزل، فإن أمرًا عارضًا في الظاهر غيّر حالة هؤلاء الأشخاص المتمثلين في هذه القصة. فما كاد المركيز يخرج عند وصول الدرك، حتى وجهت زوجته عينيها إلى مفتاح السقيفة، وإلى هيلين، وانتهت إلى القول بصوت منخفض وهي تميل على ابنتها:

- هيلين لقد ترك والدك المفتاح على حافة المدفأة.

رفعت الشابة رأسها بدهشة، ونظرت بخجل إلى أمّها وعيناها تبرق فضولاً. وقالت بصوت مرتبك: إيه! ما ذا تقصدين يا أمي؟.

- أريد أن أعرف ما يجري في الأعلى، فإن وجد شخص، فهو ما يزال هناك دون حراك، اذهبي إذن.

- أنا؟ قالت الفتاة مذعورة.

- هل أنت خائفة؟.

- كلا، ياسيدتي، لكن يخيل إليّ أنني ميّزت خطوات رجل.

- لو كان بإمكاني الذهاب بنفسي، لما رجوتك الصعود. ثم تابعت الأم بنبرة وقار باردة: هيلين، إن عاد والدك ولم يجدني فسيبحث عني على الأرجح، بينما لن يلاحظ غيابك.

- أجابت هيلين: سيدتي، سأذهب بناءً على أمرك؛ لكنني سأخسر تقدير أبي.

قالت المركيزة بلهجة ساخرة: كيف! لكن بما أنك أخذت على محمل الجدّ مزاحًا، فأنا آمرك الآن بالذهاب لتري من في الطابق الأعلى. هوذا المفتاح يا ابنتي! فوالدك عندما أمر بالتزام الصمت عما يجري الآن في منزله، لم يمنعك أبدًا من الصعود إلى تلك الغرفة.

اذهبي واعلمي أن ما من أمّ يجب أن تتعرض يومًا لحكم ابنتها.

بعد أن لفظت هذه الكلمات الأخيرة بكل قسوة أم مهانة، أخذت المركيزة المفتاح وناولته لهيلين دون أن تتفوّه بكلمة وغادرت الصالون.

- إنّ أمّي تعرف دائمًا كيف تحصل على صَفْحه، أما أنا فسأفقد مكانتي في نفس أبي. أتريد أن تحرمني من الحنان الذي يخصّني به، وأن يطردني من منزله؟

كانت هذه الأفكار تختمر في رأسها وهي تسير دون نور عبر الممر المؤدّي في أقصاه إلى الغرفة السريّة، وعندما وصلت إليها كان اضطراب أفكارها قد انتهى إلى أمر مشؤوم، فهذا النوع من التأمّل المشوّش عمل على فيض ألف عاطفة كامنة حتى

twitter @baghdad_library

ذلك الحين في قلبها، وقد انتهت، وهي التي لم تكن تعتقد، على الأرجح، بمستقبل سعيد، في تلك اللحظة الرهيبة إلى القنوط من الحياة، وارتعشت باختلاج وهي تقرّب المفتاح من القفل، وبلغ انفعالها درجة من العمق توقّفت خلالها لحظة لتضع يدها على قلبها كأن لديها القدرة على تهدئة ضرباته العميقة الرجّاجة. أخيراً فتحت الباب. وطرق صرير المحور، دون شك، إنّما عبثًا، أذن القاتل؛ ورغم أن سمعه مرهف جداً، فإنه بقي شبه ملتصق بالجدار، ساكنًا كأنه فقد أفكاره. كانت دائرة النور الساقطة من المصباح تضيئه بشكل ضعيف، فكان في هذه المنطقة من الظلّ والضوء أشبه بتماثيل هؤلاء الفرسان القائمة المنصوبة على الدوام في زاوية بعض القبور السوداء تحت المُصلّيات القوطيّة. كانت قطرات من العرق البارد تخدّد جبينه الأصفر العريض وجرأة فائقة تبرق على ذلك الوجه المنقبض بشّدة، وعيناه الناريّتان الثابتتان والجافتان تبدوان وكأنّهما تتأملان معركة في الظلمة المحيطة به، وأفكار جيّاشة مرّت سريعة على ذلك الجبين الذي يشير بمظهره الحازم الرصين إلى روح عالية. فجسمه، وموقفه، وتناسب أعضائه تتوافق مع عبقريته المتوحشة. كان هذا الرجل كلُّه قوة وقدرة، وهو يتأمّل غياهب الظلمة كأنها صورة مرئية لمستقبله. ولم ينتبه الجنرال المتعود على رؤية الوجوه القويّة للعمالقة الملتفين حول نابوليون، والمهتم بفضول معنوي، إلى هذه الميزات الجسدية الخاصة لهذا الرجل غير العادي؛ لكن هيلين، المتعرضة كجميع النساء للانطباعات الخارجية، بُهرت بمزيج الظل والنور، وبالمهابة والهوى، وبفوضى شاعرية تعطي للغريب مظهر شيطان ينهض من سقطته. وفجأة، وكأنّما بفعل السحر، هدأت العاصفة المنطبعة على وجهه؛ وانتشرت السيطرة المبهمة حوله، وقد كان دون علمه على الأرجح، مبدأها ونتيجتها، وهي تتقدّم بسرعة الفيضان، ونجم عن جبينه سيل من الأفكار في اللحظة التي عادت فيها قسماته إلى شكلها الطبيعي. وأمكن للفتاة، المفتتنة سواء بغرابة هذه المقابلة، أو بالغموض الذي تغلغلت فيه، أن ترى بإعجاب سيماء ناعمة، تثير الاهتمام.

وبقيت، لمدّة من الوقت، في صمت مدهش، وفريسة اضطرابات لم تعرفها روحها الفتيّة من قبل. لكن، سواء بدرت من هيلين حركة أو صيحة تعجب، أو أن القاتل بعودته من العالم المثالي إلى العالم الحقيقي، سمع تنفساً آخر غير تنفّسه؛ فأدار رأسه نحو ابنة مضيفه، ولاحظ في الظلّ بشكل غير واضح الوجه السامي، والمظهر الجليل لمخلوقة رآها ساكنة ومبهمة كأنّها ظهور ملاك قالت بصوت واجف: أيّها السيّد!.

ارتعش القاتل، وهتف برفق: امرأة! هل هذا ممكن؟ ثم تابع: ابتعدي. لا أعترف لأيّ إنسان بحق الإشفاق عليّ، أو بالصفح عني، أو إدانتي. يجب أن أحيا وحيداً. اذهبي يا ابنتي. وأضاف بمظهر مهيمن: سأجحد فضل سيد هذه الدار إن سمحت لأيّ من الأشخاص الذين يسكنونها أن يتنفس ذات الهواء الذي أتنفسه. يجب أن أذعن لقوانين العالم.

نطق بهذه العبارة بصوت منخفض. وبإنهائه الإحاطة بحدسه العميق بالهموم التي أيقظتها هذه الفكرة الكئيبة، ألقى نظرة ثعبان على هيلين فحرك في قلب تلك الشابّة الفريدة عالمًا من أفكار كانت ماتزال هاجعة لديها، فكأنّه سلّط ضوءاً أنار لها بلداناً مجهولة، وصعق روحها وسيطر عليها دون أن تجد قوّة تدافع فيها عن نفسها ضد القدرة المغناطيسية لهذه النظرة، أيًّا كان الشكل اللاإرادي الذي ألقيت به، وخرجت خجولاً مرتعشة، ولم تَعُد إلى الصالون إلا قبل لحظة من رجوع أبيها، فلم تستطع أن تقول شيئًا لأمّها.

راح الجنرال المستغرق في أفكاره يتجول بصمت، وقد صالب ذراعيه، وسار بخطوة منتظمة من النوافذ المطلّة على الشارع إلى النوافذ المطلّة على الحديقة. وكانت زوجته تلازم أبل النائم، وموانا موضوعة على الأريكة كعصفور في عشه تغفو مطمئنة. والأخت الكبرى تمسك بكبّة حرير في يد وإبرة في اليد الأخرى، وهي تتأمّل نار المدفأة، والصمت سائد في الصالون وخارج المنزل لا تقطعه إلا جرجرة خطوات الخدم الذاهبين واحداً بعد الآخر إلى النوم وهم يطلقون بعض

twitter @baghdad_library

ضحكات مختنقة هي الصدى الأخير لفرحة احتفائهم بزفاف زميلهم؛ ثم بعض كلمات يتداولونها وكل منهم يفتح باب غرفته الخاصة ثم يغلقه. وبعض ضجة تحدث قرب الأسرةَ ككرسي تسقط، أو سعال حوذي عجوز يتناوب بضعف ثم يصمت. وفجأة ساد في كل مكان الجلال القاتم الذي يتفجّر في الطبيعة الهاجعة عند منتصف الليل. فالنجوم وحدها تلمع والبرد يعمّ الأرض، وما من كائن يتكلم أو يتحرك، ونار المدفأة وحدها تدمدم كأنها تشير إلى إدراك عمق الصمت. ودقّت ساعة مونروي معلنة الواحدة بعد منتصف الليل، وفي تلك اللحظة، سُمع وقع خطوات خفيفة في الطابق الأعلى. ونسب المركيز وابنته المتأكدان من حبسهما قاتل السيد دي موني هذه الحركات لإحدى النساء، ولم يدهشا لسماع انفتاح أبواب الغرفة الواقعة قبل الصالون.

وفجأة ظهر القاتل في وسطهم. وأتاح له ذهول المركيز، وفضول الأم الشديد، ودهشة الابنة أن يصل إلى وسط الصالون. وقال للجنرال بصوت رخيم وهادئ للغاية: يا صاحب السعادة أوشكت الساعتان على الانقضاء.

صاح الجنرال: أنت هنا! بأيّة قدرة؟ ووجّه نظرة رهيبة متسائلة إلى زوجته وأولاده. وغدت هيلين محمرّة كشعلة نار. وتابع العسكري بلهجة نفاذة: أنت في وسطنا! قاتل ملطخ بالدماء هنا! إنّك تلوّث هذه اللوحة. ثم صاح به بلهجة غضب: اخرج! اخرج!

عند كلمة قاتل أطلقت المركيزة صرخة. أما هيلين فقد قرّرت هذه الصرخة حياتها. ولم تبد على وجهها أيّة دهشة. وبدت وكأنّها تنتظر هذا الرجل؛ فأفكارها الشديدة السعة اهتدت إلى معناها. والعقوبة التي ادّخرتها السماء لأخطائها قد تفجّرت. فهي تعتقد أنها بمثل إجرام هذا الرجل. ونظرت الفتاة الشابة إليه بعين رائقة: فهي رفيقته، وأخته. فبالنسبة لها تجلّت لها وصيّة من الله في هذه المناسبة. بعد عدة سنوات، سيهتدي الحق إلى الاقتصاص من تبكيتات ضميرها التي تجعلها

في هذه اللحظة، في منتهى الهيجان والحمق؛ وبقي الغريب ساكناً وبارداً. وابتسامة استخفاف تلوح في قسمات وجهه وترتسم على شفتيه الحمراوين الثخينتين.

قال بهدوء: إنّك لاتعي نبل تصرفاتي معك. لم أرد أن ألمس بيديّ الكأس التي قدمت لي بها الماء لأطفئ ظمئي. كما أنني لم أفكر بأن أغسل يديّ المضرّجتين بالدم تحت سقفك، وسأخرج من منزلك دون أن أترك فيه من جريمتي (وعند هذه الكلمة شدّ على شفتيه) إلا الفكرة، محاولاً أن أمرّ من هنا دون أن أترك أي أثر. أخيراً لم أسمح لابنتك حتى بـ...

صاح الجنرال وهو يلقي على هيلين نظرة مروّعة: ابنتي! آه! أيها التعس، اخرج وإلا قتلتك.

- لمّا تنته الساعتان، ولاتتمكن من قتلي أو تسليمي دون أن تفقد تقديرك لنفسك وتقديري لك.

عند هذه الكلمة الأخيرة حاول العسكري المندهش أن يتأمّل المجرم لكنه اضطر إلى غضّ بصره. فقد وجد نفسه غير قادر على تحمّل نظرة لايُطاق بريقها، وقد شوّشت للمرة الثانية روحه، وخشي أن يدين أيضاً باعترافه بما انتاب إرادته من ضعف. قال عندئذ وهو يشير بحركة أبويّة إلى زوجته وأولاده: قتلُ عجوز! كأنّك إذن لم تشهد أبداً عائلة؟.

ردّد الغريب وقد تقلص جبينه قليلاً: نعم، عجوز.

صاح الجنرال دون أن يجرؤ على النظر إلى ضيفه: اهرب! لقد نُقض ميثاقنا. لن أقتلك. كلا! لن أكون أبداً سادن المقصلة. لكن اخرج إنك تثير اشمئزازنا.

أجاب المجرم باستكانة: أعلم ذلك. ما من بقعة في فرنسة أستطيع أن أضع فيها قدميّ بأمان. ولكن لو أن العدالة تعرف، كمعرفة الله، كيف تحكم على التصرّفات، لو أنّها تتكرّم في أن تتحقق أيّهما الوحش الشرير: القاتل أو الضحيّة؛ لبقيت عزيزاً بين الرجال. ألا تخمنون أيّة جرائم سابقة ارتكبها رجل حطّمه فأس؟

twitter @baghdad_library

أقمت نفسي حاكماً وجلاداً، حللت محل العدالة البشرية العاجزة. هي ذي جريمتي. وداعاً، يا سيدي. رغم المرارة التي ضمّنتها ضيافتك. سأحتفظ بذكراها. ومايزال في نفسي شعور بعرفان الجميل نحو إنسان في العالم، وأنت هو هذا الإنسان . . . ولكن كنت أود لو تكون أكثر كَرَمًا.

وذهب نحو الباب. وفي تلك اللحظة اقتربت الابنة من أمها وهمست كلمة في أذنها.

- آه! . . . بدرت عن الأم صيحة أرعشت الجنرال كما لو رأى موانا ميتة. وكانت هيلين واقفة. والتفت القاتل بشكل غريزي، وبدا على وجهه نوع من القلق على هذه العائلة.

سأل المركيز: ما بك يا عزيزتي؟

قالت: تريد هيلين أن تلحق به.

واحمر القاتل خجلاً.

قالت هيلين بصوت منخفض: بما أنّ أمي أساءت تفسير بادرة دهشة لا إرادية تقريبًا، فإنني سأحقق أمنيتها وفق تفسيرها.

وبعد أن ألقت الفتاة الشابة نظرة أنفة شبه متوحشة حولها، طأطأت عينيها وبقيت في وقفة مدهشة من التواضع.

قال الجنرال: هيلين، هل صعدت إلى السقيفة حيث وضعت في تلك الغرفة. . . . ؟

- نعم يا أبي.

سأل الوالد بصوت متهدّج بارتعاشة اختلاجية: هيلين، أهي المرة الأولى التي ترين فيها هذا الرجل؟.

- نعم يا أبي؟

- ليس طبيعيًا إذن أن يكون قصدك . . . .

- إن لم يكن طبيعيًا، فهو على الأقل صحيح يا أبي.

- آه! يا ابنتي؟ . . . قالت المركيزة بصوت منخفض إنما بطريقة يسمعها فيها زوجها. هيلين، إنك تخالفين كل مبادئ الشرف، والتواضع، والفضيلة التي حاولت أن أنمّيها في قلبك. فإن كان كل مظهرك كذبًا حتى هذه الساعة المشؤومة، فلا موجب للأسف عليك. أيغريك حدّ الكمال الأخلاقي في هذا المجهول؟ أم هو نوع القدرة الضرورية للأشخاص الذين يرتكبون جريمة؟ . . . إنني أجلّك عن افتراض . . .

ردّت هيلين ببرود: أوه! افترضي كل شيء يا سيدتي.

لكن بالرغم من قوة العزيمة التي برهنت عليها في تلك اللحظة لم يتمكن وهج عينيها أن يمتص إلا بصعوبة الدموع التي ترقرقت فيها. وخمّن الغريب لغة الأم من دموع الابنة. وأطلق نظرة نسر من عينه على المركيزة التي اضطرت أمام قدرة لاتقاوم أن تنظر إلى هذا المغوي الرهيب. بيد أنها شعرت عند التقاء عينيها بعيني ذلك الرجل برعشة في النفس مماثلة للرجّة التي تنتابنا عندما نشاهد أحد الزواحف الخطرة أو نلمس زجاجة ليد الكهربائية.

صاحت مخاطبة زوجها: ياصديقي، إنّه الشيطان، إنّه يخمّن كل شيء.

نهض الجنرال ليمسك بشريط قرع الجرس.

قالت هيلين للقاتل: سيتخلّص منك.

ابتسم الغريب، وتقدّم خطوة، وأمسك ذراع المركيز وأجبره على أن يتحمّل نظرة رمته بالخَدَر وجرّدته من طاقته.

قال: سأدفع ثمن ضيافتك وبذلك نكون متخالصين سأجنّبك عاراً بتسليم نفسي، فبعد كلّ حساب، ماذا سأفعل الآن في هذه الحياة.

twitter @baghdad_library

أجابته هيلين وهي توجه إليه رجاءً لايبرق إلا في عيني شابّة: يمكنك أن تتوب.

قال القاتل بصوت رنّان وهو يرفع رأسه بأنفه: لن أتوب أبدًا.

قال الأب لابنته: إنّ يديه ملطّختان بالدم.

أجابت: سأمسحهما له.

تابع الجنرال دون أن يغامر بالنظر إلى الغريب: لكن ألا تريدين على الأقل أن تعرفي إن كان يريدك؟

تقدّم القاتل نحو هيلين، وجمالها، أيًا كانت الطهارة والخشوع ظاهرتين فيه، يبدو وكأنه يضيء بنور داخلي، تلوّن انعكاساته وتبرز إن صحّ القول، أدق تقاطيعها ومظاهر فتنتها الأكثر رقّة. وبعد أن ألقى نظرة عذبة، إنّما ما تزال رهيبة بلهيبها، على تلك المخلوقة الرائعة قال وهو يغالب انفعالاً عنيفًا: أليس حبًا خالصًا لك، لذاتك، أن أتخلى عن ساعتَي وجود باعهما لي أبوك وأرفض تضحيتك؟

صاحت هيلين بنبرة تقطع نياط القلوب: وأنت أيضًا ترفضني، وداعًا إذن للجميع، سأذهب للموت.

هتف الأب والأم معًا: ماذا يعني هذا؟

بقيت صامتة وخفضت عينيها بعد أن رمَت المركيزة بنظرة متسائلة فصيحة، ومنذ اللحظة التي حاول فيها الجنرال وزوجته، قولاً وفعلاً، مكافحة الحظوة الغريبة التي انتحلها الرجل المجهول لنفسه ببقائه وسطهم، وما أطلقه هذا الأخير من أشعة مدوّخة تنبثق من عينيه. فقد خضعا لفتور لايمكن تعليله، ولم يساعدهما عقلهما المتخدر على دفع القوة غير الطبيعية التي رزحا تحتها؛ وغدا الهواء ثقيلاً بالنسبة لهما، وكانا يتنفسان بصعوبة دون أن يستطيعا اتهام من يجور عليهما هذا الجور، رغم أن صوتًا داخليًا جعلهما لايجهلان أن هذا

الرجل الساحر هو سبب عجزهما. ووسط هذا الألم المعنوي المبرح أدرك الجنرال أن جهوده يجب أن تهدف إلى التأثير على عقل ابنته المتداعي. فأحاط خصرها بذراعه وسار بها إلى فتحة نافذة، بعيداً عن القاتل.

قال لها بصوت منخفض: يا ابنتي العزيزة، إن كان حبًّا غريبًا ولد فجأة في قلبك فحياتك الممتلئة بالبراءة، وروحك النقيّة والورعة قدّمتا لي براهين عديدة عن خلقك تشجعني على الافتراض أن لديك القدرة الضرورية على كبح بادرة جنون. إن سلوكك يخفي سراً. إيه! تأكّدي أن قلبي مفعم بالتسامح، ويمكنك أن تُسرّي له بكل شيء حتى لو مزقته، فسأتمكن يا ابنتي من إسكات آلامي والمحافظة على إحاطة اعترافك لي بكتمان مطلق. لنر، هل تغارين من حبنا لأخويك وأختك الصغيرة؟ هل في عمق روحك هموم حب؟ هل أنت تعيسة هنا؟ ألا تتكلمين؟ اشرحي لي الدوافع التي تحثّك على ترك عائلتك، وهجرها، وحرمانها من مصدر جاذبيتها الكبرى، وابتعادك عن أمك، وأخويك، وأختك الصغيرة.

أجابت: أبي، لست غيرى من أحد، ولا مغرمة بأحد، حتى ولا بصديقكم الدبلوماسي السيد ذي فاندنس.

شحب لون المركيزة، وكانت ابنتها تلاحظها فتوقّفت ثم استأنفت:

- ألا يجب علي عاجلاً أو آجلاً الذهاب للعيش في كنف رجل؟

- هذا صحيح.

تابعت: هل يمكننا أن نعلم بأي كائن سنربط مصيرنا؟ أما أنا فإنني أثق بهذا الرجل.

قال الجنرال وهو يرفع صوته: ابنتي، أنت لاتدركين ما ينتظرك من شقاء.

- إنني أفكر بشقائكم...

قال الأب: أيّة حياة!

twitter @baghdad_library

أجابت الابنة متمتمة : حياة امرأة .

صاحت المركيزة مطلقة تعليقها على عبارة ابنتها : يالخبرتك وتعالمك .

- سيدتي ، إن الأسئلة تملي عليّ الإجابات ، لكن إن رغبت يمكنني أن أكون أكثر صراحة ووضوحًا .

- قولي كل شيء ، يابنتي ، فأنا أم . وهنا نظرت الابنة إلى أمّها . وهذه النظرة دفعت المركيزة إلى وقفة استراحة . واستأنفت بعدها القول :

- هيلين ، سأتحمّل ملاماتك ، وأفضّلها ، إن كان لك عليّ لوم ، بدلاً من أن أراك تتبعين رجلاً يهرب منه كل الناس مرتعبين .

- أنت ترين يا سيدتي أنه سيكون وحيدًا دوني .

صاح الجنرال : كفى ، ياسيدتي ، ليس لنا إلا ابنة واحدة ، ونظر إلى مُوانا ، وهي ما تزال نائمة . وتوجه إلى هيلين بقوله : سأحبسك في دير .

أجابت بهدوء يثير القنوط : ليكن يا أبي ، وسأموت فيه ، ولن تكون مسؤولاً عن حياتي وعن روحه إلاّ أمام الله .

أعقب صمت عميق فجأة هذه الكلمات ؛ ولم يجسر الحاضرون عند هذا المشهد وكلّ ما فيه يكدّر إحساسات الحياة الاجتماعية العامة أن يتبادلوا النظرات فيما بينهم ؛ وفجأة لاحظ المركيز مسدساته فتناول أحدها وصلاه بخفة ووجهه نحو الغريب ، والتفت الرجل عند سماع ضجة الصلي ، وألقى نظرة هادئة وثاقبة على الجنرال ، فتراخت ذراعه بفتور لايقهر وتهدّلت بثاقل ، وسقط المسدس على السجادة . . .

قال الأب عندئذ وهو متداعٍ من هذا الصراع المريع : أنت حُرّة يا ابنتي ، عانقي والدتك إن وافقت . أمّا أنا فلا أريد أن أراك أو أن أسمعك . . .

قالت الأم للابنة الشابة : هيلين ، فكري بما ستعانين من بؤس .

انطلقت من صدر القاتل العريض نوع من الحشرجة إليه الأبصار، واصطبغ وجهه بتعبير مستخفّ.

صاح به الجنرال وهو ينهض: كلّفتني الضيافة التي منحتك إياها ثمنًا غاليًا جداً. لم تكن قد قتلت منذ قليل إلا عجوزاً، أما هنا فإنك تقضي على عائلة بكاملها. ومهما حدث، فسيحلُّ البلاء بهذا البيت.

سأله القاتل وهو يثبت فيه نظره: وإذا كانت ابنتك سعيدة؟

أجاب الأب وهو يبذل جهداً فائقًا: إن كانت سعيدة معك، فلن أتأسف عليها. ركعت هيلين بخجل أمام أبيها، وقالت له بصوت ملاطف:

أحبك ياأبي وأجلّك، سواء أغدقت عليّ كنوز طيبتك، أو قسوة نقمتك، لكنني أتوسل إليك كي لاتكون كلماتك الأخيرة كلمات غضب.

لم يجرؤ الجنرال على أن يتأمل ابنته. وفي تلك اللحظة تقدّم الغريب وألقى على هيلين ابتسامة حوت في آن واحد شيئًا ما جهنميًا وآخر سماويًا. وقال لها:

- أنت يا من لم يرعبها قاتل، ياملاك الرحمة، تعالي، بما أنك عازمة على أن تعهدي لي بمصيرك[1].

- هتف الأب: غير معقول!

وجّهت المركيزة لابنتها نظرة خارجة عن المألوف، وفتحت لها ذراعيها، فأسرعت هيلين لترتمي في حضنها باكية، وهي تقول:

- وداعًا، وداعًا يا أمي.

ثم بادرت هيلين بجرأة الغريب بإشارة أرعشته. وبعد أن قبّلت يد أبيها، وعانقت بسرعة، إنما دون متعة، موانا وآبل الصغير، اختفت مع القاتل.

---

(١) يذكّر هذا المشهد بقصة ايزيدورا في «ملموث» لما تورن حين يطلب المسافر من تلك التي تزوجّها سراً أن تنسى.

twitter @baghdad_library

صاح الجنرال وهو يستمع إلى خطوات الهاربين: من أين ذهبوا: ثم تابع موجّهًا الكلام لزوجته: سيدتي، يخيّل إلي أنني أحلم، هذه المغامرة تخفي عني سرًا؛ وأنت تعرفينه.

ارتعشت المركيزة وأجابت: منذ بعض الوقت غدت ابنتك عاطفية مولعة بقصص الحبّ والمغامرات ومتحمسة لها بشكل فريد، رغم عنايتي بكبح هذا الجموح في طبعها...

- ليس هذا واضحًا...

ولكن خيّل للجنرال سماع وقع خطوات ابنته والغريب في الحديقة فتوقف عن الكلام، وفتح النافذة بسرعة وهو يصيح: - هيلين.

وضاع هذا الصوت في الليل كأنّه نبوءة باطلة. وينطق هذا الاسم الذي لم يلق عليه جوابًا في العالم، أحبط الجنرال كفعل رقية السحر الذي كبلته به قدرة شيطانية. وأبرق في خاطره نوع من الإشراق، ورأى بوضوح المشهد الذي مرّ به، ولعن الضعف الذي طرأ عليه ولم يفهمه، وانتابته حمّى رعشة انطلقت من قلبه إلى رأسه فقدميه، وعاد كما كان رهيبًا، توّاقًا إلى الانتقام، وأطلق صيحة مرعبة:

- النجدة! النجدة!

وهرع إلى أشرطة الأجراس وسحبها حتى كاد يقطّعها، وبعد أن أحدث دوي رنّات غريبة، استيقظ جميع خدمه مذعورين، أمّا هو فاستمر في الصياح، وفتح نوافذ الشارع ونادى الدرك، وهرع إلى مسدساته، وأطلق منها النار ليُحثّ الفرسان على سرعة السير ولتشجيع خدمه، ودعوة الجيران. وعرفت الكلاب صوت معلمها فأخذت تنبح؛ والخيل تصهل وتضرب الأرض بحوافرها، وعمت بلبلة مريعة وسط ذلك الليل الهادئ. وبنزوله السلالم ليجري وراء ابنته، رأى الجنرال خدمه يفدون من جميع الأنحاء مذعورين فصاح بهم.

- ابنتي؟ خُطفت هيلين. اجروا إلى الحديقة! راقبوا الشارع! افتحوا لرجال الدرك! ابحثوا عن القاتل!

وأسرع فحطّم في فورة غضب السلسلة التي تقيّد كلب الحراسة الضخم وهو يحثّه بالقول:

- هيلين! هيلين!

وقفز الكلب كنمر، وهو ينبح بغضب، وانطلق في الحديقة بسرعة لم يتمكن الجنرال عندها من اللحاق به وفي تلك اللحظة سُمِعَ وقع جري الخيل في الشارع، وأسرع الجنرال يفتح الباب بنفسه للدرك وصاح:

- أيّها الرقيب، هيّا اقطع طريق الهرب عن قاتل السيد دي موني. ذهب مع ابنتي عبر بساتيني اضرب نطاقًا حول طرقات هضبة بيكاردية، وسأذهب لأتحرى جميع الأراضي، والمتنزهات والمنازل. وتوجه إلى خدمه يأمرهم: وأنتم راقبوا الطريق من الحاجز وحتى فرساي.

إلى الأمام جميعًا!.

وتناول بندقية حملها إليه وصيفه، وانطلق في البساتين، وهو يصيح بكلبه: ابحث! وسمع نباحًا مرعبًا يأتي من بعيد فتوجّه إلى الناحية التي سمع منها هرير الكلب.

حتى الساعة السابعة صباحًا لم تسفر تحريات الدرك، والجنرال وخدمه وجيرانه عن نتيجة. ولم يعد الكلب، وهدّ التعب المركيز وأضناه الحزن، فعاد إلى صالونه، وقد رآه خاويًا رغم أن أولاده الثلاثة موجودون فيه؛ وقال مخاطبًا امرأته:

- كنت باردة تمامًا مع ابنتك. ثم أضاف: انظري إذن ماذا بقي لنا منها؛ وأشار إلى النول حيث رأى بدء تطريز زهرة. كانت هنا منذ لحظة. أما الآن فقد ضاعت! وبكى وهو يخفي رأسه بين يديه، وبقي لحظة صامتًا لايجرؤ على تأمّل هذا الصالون الذي كان منذ حين يقدم له أمتع لوحة سعادة منزلية. وكانت أنوار النهار تصارع

twitter @baghdad_library

أضواء المصابيح المحتضرة، والشموع تحرق حواشيها الورقية، وكل شيء يتوافق مع قنوط الأب.

قال بعد لحظة صمت وهو يشير إلى النول: يجب تحطيم هذا، لا أستطيع أن أرى شيئًا يذكّرني بها...

كانت ليلة عيد الميلاد الرهيبة التي فجع بها المركيز وزوجته بفقد ابنتهما البكر، دون أن يتمكنا من مقاومة السيطرة الغريبة الممارسة من خاطفها غير المتعمّد، بمثابة إنذار وجهه إليهما الحظ، فتفليسة وكيل بنكي أدت إلى إفلاس المركيز. ورهن أملاك امرأته في محاولة مضاربة في البورصة ليعوّض على العائلة ثروتها الأولى، لكن هذا المشروع أدى إلى إفلاسه التام، ودفعه القنوط إلى محاولة كل شيء فهاجر[1]، وانقضت ست سنوات على سفره، ولم تصل أخباره إلا نادراً إلى عائلته، إنما قبل عدة أيام من اعتراف إسبانية باستقلال الجمهوريات الأمريكية أعلن عن موعد عودته.

وهكذا ففي صباح يوم جميل، وُجد عدة تجار فرنسيين متلهّفين للعودة إلى وطنهم، يحملون ثروات مكتسبة بجهود أعمال طويلة، ومخاطر أسفار شاقة، أقدموا عليها في المكسيك أو في كولومبية ووُجدوا على بعد عدة فراسخ من بوردو، على سفينة شراعية إسبانية، ومنهم رجل شاخ من التعب أو الحزن أكثر من تأثير السنين. وبدا مستنداً على الدرابزين غير متأثر بالمشهد الذي يطل عليه المسافرون المتجمعون على ظهر السفينة بعد أن نجوا من مخاطر الإبحار، واجتذبهم جمال طقس النهار، فصعدوا جميعاً على جسر السفينة كأنهم يريدون تحية أرض الوطن. فمعظمهم يرغبون رغبة عارمة في رؤية المنارات على البعد، وبنايات غاسقونية، وبرج كوردوان، وهي تختلط مع تكاوين خيالية من بعض غيوم بيضاء ترتفع في

(١) كان المركيز دي إغلمون أحد ضحايا نوسنجن في قصة «بيت نوسنجن» مما دفعه للذهاب إلى أمريكة بحثًا عن الثروة.

الأفق. ولولا الحاشية الفضية التي تتلاعب أمام السفينة، ولولا الثلم الطويل الذي يمّحي سريعًا خلفها لخيّل للمسافرين أنهم ساكنون وسط المحيط، لشدة هدوء البحر، ولنقاء السماء الرائع، وعمق لون القبة التي تتدرّج تدرّجًا حساسًا لتختلط بلون المياه المزرقّة وتسجّل نقطة التقائها بخط يبرق لمعانه كبريق النجوم، والشمس تلألئ ملايين الوجيهات على امتداد سعة البحر، حتى لتبدو سهول الماء الفسيحة أكثر ضياءً من جميع آفاق القبّة السماوية. كانت جميع أشرعة السفينة منتفخة بريح رائعة الرقة. وهذه الأبسطة بمثل بياض الثلج؛ وهذه الأعلام الصفراء المرفرفة، وهذه المتاهة من الحبال ترتسم بدقة متناهية في عمق الهواء اللامع، وفي السماء والأوقيانوس؛ ودون أن تتلقى أيّة ألوان إلا الظلال التي تلقيها الأشرعة المضبَّبة. يوم جميل، وهواء منعش، ومنظر الوطن، وبحر هادئ، وحفيف أمواج كئيبة، وسفينة جميلة وحيدة تنزلق فوق مياه الأوقيانوس كامرأة تسرع الخطا إلى موعد غرام. إنّها لوحة ممتلئة بالتناغم، ومشهد يمكن للروح البشرية أن تعانق فيه مجالات لاتتبدل انطلاقًا من نقطة كلها حركة. مفارقة مدهشة بين العزلة والحياة، والصمت والضجّة، دون إمكان معرفة أين الضجّة والحياة، وأين العدم والصمت. وهكذا فما من صوت بشري يعكّر هذا السحر السماوي؛ فالقبطان الإسباني، وبحارته، والمسافرون الفرنسيون، جلوس أو وقوف، غارقون جميعًا في وجْد ديني ممتلئ بالذكريات، والخمول يرنّق في الجو، والوجوه المشرقة تعبّر عن نسيان كامل للهموم الماضية، وهؤلاء الرجال يتأرجحون على هذه السفينة الوديعة كما في حلم ذهبي. غير أن الرجل الهرم المستند إلى الدرابزين. كان ينظر إلى الأفق بين وقت وآخر بنوع من القلق، وعلائم ريبة من صروف الدهر مرتسمة على قسماته، كان يبدو خائفًا ألا يطأ أرض فرنسة رغم قربه منها. هذا الرجل هو المركيز الذي واتاه الحظ لم يبق أصم أمام صرخات قنوطه وجهوده. وبعد خمس سنوات من المحاولات والأعمال الشاقة، وجد نفسه مالكًا لثروة ضخمة. وفي تلهفه لرؤية بلاده من جديد، وتحقيق سعادة عائلته، سلك مسلك بعض تجار هافانا الفرنسيين، بالإقلاع معهم على مركب إسباني متوجّه إلى بوردو. غير أن خياله التعب من توقّع المصيبة رسم له الصور

twitter @baghdad_library

الأكثر حلاوة عن سعادته الماضية، وخيّل إليه وهو يرى عن بعد الخطّ الأسمر الذي يرسم حد اليابسة أنّه يُنعم النظر بزوجته وأولاده. تصوّر مجلسه في المنزل العائلي، وقد نَعَم فيه بالعناق والقُبل، وبدت له موانا صبيّة، مفعمة بنضرة الشباب. وعندما ارتسمت هذه اللوحة الخيالية في ذهنه ترقرقت الدموع في عينيه، وعندئذ، وكأنه أراد أن يخفي تأثره، نظر إلى الأفق الرطب المعاكس للخطّ الأسمر المشير إلى اليابسة وقال:

- إنّه هو، إنّه يتبعنا.

صاح القبطان الإسباني: من هو؟

أجاب الجنرال بصوت منخفض: مركب.

عقّب القبطان غوميز: رأيته البارحة. وتأمّل الفرنسي كأنه يسأله وهو يهمس في أذنه: إنه كان يطاردنا باستمرار.

ردّ العسكري الهرم: ولا أعلم لماذا لم يدركنا إذ أنّه أفضل شراعًا من سان فرديناند مركبك التعس.

- ربّما أصابه عطل في هذا الممر المائي.

صاح الفرنسي: هاهو يلحق بنا.

همس القبطان: إنّه مركب قرصنة كولومبي، ومانزال على بعد ستة فراسخ من الأرض، وقد خفّ الهواء.

- إنه لايجري بل يطير، كأنه يعلم أن فريسته ستفلت من قبضته خلال ساعتين. يالجسارته!

صاح القبطان: إنه هو؟ آه! لم يلقّب عُطيل عبثًا، لقد أغرق مؤخراً فرقاطة إسبانية، وأنا لا أخشى غيره، لأنني لم أكن أجهل أنه يتجول في منطقة الأنتيل... ثم تابع بعد وقت استراحة نظر فيها إلى أشرعة مركبه: آه! آه! إن الريح تهبّ، وسنصل، يجب ذلك، لأن الباريسي لايرحم.

- أجاب المركيز، وهاهو بدوره يصل أيضاً.

لم تعد المسافة الفاصلة بين عُطيل والسفينة الإسبانية أكثر من ثلاثة فراسخ، وبالرغم من أن طاقم السفينة لم يسمع محادثة المركيز والقبطان غوميز، فقد قاد ظهور هذا المركب الشراعي معظم البحارة والركاب إلى المكان الذي وُجد فيه المتحاوران، لكن الجميع حسبوا المركب المقبل سفينة تجارية، وراحوا يتأمّلونه باهتمام، صاح بعده أحد البحارة بنبرة قويّة: قسماً بسان جاك سنُصلى ناراً؛ هوذا القبطان الباريسي.

عند هذا الاسم الرهيب، انتشر الرعب على السفينة، وحلّت فوضى لايمكن الإعراب عنها. وحفّز القبطان الإسباني بكلماته بحارته على سرعة الحركة، إذ أنّه أمام هذا الخطر يريد أن يصل إلى البرّ مهما بلغ الثمن. وأراد أن ينشر قلوعه المربّعة العالية والمنخفضة كلها بسرعة، على يمين السفينة ويسارها ليهيّئ للريح كامل مساحة سطوح الأشرعة التي تزود الصواري. ولكن لم تتمّ هذه المناورات دون التعرّض لصعوبات عديدة لا يبالي بها بالطبع الطاقم الماهر الذي يثير الإعجاب في المركب الحربي. وبالرغم من أن عطيل كان يطير كالسنونو بفضل توجيه أشرعته، فقد بدا وكأنه لاينقص كثيراً في الظاهر المسافة الفاصلة بينه وبين السفينة مما ملأ نفوس الفرنسيين المسافرين بالأوهام العذبة. وفجأة وبعد جهود هائلة، وفي اللحظة التي بدت فيها سان فرديناند تتوقّع انطلاقة جديدة، بعد مناورات ماهرة ساعد بها غوميز نفسه بالصوت والحركة، أعقبت حركة دفّة خاطئة، متعمّدة دون شكّ، وضع نوتي الإشارة فيها السفينة بشكل منحرف. وضربت الريح الأشرعة جانبياً فتخلخلت فجأة وتثنت وأوشكت أن تنطوي والتفت حبالها وانقصف الصاري الخارجي ثم اقتلع وانتاب القبطان غضب فائق الوصف جعله أكثر بياضاً من أشرعته، وبقفزة واحدة وصل إلى نوتي الإشارة لكنه وهو الغاضب أخطأه بضربة خنجر إنما نجح في الإمساك به ورفعه وإلقائه في البحر[1]، وأمسك بالدفّة، وحاول أن يصحّح

(١) مشهد مفتعل! فلماذا ينتظر القرصان ولديه جاسوس على متن السفينة التجارية وهو يلاحقها منذ مدة، اقترابها من الشواطئ الفرنسية؟!

twitter @baghdad_library

الانحراف الهائل الذي غير مسار سفينته الجرينة الطيّبة . وترقرقت دموع القنوط في عينيه ؛ إذ أننا نحسّ بالأسى من خيانة تقلب نتائج موهبتنا أكثر من معاناة موت محتّم ، إنّما الآن كلّما زدات شتائم القبطان قلّت نتائج العمل المجدي ؛ وأطلق بنفسه مدفع الإنذار ، مؤملاً أن يُسمَعَ على الساحل . وفي تلك اللحظة رد القرصان ، بعد أن وصل بسرعة غير متوقّعة ، بطلقة مدفع وقعت قذيفته على بعد عشر قامات من سان فرديناند .

صاح الجنرال : ياللروعة ! كم يجيد التصويب ، يبدو أن مدافعهم معدة خصيصاً لإصابة الهدف .

أجاب أحد البحارة : أوه ! عندما يتكلم هذا ، يجب الصمت . فالباريسي لايخشى البوارج الإنكليزية .

صاح القبطان بلهجة قنوط بعد أن وجه منظاره باتجاه اليابسة فلم يظهر له شيء : قُضي الأمر ، إننا بعيدون عن فرنسة أكثر مما كنت أعتقد .

عقّب الجنرال بقوله : ولماذا تهتم ؟ فجميع ركابك من الفرنسيين ، وقد استأجروا سفينتك وهذا القرصان باريسي ، كما تقولون ، وما دام الأمر كذلك فارفعوا علماً أبيض و . . .

قاطعه القبطان : وسيغرقنا ، أليس لديه ، حسب الظروف ، كل ما يلزم عندما يريد اقتناص غنيمة ثرية .

- آه ! نعم ، إنّه قرصان .

قال البحار وقد انتابه الذعر : قرصان ! وهو بارع في ظهوره متقيداً بالقانون ، أو هو يعرف أين يضرب ضربته .

وما أن أنهى كلامه حتى سُمع دوي قذيفة مدفع ثانية ثقبت هيكل سان فرديناند .

قال القبطان بمظهر حزين : أوقفوا الحركة .

قام الملاّح الذي دافع بحماسة عن استقامة الباريسي سريعًا بتنفيذ هذا الأمر بمهارة.

وانتظر بحّارة السفينة خلال نصف ساعة قاتلة وهم فريسة الهلع الأكثر شدّة، فسان فرديناند تحمل أربعة ملايين قرش تشكل ثروة خمسة مسافرين، عدا ثروة الجنرال التي تبلغ مليونًا ومئة ألف فرنك. أخيرًا ظهر مركب عطيل على بعد عشرة أضعاف مرمى بندقية، وبدت فوّهات مدافعه الاثني عشر مستعدّة لإطلاق النار، وهو مدفوع بريح كأن الشيطان هيّأها خصيصًا له؛ لكن عين البحار الماهر تخمّن بسهولة سرّ هذه السرعة، إذ يكفي تأمّل انسياب السفينة القرصانية للحظة، وشكلها المتطاول، وضيقها، وعلو صواريها، وتفصيل أشرعتها، وخفّة تجهيزاتها، والسهولة التي يتمكن فيها جَمْع بحارتها المتحدين كرجل واحد من إدارة التوجيه الكامل للمساحة البيضاء التي تقدّمها أشرعتها. كل شيء يشير إلى مدى القدرة الفائقة والأمان في هذه المخلوقة الخشبية الرشيقة، السريعة، البارعة كحصان سبق أو طير جارح. كان طاقم مركب القرصان صامتًا مستعدًا، في حال المقاومة، على افتراس السفينة التجارية المسكينة التي بقيت لحسن حظها ساكنة مثل تلميذ كشف معلمه أخطاءه.

هتف الجنرال وهو يشدّ مصافحًا يد القبطان الإسباني: لدينا مدافع!

ألقى هذا الأخير على العسكري الهرم نظرة مفعمة بالجرأة والقنوط وقال له: ولكن أين الرجال؟ نظر المركيز إلى طاقم سان فرديناند وارتعش. كان التجار الأربعة شاحبين، مرتعبين، والبحّارة مجتمعين حول واحد منهم، ويبدو أنّهم يتشاورون لينحازوا إلى عطيل، فقد كانوا يتأمّلون مركب القرصان بفضول جشع. وكان القبطان ورئيس البحارة والمركيز وحدهم يتبادلون بالنظر أفكارًا شهمة.

قال المركيز: آه! أيّها القبطان غوميز، ودّعت في السابق بلادي وعائلتي والقلب ممتلئ حرارة. فهل يجب أيضًا أن أتخلى عنهم في اللحظة التي جئت أحمل

twitter @baghdad_library

فيها الفرح والسعادة إلى أولادي. التفت الجنرال ليلقي في البحر دمعة غضب فأبصر نوتي الإشارة يسبح باتجاه مركب القرصان.

أجاب القبطان: هذه المرة ستودّعهم نهائيًا دون شك.

نظر الفرنسي إلى الإسباني نظرة حمقاء أرعبته. وفي تلك اللحظة كان المركبان قد تلاصقا جنبًا إلى جنب تقريبًا، ومن منظر طاقم المركب العدو أيقن الجنرال بصدق نبوءة غوميز المشؤومة، فإلى جانب كل حجيرة فيه يتجمّع ثلاثة رجال يبدون بمظاهر أجسامهم الرياضية، وملامحهم المربّعة وأذرعتهم العصبية العارية كأنهم تماثيل من البرونز، فلو أن الموت أصابهم لبقوا واقفين، والبحارة، المسلحون جيّدًا، نشطون، خفيفو الحركة، شجعان، متهيئون بصمت. وجميع هذه الوجوه القويّة قد لوّحتها الشمس، وقسّتها الأعمال المستمرة، فأعينهم تلمع كأن شرر النار يتطاير منها وهي تعلن عن نباهة قويّة ورغبات جهنمية. والصمت العميق سائد على سطح المركب القرصاني القاتم باكتظاظ الرجال والقبعات، المنبئ عن نظام صارم توجه به إرادة قويّة هؤلاء الشياطين البشريين. وكان القائد يقف عند قاعدة الصاري الكبير، ذراعاه متصالبان، دون سلاح، باستثناء فأس عند قدميه، وعلى رأسه قبعة من لباد عريضة الحواف تقيه من الشمس ويخفي ظلها وجهه، والمدفعيون، والجنود، والبحارة أشبه بكلاب تجثو عند أقدام أسيادها توجه بالتناوب عينيها على القبطان زعيمهم وعلى السفينة التجارية. وعندما تلامس المركبان أيقظت الرجّة القرصان من أحلام يقظته، وهمس كلمتين في أذن ضابط شاب كان على مقربة منه. فصاح الضابط: خطاطيف الاقتحام!

وبسرعة عجيبة شبكت سان فرديناند بعطيل، ووفقًا للأوامر المعطاة بصوت منخفض من القرصان، ومكرّرة بصوت عال من الضابط؛ كان الرجال المحددون لكل مهمة يذهبون كطلاّب مدرسة إكليركية أثناء توجههم إلى القداس ويهرعون إلى سطح السفينة، يوثقون البحارة والمسافرين ويستولون على الكنوز. وفي لحظة نُقلت الدنان المملوءة بالقروش، والمؤن وطاقم بحارة سان فرديناند إلى سطح عُطيل.

وأحسّ الجنرال كأنه في كابوس حلم عندما وجد يديه موثقتين وهو ملقى على بالة كأنه رزمة بضاعة. وقامت مداولة بين القرصان وضابطه وبحار يبدو أنه مسؤول عن الطاقم. وعندما انتهى النقاش الذي لم يستمر طويلاً، صفر البحّار إلى رجاله بناء على أمر أعطي له، فقفزوا جميعاً إلى سان فرديناند وتسلّقوا الحبال وبدؤوا يجردونها عن الصواري، ويفكّونها عن الأشرعة وعن الأعتدة بسرعة مماثلة لسرعة جندي يُعري في ميدان القتال زميلاً له مات وينتزع حذاءه ومعطفه وهما هدف جشعه.

قال القبطان الإسباني للمركيز ببرود، وكان قد رصد بعينيه حركات قادة مركب القرصان الثلاثة خلال المداولة، وحركات البحارة التي سبقت النهب المنظّم لسفينته.

- لقد هلكنا؟

- سأله الجنرال ببرود: لماذا؟

أجابه الإسباني: ماذا تريد أن يفعلوا بنا، أدركوا دون شكّ أنّ من الصعب عليهم أن يبيعوا سان فرديناند في أي من مرافئ فرنسة أو إسبانية وسيغرقونها كي لا تربكهم. أمّا بالنسبة لنا فهل تعتقد أنّهم سيتحملون تأمين تغذيتنا إلى أن يجدوا مرفأ مناسباً يطلقون سراحنا فيه؟

ما كاد القبطان ينهي كلامه حتى سمع الجنرال صراخاً رهيباً تبعته ضجة صمّاء، سببها سقوط عدة أجسام في البحر، والتفت فلم ير التجّار الأربعة، بل رأى ثمانية مدفعيين ذوي وجوه صارمة، وماتزال أذرعهم مرفوعة في الهواء، لحظة نظر إليهم فيها العسكري برعب.

قال له القبطان الإسباني ببرود: هذا ما قلته لك.

رفع المركيز رأسه فجأة، كان البحر قد استعاد هدوءه ولم يستطع حتى رؤية المكان الذي غاص فيه رفاقه التعساء. فهم يتدحرجون في هذه اللحظة، وأرجلهم

twitter @baghdad_library

وأيديهم مربوطة، تحت الأمواج، هذا إن لم تكن الأسماك قد التهمتهم. وعلى بعد خطوات منه كان موجّه الدفّة الخائن وبحّار سان فرديناند الذي أشاد سابقًا بقدرة القبطان الباريسي قائد عُطيل، وهما يتحادثان بأخوّة مع القراصنة ويشيران بالإصبع إلى بحارة سان فرديناند الذين يريانهم جديرين بالانضمام إلى طاقم عُطيل. أما الآخرون فقد قام بحّاران فتيّان بربط أقدامهم رغم الشتائم المقذعة، وعند انتهاء الاختيار، قام المدفعيون الثمانية بالتخلص من المحكومين ورموهم دون أي احتفال في البحر. ورأى القرصان بفضول ماكر مختلف الطرق التي سقط بموجبها هؤلاء الرجال، وتكشيراتهم، وعذابهم الأخير، لكن وجوههم لم تعبّر عن سخرية، أو دهشة أو شفقة، فالأمر بالنسبة لهم حدث عادي جداً؛ ويبدو أنهم ألفوه. أمّا الأكبر عمراً فقد فضلوا تأمّل البراميل الممتلئة بالقروش الموضوعة عند قاعدة الصاري الكبير بابتسامة قاتمة ومحدّدة. وكان الجنرال والقبطان غوميز جالسين على بالة يتشاوران بنظرة شبه قاتمة بعد أن وجدا نفسيهما الشخصين الوحيدين الباقيين على قيد الحياة من طاقم سان فرديناند، فالبحارة السبعة الذين اختارهم الجاسوسان بين البحارة الإسبانيين تحولوا بفرح إلى پيروين.

صاح الجنرال فجأة وقد انتابته موجة غضب وأنفة وأسكتت كلّ ألم وحذَر لديه: يا للأنذال العتاة.

أجاب غوميز ببرود: إنّهم يخضعون لحكم الضرورة. فلو صادفت أحد هؤلاء الرجال، ألا تخترق جسمه بطعنات سيفك؟

قال ضابط القرصان وهو يوجّه كلامه للإسباني: أيّها القبطان، سمع الباريسي كلاماً عنك، قيل له إنّك الرجل الوحيد الذي يعرف جيّدًا الخروج من مضائق الانتيل وخفايا سواحل البرازيل، أتريد أن...

- قاطع القبطان الضابط الشاب بصيحة ازدراء وأجابه: أموت بحّارًا، وإسبانيًا أمينًا، ومسيحيًا، أتسمعني؟.

صاح الضابط الشاب: إلى البحر!

عند سماع هذا الأمر أمسك مدفعيان غوميز. صاح الجنرال محاولاً إيقاف القرصانيين: أيّها الجبناء الرعاديد!

قال له الضابط الشاب: لا تتحمّس كثيراً يا صاحبي، وإذا كانت شريطتك الحمراء المتعلّقة بوسام جوقة الشرف ستحظى ببعض إعجاب قائدنا، فأنا لا أبالي بها، وسيكون لي معك بعدقليل حديث قصير.

في تلك اللحظة سمع وقع ضجّة صمّاء لم تختلط بها أيّة صيحة شكوى أو استعطاف، فعرف الجنرال أن غوميز انشجاع مات بحاراً.

صاح وقد انتابته موجة عارمة من الغضب: ثروتي أو الموت!

أجابه القرصان ساخراً: آه! غدوت منطقيًّا. تأكّد الآن أنّك ستحظى بشيء ما من قبلنا. . . . وبإشارة من الضابط، هرع بحّاران يقيّدان رجلي الفرنسي لكن هذا الأخير ركلهما بجرأة غير متوقعة، وتمكن دون أن يستطيع أحد ردعه استلال سيف الضابط القرصان عن جنبه[1]، وبدأ يجول به ويصول بمهارة جنرال خيّالة استبدت به نشوة القتال وهو يهتف:

- آه! أيّها اللصوص، لن تلقوا في الماء كمحارة أحد ضباط نابوليون القدامى.

وانتُزِعت الغدّارات ووجِهَتْ إلى الفرنسي المتمرّد عن قُرب، مما لفت نظر الباريسي المنشغل بمراقبة نقل المعدات التي أمر بالاستيلاء عليها من سان فرديناند؛ ودون أن ينتابه أي انفعال أمسك بالجنرال الشجاع من الخلف، ورفعه بسرعة، وقاده إلى حافة المركب وتهيّأ لإلقائه في الماء كقطعة صارٍ مهملة. وفي تلك اللحظة التقت عين الجنرال بعين الباريسي الضارية وعرف فيه خاطف ابنته، كما عرف الصهر حميّه وهو بين يديه، فردّه بحركة مفاجئة معاكسة للأولى وأبعده عن السقوط في البحر، وكأن المركيز لايزن شيئًا، وأوقفه أمام الصاري الكبير، وارتفعت همهمة على ظهر

(١) نسي بلزاك ما ذكره سابقًا عن شد الوثاق حول يدي المركيز.

twitter @baghdad_library

السفينة، لكن زعيم القرصان وجّه نظرة واحدة إلى رجاله، فساد الصمت العميق فجأة.

قال سيّد القراصنة بصوت جليّ حازم: إنّه والد هيلين، والويل لمن لا يقدّم له جزيل الاحترام! وتعالت صيحات التهليل الفرحة ترن على السطح، وتصاعدت نحو السماء كأنها صلاة في كنيسة، كأنّها أوّل تسبيحة شكر وقفز صبية البحارة يتأرجحون على الحبال، وألقى شبابهم قبعاتهم في الهواء، ورجّ المدفعيون الأرض بأقدامهم وقفزوا في الهواء، وتحرّك كل فرد أوصاح، أو صفر، أوشتم. وأحلّ هذا المظهر الممتلئ حماساً وعصبية القلق والغمّ في نفس الجنرال، وردّه إلى سرّ رهيب، وكانت أوّل صرخة له عندما استرد وعيه: ابنتي! أين هي؟. وألقى سيّد القراصنة على الجنرال إحدى هذه النظرات العميقة التي توقع الاضطراب على الدوام، في النفوس الأكثر إقداماً دون معرفة السبب، فألزمه بالصمت أمام رضى بحارته العارم، السعداء لرؤية ما يتمتع به زعيمهم من تأثير على جميع الكائنات. وقاده نحو سلّم أنزله عليه إلى أن وصل إلى باب قمرة دفعه بعنف وقال: هاهي.

ثم اختفى تاركًا العسكري القديم غارقًا في نوع من الذهول لمنظر اللوحة الظاهرة أمام عينيه. وعند سماع هيلين باب قمرتها يفتح بمثل هذه المباغتة، نهضت عن ديوانة كانت ترتاح عليها، ولما شاهدت المركيز بدرت منها صيحة دهشة. كانت قد تغيّرت كثيراً حتى لتلزم عين أبيها لمعرفتها. فشمس المدارين منحت وجهها الأبيض سمرة جميلة، ولونًا رائعًا أعطياها مسحة شعريّة تنمّ من خلالها عن مظهر كبَر، وجلال حزم، وعمق عاطفة، تتأثر منها أكثر النفوس غلظة. وكان شعرها الطويل الغزير يتساقط خصلاً ثخينة على عنقها الممتلئ نبلاً فيضيف أيضًا مظهر قوة إلى إباء ذلك الوجه. كانت هيلين في وقفتها وحركتها تفجّر ما تمتلك من شعور بقدرتها، وارتياح ظفر يزهو بخفّة حول منخريها الورديين، كما تتجلى سعادة هادئة في مظاهر تفتح جميع محاسنها. كانت تملك في آن واحد ما لا أدري من عذوبة العذراء، وهذا النوع من الاعتزاز الخاص بالمحبوبات الأثيرات. أمَةٌ وسلطانة، تريد أن تُطيع لأنها

تتمكن من أن تسود. كانت في هندام رائع يعبّر عن جاذبية وأناقة، فموسلين الهند كفيل بجميع مظاهر زينتها، لكن الديوانة والوسائد من الكشمير، وسجادة فارسية ثمينة تزين أرضية القمرة الواسعة، وأولادها الأربعة يمرحون عند قدميها، وهم يبنون قصورهم العجيبة الغريبة من قلائد اللآلئ، والحليّ الثمينة، والمصوغات ذات القيمة العالية. وبعض مزهريات من بورسلين سيفر مزخرفة من قبل السيّدة جاكوتو[1]، تحوي أزهاراً نادرة تطيب الجو بعطرها: ياسمين المكسيك، والكاميليا، وبينها ترفرف عصافير أمريكة الأليفة، فتبدو بألوانها كما الياقوت الأحمر، أو السفير الأزرق، أو العسجد المنقوش؛ وبيانو مستقرّ في إحدى الزوايا، وعلى جدران القمرة الخشبية المبطّنة بالحرير الأصفر، كانت ترى هنا وهناك لوحات ذات أبعاد صغيرة لكنها من رسم أفضل الفنانين: مغرب الشمس لغُودن[2] إلى جانب لوحة لتربرغ، وعذراء رفاييل تترنم شعراً مع رسم لجيروده؛ ولوحة لجيراردُو تكشف أخرى لدرولنغ وعلى منضدة من برنيق الصين يوجد طبق من ذهب ممتلئ بثمار شهيّة. أخيراً كانت هيلين تبدو كملكة امبراطورية كبيرة وسط غرفة جلوس جمع فيها عشيقها المتوّج أكثر التحف أناقة على الأرض. وثبت الأطفال على جدّهم عيونًا تبرق حيوية، فهم قد اعتادوا العيش وسط المعارك والعواصف، والصَّخَب، وهم يشبهون هؤلاء الرومانيين الصغار الذين يبدو عليهم فضول الدم والحرب في لوحة بروتوس من رسم داڤيد[3].

صاحت هيلين وهي تمسك أباها وتشدّ به لتتأكّد من حقيقة رؤيتها: كيف أمكن أن أراك هنا؟

- هيلين.

---

(١) ماري ڤيكتوار جاكوتو (١٧٧٨ ـ ١٨٥٥) عملت في مصنع سيڤر، وكانت تنسخ لوحات الرسّامين الكبار على البورسلين، وقد منحها شارل العاشر لقب رسّامة البورسلين الأولى.

(٢) غودن، تيودور Gudin,Th (١٨٠٢ ـ ١٨٨٠): فنان يذكر لأول مرة في الملهاة الإنسانية.

(٣) لوحة لداڤيد عرضت في صالون ١٧٨٩ وهي حالياً في اللوفر.

twitter @baghdad_library

- أبي.

واحتضن كل منهما الآخر معانقًا، ولم تكن معانقة الأب هي الأكثر قوّة ومودّة.

سألت هيلين: كنت على ذلك المركب؟.

أجاب الأب بمظهر حزين وهو يجلس على الديوانة ويتأمّل الأولاد الذين تجمعوا حوله ينظرون إليه بانتباه بريء: نعم، وكدت أهلك لولا...

قاطعته بقولها: لولا وجود زوجي، أقدر ذلك.

صاح الجنرال: آه! لماذا يجب أن أعثر عليك هكذا، ياهيلين، أنت يا من بكيتها بحرارة! يجب إذن أن أتأوه أيضًا على مصيرك.

سألت مبتسمة: لماذا؟ ألا تسرّ لمعرفتك إنني المرأة الأكثر سعادة بين النساء؟

هتف وهو يكاد يقفز مذهولاً: سعيدة؟

استأنفت وهي تتناول يديه وتقبّلهما، وتشدّهما إلى صدرها الخافق، وقد بدت قسمات وجهها، وألق السرور في عينيها، مع تلك الملاطفة أشد تعبيرًا وأكثر جلاءً.

سأل وقد انتابه الفضول للاطلاع على مجرى حياة ابنته ناسيًا كل شيء أمام ذلك المظهر المتهلّل: وكيف ذلك؟

أجابت: استمع يا أبي، إن لي زوجًا، هو العاشق، والخادم، والسيّد، رجلٌ، روحه بسعة هذا البحر الذي لاحدود له، مفعمة بالرقّة كالسماء، أخيرًا هو أحد الأرباب! ومنذ سبع سنوات لم تبدر منه كلمة، أو عاطفة، أو حركة، يمكن أن تنمّ عن تباين مع الانسجام المعبود لأحاديثه، وملاحظاته، وحبّه. هو ينظر إليّ دائمًا وعلى شفتيه ابتسامة صديقة، وفي عينيه شعاع فرح. هناك على ظهر المركب يسيطر صوته الداوي غالبًا على زمجرات العاصفة أو صخب المعارك، لكن هذا الصوت

هنا ناعم، شجيّ كموسيقى روسيني، التي تصلني أعماله. وكل ما يمكن أن تبتكره نزوة امرأة أحصل عليه. بل إنّه أحيانًا يتعدّى رغباتي. أخيرًا أنا ملكة البحر، ومطاعة كسلطانة. ـ أوه! سعيدة، قالت مقاطعة نفسها، سعيدة ليست الكلمة المعبّرة عن مدى غبطتي. إنني أمتلك حصة جميع النساء. الإحساس بالحب، ومدى التضحية من أجل المحبوب، والعثور في قلبه على عاطفة لا متناهية، تضيع فيها روح المرأة على الدوام! قل، أهذه سعادة فقط؟ افترست ألف وجود. وأنا وحيدة هنا. وأنا الأمرة هنا. ولا مخلوقة من بنات جنسي وضعت قدمها على هذا المركب النبيل، حيث فيكتور دائمًا على بعد خطوات عني. ثم استأنفت بتعبير ماكر ناعم: لايمكنه أن يذهب إلى أبعد مما بين مؤخرة السفينة ومقدّمتها. سبع سنوات! حبّ يصمد خلال سبع سنوات، مع هذه الفرحة الدائمة، ومع البرهان على الوفاء في جميع الأوقات، أهو حبّ فقط؟ كلا! أوه! كلا! إنه أفضل من كل ما أعرف في الحياة. واللغة البشريّة يُعجزها التعبير عن سعادة سماوية.

وانهمر سيل من الدموع من عينيها الملتهبتين، وأطلق أطفالها الأربعة آنذاك صرخة شاكية، وهرعوا يتجمعون حولها كما الصيصان حول أمهم. وضرب أكبرهم الجنرال وهو يرمقه بنظرة مهدّدة.

قالت الأم مخاطبة ولدها: آبل، ياملاكي، إنني أبكي فرحًا.

وأجلسته على ركبتيها، وراح الطفل يداعبها بمودّة وهو يحيط عنقها المهيب بذراعيه كشبل يريد أن يلعب مع أمّه.

هتف الجنرال المندهش من جواب ابنته المتحمس: ألا ينتابك الضجر؟.

أجابت: بلى، على الأرض عندما نرسي، ومع ذلك فأنا لا أترك زوجي أبدًا.

ولكنك كنت تحبين الاحتفالات، وحفلات الرقص، والموسيقى!

الموسيقى صوته، والحفلات هي التزيّن والبهرجة من أجله. أليس رضاه عن زينة لي، كإعجاب أهل الأرض طرًا بها؟!.

twitter @baghdad_library

هوذا ما يدفعني فقط كي لا ألقي في البحر هذه الحلي والدُّرر والقلائد وتيجان الجواهر، وهذه الثروات والأزهار وتُحَف الفن التي يغدقها علي وهو يقول لي: هيلين، بما أنك لاتذهبين إلى العالم، فإنني أريد أن يأتي العالم إليك.

- لكن على هذا المركب يوجد رجال، رجال وقحون، رهيبون، ذوو أهواء..

ردت مبتسمة: أدرك ما تعني، يا أبي، إنّما اطمئن، ما من امبراطورة تحاط بالاحترام بقدر ما يُغدَق عليّ منه؛ فهؤلاء الأشخاص متطيّرون، وهم يعتقدون أنني الجنيّة الحارسة لهذا المركب، ولمغامراتهم، ونجاحاتهم. إنّما هو ربّهم، حَدَث مرة واحدة، أن قلّل، في يوم، أحدُ البحّارة من احترامه لي... وأضافت ضاحكة: بالكلام فقط. وقبل أن يعلم فيكتور بالأمر، قام رجال الطاقم بإلقائه في البحر رغم عفوي عنه. إنهم يحبونني كملاكهم الطيّب؛ وأنا أعتني بهم عند مرضهم، وأسعدني أن أنقذت بعضهم من الموت بسهري عليهم بدأب ومواظبة المرأة، فهؤلاء الأشخاص المساكين عمالقة وأولاد.

- وعندما تنشب المعارك؟.

- أجابت: اعتدت عليها. لم أرتعش إلا عند الأولى منها.... والآن ألفت روحي هذا الخطر، وأردفت: عدا عن أنني ابنتك. وأحبّه.

- وإذا هَلَكَ؟

- سأهلك.

- وأولادك؟

- إنّهم أولاد الأوقيانوس والخطر، يشاركون أهلهم الحياة.... وجودنا واحد لاينشطر، نحيا ذات الحياة، ومسجّلون على لوحة قَدَر واحد، ومحمولون على ذات القارب، ونحن ندرك ذلك.

- تحبينه إذن إلى درجة تفضيله على الجميع .

ردّدت : على الجميع . ولكن لامبرّر لتقصي هذا السرّ . انظر إلى هذا الطفل العزيز ، إيه ! إنه هو أيضًا .

وضمّت آبل بحماسة فائقة وهي تغدق القبلات على وجنتيه وشعره . . . .

صاح الجنرال : لكنني لن أنسى أبدًا أنه ألقى بتسعة أشخاص في البحر .

أجابت : كان يجب ذلك ، دون شك ؛ فهو إنساني وشهم ، ويتجنّب سفك الدماء قدر الإمكان ولايقدم عليه إلا لحماية العالم الصغير الذي يتولّجه ولصيانة مصالحه والدفاع عن المبدأ المقدس الذي يدين به . حدّثه عمّا يبدو لك خطأ ، وسترى كيف يقنعك بتغيير رأيك .

قال الجنرال وكأنه يحدّث نفسه : وجريمته ؟

عقّبت برزانة باردة : لكن قد تكون فضيلة ؟ قد تكون عدالة البشر عاجزة عن الاقتصاص له ؟ .

صاح الجنرال : سيقتصّ لنفسه !

سألت : ما هو الجحيم ؟ أليس انتقامًا أزليًا لبعض أخطاء يوم واحد ؟

- آه ! ضللت السبيل . لقد سحرك ، وأفسدك ، إنّك تهذين .

- ابق هنا يومًا واحدًا يا أبي . وستحبّه عندما تستمع وتنظر إليه .

قال الجنرال برصانة : هيلين ، نحن على بعد عدة فراسخ فقط من فرنسة . . .

وارتعشت ، ونظرت من نافذة قمرتها ، وأشارت إلى البحر وهو يبسط مفازات مائه الخضراء الشاسعة وقالت وهي تقرع السجّادة بطرف قدمها : هي ذي بلادي .

twitter @baghdad_library

- ولكن ألا تأتين لتري أمك، وأختك، وأخويك؟

قالت والدموع تخنق صوتها: أوه! نعم، إن أراد، وإن استطاع مرافقتي.

استأنف العسكري بقسوة: لم يعد لديك شيء يا هيلين، لا بلادٌ ولا عائلة؟

عقبت بمظهر زهو وبنبرة ممتلئة نبلاً: إنني امرأته. ثم أضافت وهي تتناول يد والدها وتقبلها: هي ذي، منذ سبعة أعوام السعادة الأولى التي لم تردني منه، وهي ذي الملامة الأولى التي أسمعها.

- وأين وجدانك؟

- وجداني! لكنه هو وجداني. وارتعشت في تلك اللحظة بعنف وقالت: هاهو، حتى في المعركة، ومن بين جميع الخطوات أعرف وقع خطوته على سطح السفينة، وفجأة عبقت الحمرة في وجنتيها، فأشرقت قسماتها، وأبرقت عيناها، وتحولت بشرتها إلى بياض شاحب... بدت السعادة والحب في عضلاتها، وأوردتها الزرقاء وارتعاشة كلّ جسمها بشكل لاإرادي. وتأثّر الجنرال من هذه الحركة الشديدة الحساسية؛ والواقع أن القرصان دخل بعد لحظة، وجلس على كنبة، وانصرف إلى ابنه البكر وأخذ يلعب معه. وساد الصمت لحظة، إذ أن الجنرال غرق في الوقت ذاته في حلم يقظة مماثل للإحساس المبهم بحلم حقيقي، وتأمّل تلك القمرة الأنيقة المماثلة لعش ألسيون* حيث تعيش تلك العائلة عائمة فوق الأوقيانوس منذ سبع سنوات بين السماء والأمواج في عهدة رجل يقودها عبر أخطار الحرب والعواصف كما تقاد عائلة من قبل ربّها وسط الملمّات الاجتماعية... ونظر بإعجاب إلى ابنته، فرآها صورة خيالية لربة بحرية، مفعمة بالجمال، ثريّة بالسعادة، تكشف جميع الكنوز التي تحيط بها أمام كنوز روحها، وبريق عينيها، والشاعرية الفائقة الوصف المتجليّة في شخصيتها ومن حولها. وأبرز هذا الوضع غرابة أدهشته، وسموّاً في المحاكمة والهوى يُعجز الأفكار العادية فخطط المجتمع الباردة والضيّقة تموت أمام

* ألسيون: طير خرافي يعتقد أنه يبني عشه في بحر متميّز بالهدوء والسلام لذلك يُعدّ بشير خير (م. المترجم)

هذه اللوحة. وأحسّ العسكري السابق بجميع هذه الأشياء، وأدرك أن ابنته لن تتخلّى عن حياة بمثل هذه السعة، والخصوبة في المفارقات الممتلئة بحبّ حقيقي، ثم أنّها ذاقت لمرّة الخطر دون أن ينتابها الذعر، ولن تعود أبدًا إلى مشاهد صغيرة لعالم مسكين محدود.

سأل القرصان وهو ينظر إلى امرأته ويقطع حبل الصمت: هل أضايقكما.

أجاب الجنرال: كلاّ، فهيلين صرّحت لي بكل شيء، وأعتقد أننا خسرناها.

- كلاّ، عقّب القرصان بحرارة، فبعد عدة سنوات سيتيح لي التقادم المحقّق لإسقاط التهم العودة إلى فرنسة، وعندها يتنفّى الوجدان ويذعن الرجل بعد تمرّدٍ على قوانينكم الاجتماعية... وصمت أنفًا من تبرير سلوكه.

قال الجنرال مقاطعًا: وكيف يمكنك التخلص من تبكيت الضمير الناتج عن حوادث القتل المرتكبة أمام ناظري.

أجاب القبطان بهدوء: لم تكن لدينا المؤن الضرورية للعيش.

- لكن لو أنزلتم هؤلاء الرجال على الساحل...

- سيقطعون علينا الطريق بواسطة أحد المراكب، ولن نتمكن من الوصول إلى الشيلي.

قال الجنرال مقاطعًا: قبل أن يوجّهوا إنذارًا من فرنسة إلى الأميرالية في إسبانية.

- لكن فرنسة يمكن ألا يرضيها أيضًا قيام شخص ملاحق من قبل محكمة الجنايات فيها بالاستيلاء على سفينة مستأجرة من قبل تجار من بوردو، ولكن ألم تقوموا أحيانًا، في ميدان القتال، بإطلاق عدة قذائف مدفع زائدة عن الحاجة؟

صمت الجنرال وهو خجل من نظرة القرصان، ونظرت إليه ابنته نظرة اختلط فيها الانتصار بالكآبة.

twitter @baghdad_library

قال القرصان بصوت عميق: جنرال، وضعت مبدأ عدم الاقتطاع من أيّة غنيمة، ولكن من المؤكد أن نصيبي من غنيمة سان فرديناند عند اقتسامها سيكون أكبر من ثروتك، فاسمح لي أن أعيد إليك أموالك المغتصبة إنّما بعملة أخرى.

وتناول من دولاب البيانو رزمة من أوراق البنكنوت المالية ودون أن يَعدّ محتواها قدّم مليونا للمركيز. واستأنف حديثه:

- أنت تدرك أن ليس بإمكاني أن أتسلى برؤية المارّة على طريق بوردو... فإن لم تكن قد أغريت بمخاطر حياتنا البوهيمية، ومشاهد أمريكة الجنوبية، وليالي المدارين، ومعاركنا، ومتعة العمل على انتصار راية أمّة فتيّة، أو اسم سيمون بوليفار[1]، فيجب عليك أن تتركنا... وبانتظارك زورق وبعض الرجال المخلصين. ولنأمل لقاءً ثالثًا أكثر سعادة...

قالت هيلين بلهجة حردة: فيكتور، أريد أيضًا قضاء بعض الوقت مع والدي.

- عشر دقائق أكثر أو أقل يمكن أن تعرضنا لمواجهة مع إحدى الفرقاطات، فليكن، فهذا ما يسلّينا قليلاً، ورجالنا متضجّرون.

هتفت المرأة: أوه! اذهب ياأبي، واحمل إلى أختي، وأخويّ، وأضافت... و إلى أمي هذه الضمانات على أحسن ذكرياتي.

وتناولت قبضة من الجواهر، والقلائد، والحلي، وغلّفتها بمنديل كشمير، وقدّمتها بخجل إلى والدها. سألها وقد أثار اهتمامه تردّد ابنته قبل أن تتطرّق إلى ذكر أمها: وماذا أنقل لهم من قبلك؟

---

(١) يبدو أن القبطان الباريسي فرصان كولومبي معاد لإسبانية وفي خدمة بوليفار، لكن يبدو عدم مطابقة تاريخية، فسيمون بوليفار ولد في ١٧٨٣ وحصل على استقلال فنزويلا في ١٨١٩ واستقلال غرنادا الجديدة وجعل منها كولومبية باتحادها مع الاكوادور وحرّر في العام ١٨٢٤ بوليفية بناء على نداء من أهل البيرو. لكن نزاعات داخلية قامت ضمن البلدان المحرّرة، واتهم بوليفار بالدكتاتورية فلجأ إلى المنفى حيث توفي في العام ١٨٣٠.

- أوه هل تشك بروحي! إنني في كل يوم أرجو لهم كل امنيات السعادة.

استأنف الرجل الكهل، وهو ينظر بانتباه الى ابنته، القول: هيلين، لن أراك مجدّدًا بعد اليوم، فهل لي أن أعلم سبب هربك؟.

قالت بلهجة رصينة: هذا السرُّ لايخصّني، سيكون لي حق التصريح لك به، ولكن لم يحن الوقت لذلك. عانيت عشر سنوات من آلام لا تحتمل...

وتوقّفت عن الكلام، ومدت يدها تقدّم لأبيها الهدايا التي خصّت بها عائلتها. وقبل الجنرال، الذي عوّدته أحداث الحرب على أفكار متسامحة في موضوع الغنيمة، الهدايا المقدّمة من ابنته، وراق له أن يعتقد أن القبطان الباريسي، بوحي روح بمثل نقاء روح هيلين وسموها سيبقى رجلاً شريفًا باستمرار مساهمته في الحرب ضد الاسبانيين، وفكّر وهو المعجب بشجاعةالرجال أن من السخف أن يتظاهر بحشمة متكلّفة، وتقدّم فصافح القرصان بحرارة، وقبل هيلين ابنته الوحيدة، بذلك الفيض من الحنين الخاص بالجنود، وأتاح لدمعة أن تتدحرج على ذلك الوجه الذي ابتسم لها بإبائه وتعبيره الرجولي أكثر من مرّة، وقدّم له البحّار المتأثر بشدّة أطفاله ليباركهم، أخيراً تبادل الجميع تحية الوداع بنظرة طويلة لم تخل من مظاهر الحنان.

صاح الجدّ: فلتمتلئ أيامكم سعادة، وانطلق إلى ظهر الزورق.

كان منظر فريد ينتظر الجنرال في عرض البحر. فسان فرديناند، المسلّمة للهب تشتعل كنار قشٌّ عارية، وقد لاحظ البحّارة المنشغلون بإغراقها وجود شحنة رُوْمٍ على متنها، وهو مشروب متوفر بكثرة على سفينة عُطيل، وسرّهم أن يوقدوا كميّة من البُنْش في عرض البحر، وهي تسلية مغفورة لأشخاص تدفعهم رتابة البحر لاغتنام جميع الفرص لتنشيط مظاهر حياتهم. وبالنزول من المركب إلى زورق سان فرديناند المعد من قبل ستة من أشداء البحارة توزع انتباه الجنرال لا إراديًا بين حريق سان

twitter @baghdad_library

فرديناند وابنته المرافقة لزوجها رئيس القراصنة وهما واقفان في مؤخرة مركب عطيل. وأمام كل هذه الذكريات، وبرؤية ثوب هيلين الأبيض الذي يرفرف خفيفًا كأنّه شراع إضافي وبتمييزه على الأوقيانوس ذلك الوجه الكبير الجميل، المهيب إلى حدّ يهيمن فيه على كل شيء، حتى على البحر، نسي بلا مبالاة العسكري أنّه يجذف فوق قبر غوميز الشجاع، ومن فوقه عمود هائل من الدخان يخيّم كسحابة دكناء، وأشعة الشمس التي تخترقه هنا وهناك تلقي عليه ومضات شاعريّة؛ فكأن سماءً ثانية، قبّة قاتمة تلتمع تحتها أنواع من الثريات، ومن فوقها تسود زرقة الجلد غير المتغيرة التي تبدو ألف مرة أكثر جمالاً في هذا التباين العابر؛ وتلك الألوان الغريبة. لذلك الدخان الأصفر حينًا، والأشقر والأحمر والأسود في تدرّجات ضبابية أحيانًا أخرى تغطي المركب الذي يفرقع ويطقطق ويضج، واللهب يصفر وهو يقرض الحبال ويجري على المركب كفتنة شعبيّة تخترق شوارع مدينة، والرُّوم يحدث لهبًا أزرق يتراقص كأن جنيّة البحار حرّكت ذلك السائل الغضوب، كما يد طالب تحرك شعلة بنْش في حفلة سكر وعربدة. لكن الشمس الأكثر قوّة من اللهب الغيور من ذلك البريق المتغطرس، كادت تحجب على البعد رؤية أشعة ألوان ذلك الحريق؛ فكانت كغلالة، أو شبكة تتطاير وسط ذلك السيل من نيرانه. واغتنم عُطيل للهرب هبّة الريح الخفيفة في ذلك الاتجاه الجديد، وراح يتمايل من جهة وأخرى كحنظب• يتأرجح بين نسمات الهواء، ثم سار هذا المركب مسرعًا دون تمرّ باتجاه الجنوب، فكان يختفي حينًا محتجبًا خلف العمود الأيمن الذي يلقي بظله بشكل خيالي فوق المياه ويبدو حينًا آخر وهو يرتفع وفق خطّ منظوري؛ وفي كل مرّة ترى هيلين أباها تلوّح بمنديلها لتحييه من جديد. وما لبث سان فرديناند أن غرق محدثًا فورانًا مسحه الأوقيانوس بسرعة. ولم يبق بعدئذ من كل هذا المشهد إلا غيمة تتلاعب بها الريح. وغدا عُطيل بعيدًا، والزورق يقترب من اليابسة والغيوم تقف

• حنظب Cerf volant: حشرة من مغمدات الأجنحة تتمايل في سيرها.

حاجزاً بين ذلك القارب الواهي والمركب، ورأى الجنرال ابنته للمرّة الأخيرة عبر تشقّقات دخان متموج، وكانت رؤية تنبؤيّة! فالمنديل الأبيض والثوب يبدوان وحدهما في عمق هذه السمرة الداكنة، وبين الماء المائل للخضرة والسماء الزرقاء غاب المركب فلم يَعُد يرى، وغدت هيلين نقطة غير منظورة، خطًا منحلاً رشيقًا، ملاكًا في السماء، فكرة، وذكرى.

بعد أن استعاد المركيز ثروته، توفي مضنى من التعب. وبعد عدة أشهر من وفاته، وفي العام ١٨٣٣، اضطرّت المركيزة أن تصحب موانا إلى مناطق المياه المعدنية في البيرينه فالفتاة الحرود أرادت أن تستمتع بجمال تلك الجبال، وعند عودتها إلى تلك الينابيع بادرت أمّها بالحكاية التالية:

يا الهي، لقد أسأنا، يا أمي، في عدم بقائنا مدّة أخرى في الجبال! كنّا أفضل حالاً من وضعنا هنا. هل سمعت أنّات هذا الطفل البغيض المتواصلة، وثرثرات تلك المرأة التعيسة، التي كانت تتكلم، على الأرجح، بلهجة إقليمية؟ إذ أنني لم أفهم كلمة مما قالته. أي نوع من الأشخاص حلّوا جيرانًا لنا! كانت هذه الليلة من أسوأ الليالي التي مرّت عليّ في حياتي.

أجابت المركيزة: لم أسمع شيئًا، لكن يا ابنتي العزيزة سأذهب لرؤية المضيفة وأطلب منها الغرفة المجاورة، فنكون وحدنا في الشقة، ولن نتزعج من أيّة ضجّة. كيف تجدين نفسك هذا الصباح؟ هل ما تزالين تعبة؟

بعد نطق العبارتين الأخيرتين، نهضت المركيزة متجهة نحو سرير ابنتها وجسّت يدها قائلة:

- هيّا لنرَ كيف أنت؟

- أوه! اتركيني يا أمي، فيدك باردة.

twitter @baghdad_library

واستدارت الفتاة بعد هذه الكلمات متقلّبة على وسادتها بحركة حَرَد، إنّما بظرافة يستحيل على أم أن تستاء منها. وفي تلك اللحظة تصاعدت من الغرفة المجاورة، أنّة ذات نبرة رقيقة متطاولة من شأنها أن تفطر قلب امرأة فهتفت المركيزة:

- ولكنك سمعت هذا طوال الليل، فلماذا لم توقظيني؟ كان بإمكاننا . . . . لكن عبارتها انقطعت بأنّة أكثر عمقًا فاستأنفت المركيزة وهي تخرج مسرعة: هناك إنسان يموت!

هتفت موانا: أرسلي لي بولين بسرعة. أريد أن ارتدي ثيابي.

نزلت المركيزة بسرعة إلى الفناء ووجدت صاحبة النزل وسط عدة أشخاص بدوا يستمعون إليها باهتمام وقالت لها:

- سيدتي، يبدو أنّك وضعت إلى جانبنا شخصًا يعاني آلامًا مبرّحة.

هتفت صاحبة الفندق: آه! لا تحدثيني عن هذا! أرسلت في استدعاء العمدة.

تصوّري إنها امرأة، بائسة مسكينة وصلت البارحة مساءً على قدميها آتية من اسبانية، ليس معها جواز سفر ودون نقود، وتحمل على ظهرها طفلاً يحتضر. لم أستطع أن أرفض قبولها هنا، وتوجّهت هذا الصباح بنفسي لأراها، فعندما حلّت هنا البارحة أحسست بألم مبرح مما تعانيه. يا للمرأة الشابة المسكينة! نامت مع طفلها، وكلاهما يصارع الموت. وقد قالت لي وهي تنتزع دُبلة ذهبية من أصبعها: سيدتي، لا أملك إلا هذه؛ وأعتقد أنها كافية لتسديد أجرة إقامتي هنا، وهي ليست طويلة على ما أعتقد. والتفتت إلى طفلها قائلة: يالصغيري المسكين، سنموت هنا معًا. أخذت دبلتها، وسألتها من تكون. لكنها رفضت أن تبوح لي باسمها. . . أرسلت في طلب الطبيب والسيد العمدة.

صاحت المركيزة: ولكن قدّمي لها كل المساعدات الممكنة والضرورية لها.

يا إلهي، لعل بالإمكان إنقاذها قبل فوات الوقت! سأدفع لك كل النفقات التي تترتب عن ذلك. . .

- آه! يا سيدتي، يبدو أنّها عزيزة النفس جداً، ولا أعلم إن كانت سترضى.

- سأذهب لرؤيتها. . . .

وأسرعت المركيزة متوجهة إلى غرفة المرأة المجهولة دون أن تفكّر بما قد يسبب مرآها وهي ما تزال في ثياب الحداد، من ضيق، لتلك التي قيل عنها أنها محتضرة. وشحب لون المركيزة لمنظر المرأة المجهولة، ورغم الآلام الرهيبة التي غيّرت قسمات تلك المخلوقة، عرفت فيها ابنتها البكر هيلين، أمّا هيلين فانتصبت وألقت صرخة مرتعبة وهي ترى امرأة مجللة بالسواد إلى جانبها، وتهالكت ببطء على سريرها عندما عرفت أن تلك المرأة أمّها.

قالت السيدة دي اغلمون: ابنتي! ماذا يلزمك؟ بولين! . . . موانا! . . .

أجابت هيلين بصوت ضعيف: لايلزمني شيء، تأمّلت رؤية أبي مجدّداً، لكن حدادك ينبئني. . .

لم تنه كلامها؛ بل ضمّت ابنها الى حضنها كأنّها تريد تدفئته، وقبّلت جبينه، ورمت أمّها بنظرة ما تزال تنطق بالملامة رغم أنها مخففة بالصفح، وتجاهلت المركيزة هذا اللوم؛ وتجاهلت أن هيلين ابنة تكوّنت سابقًا ضمن الدموع والقنوط، ابنة الواجب، ابنة كانت سبب متاعبها الكبيرة. وتقدّمت برقّة نحو ابنتها البكر، متذكّرة فقط أن هيلين عرّفتها على مسرّات الأمومة. كانت الدموع تملأ عيني الأم، وصاحت وهي تعانق ابنتها: ـ هيلين! ابنتي. . . . لزمت هيلين الصمت. فقد أحست بطفلها يلفظ النفس الأخير.

في تلك اللحظة دخل الطبيب تتبعه موانا وبولين، وصاحبة النزُل. وكانت المركيزة تضمُّ يد ابنتها الباردة كالجليد بين يديها وتتأملها بقنوط حقيقي. كانت هيلين

twitter @baghdad_library

متهيّجة من نكبة ألمّت بها فقد غرق مركب زوجها البحار القرصان ولم تستطع أن تنقذ منه إلا طفلها الأخير[1]؛ وصاحت بصوت رهيب في وجه أمّها: كل هذا بسببك، فلو أنك كنت لي كما . . .

ردّدت السيّدة دي إغلمون وهي تخنق صوت ابنتها بصيحات عالية: موانا، اخرجي، اخرجوا جميعاً. والتفتت إلى هيلين: رحماك ابنتي، فلنكفّ في هذه اللحظة عن صراعاتنا المؤسفة.

أجابت هيلين وهي تبذل جهداً غير طبيعي: سأصمت، فأنا أمّ، وأعلم وجوب الكتمان عن موانا. . . . أين ولدي؟

دخلت موانا يدفعها الفضول، وقالت تلك الابنة المدلّلة:

- يا أختي، يقول الطبيب. . . .

قاطعتها هيلين: لاجدوى من أي شيء. آه! لماذا لم أمت وأنا في السادسة عشرة من العمر، عندما أردت أن أنهي حياتي! السعادة غير موجودة أبداً خارج القوانين موانا. . . أنت. . .

وماتت وهي تحني رأسها على رأس طفلها بعد أن ضمّته بيدين متشنجتين.

استأنفت السيدة دي إغلمون عندما دخلت إلى غرفتها حيث أجهشت بالبكاء: موانا، أرادت أختك دون شك أن تقول إن سعادة الفتاة لايمكن أن تكون في حياة المغامرات، وخارج الأفكار المتلقاة، وبصورة خاصة لايمكن أن تتحقق بعيداً عن أمّها.

(١) تذكرة بإصبع الله، وأنا ما تزال في القصة نفسها.

twitter @baghdad_library

شيخوخة أم مُذنبة

في الأيام الأولى من شهر حزيران ١٨٤٤ ، كانت امرأة في الخمسين من العمر تقريبًا، لكنها تبدو، أكبر سنًّا من عمرها الحقيقي، تتجول على طول ممرّ في حديقة قصر كبير يقع في شارع بلومه الباريسي، مستمتعة بشمس منتصف النهار. وبعد أن أجرت دورتين أو ثلاث دورات في الممرّ المتعرج قليلاً كي لا يضيع عن نظرها مرأى نوافذ أحد الأجنحة الذي يسترعي انتباهها، جلست على أحد المقاعد نصف الحقلية التي تُعَدّ من أغصان الشجر الفتيّة المزدانة بلحائها. ومن مكان وجود هذا المقعد الأنيق أمكن للسيدة أن تحيط بنظرها، عبر شبك من الأسيجة، الجادات الداخلية التي تنتصب داخلها قبّة الإنفاليد بنصف كرتها المذهّبة البارزة وسط هامات أشجار الدردار؛ وهو منظر يثير الإعجاب وسط الحديقة الأقل مهابة التي تنتهي بواجهة أحد أجمل قصور ضاحية سان جرمن. هناك كل شيء صامت، الحدائق المجاورة، والجادات، والإنفاليد، ذلك أن النهار لايبدأ في ذلك الحيّ النبيل إلا عند الظهر باستثناء نزوة ما، كأن ترغب إحدى السيّدات الشابات التريّض على صهوة حصان، أو أن يتهيأ أحد الدبلوماسيين القدامى لزيارة بروتوكولية. وعندها يستيقظ كل شيء، وماعداها فالكلّ، السادة والخدم، نيام.

كانت السيدة العجوز المبكّرة في يقظتها هي المركيزة دي إغلمون، والدة السيدة دي سان هرين ربّة هذا القصر الجميل. وكانت المركيزة قد حرمت نفسها من كل شيء وخصت ابنتها بكل ثروتها، محتفظة لنفسها بمعاش لمدى الحياة. والكونتيسة موانا دي سان هرين هي آخر أولاد السيدة دي إغلمون، وقد ضحّت المركيزة من أجلها بكل شيء لتؤمّن زواجها بوريث أحد أشهر البيوتات الباريسية.

وكان هذا أمراً طبيعياً جداً. بعد أن فقدت ولدين على التتابع، أحدهما غوستاف، مركيز دي إغلمون الذي قضى جرّاء وباء الكوليرا، والآخر آبل وقد استشهد على أبواب قسطنطينة. وقد ترك غوستاف أولاداً وأرملة، لكن المودّة الفاترة التي كانت تكنّها السيّدة دي إغلمون لولديها ازدادت ضعفاً بانتقالها الى أحفادها. كانت تتصرّف بلباقة وتهذيب مع أرملة ابنها الشابة، إنّما بعاطفة سطحيّة لاتتعدّى الذوق السليم واللياقات الواجب التقيّد بها نحو الأقارب، وقد قامت المركيزة بتصفية حقوق ولديها المتوفين من الميراث بشكل تام؛ وخصت ابنتها الأثيرة موانا بكل مدّخراتها وأملاكها الخاصّة. وقد كانت موانا، على الدوام، وهي الجميلة، الجذابة منذ صغرها، موضع إحدى هذه الإيشارات[1] الفطرية أو اللاإرادية لدى الأمهات؛ إيشار تعاطفات مشؤومة تبدو غامضة، أو أن الملاحظين يعرفون جيّداً تفسيراتها. فوجه موانا الفاتن، ورنّة صوت تلك الابنة المحبوبة، وتصرّفاتها، وسلوكها، ومظهرها، وحركاتها وكلُّ ما فيها، يوقظ لدى المركيزة الانفعالات الأكثر عمقاً التي يمكن أن تثير أو تقلق أو تسرّ قلب أم. فمبدأ حياتها الحاضرة، وحياتها المستقبلية، وحياتها الماضية، رهن قلب تلك الابنة الشابة التي خصّته بكل كنوزها. فموانا لحسن الحظ قد بقيت على قيد الحياة بعد أن قضى أخوة أربعة لها؛ إذ أن السيّدة دي إغلمون فقدت في الواقع، وبالطريقة الأكثر تعاسة، وفقاً لما يرويه أبناء المجتمع، ابنة ظريفة بقي مصيرها مجهولاً تقريباً، وصبياً صغيراً أودى به حادث مروّع[2] وهو في الخامسة من العمر. والمركيزة ترى دون شك، نعمة من السماء، فيما خصته من نصيب طيّب للابنة الأثيرة إلى قلبها، وهي لاتحتفظ إلا بذكريات ضعيفة عن أولادها الذين سقطوا ضحية نزوات المنون، وبقوا في عمق روحها كقبور مرتفعة في ميدان معركة، لكن

(١) موانا ابنة الحبّ: جعلها بلزاك ابنة جولي وشارل دي فاندنس لمتابعة عقدة القصة.

(٢) نلمح إلى هرب هبلين في (فصل اللقاءين) وموت شارل في (إصبع الله).

twitter @baghdad_library

أزهار البراري أخفتها تقريباً. كان بإمكان العالم أن يحاسب المركيزة حساباً عسيراً عن هذه اللامبالاة، وهذا الإيثار للابنة. لكن عالم باريس منشغل بسيل من الأحداث، والموضات، والأفكار الجديدة، حتى أن كل حياة السيدة دي إغلمون يمكن أن تنسى بطريقة ما. فما من أحد يفكر باتهامها بجريمة برود أونسيان لاتهمّ أي إنسان، بينما حنانها الفياض لموانا يهمُّ كثيراً من الناس، ويحظى بكل قداسة الانحياز للابنة. فالمركيزة لاتظهر إلا قليلاً في المجتمع، وهي بالنسبة لمعظم العائلات التي تعرفها، طيبة، حنون، ورعة، متسامحة. والحال ألا يجب وجود دافع مثير لتجاوز هذه الظواهر التي ترضي المجتمع؟ ثم، ألا يستحق الشيوخ المغفرة عندما لا يظهرون إلا كالظلال فقط، ولايريدون أن يكونوا إلا ذكرى؟ أخيراً، فالسيدة دي إغلمون نموذج يُذكر بكثير من المراعاة من قبل الأولاد لآبائهم، والأصهار لحمواتهم. فقد منحت في وقت مبكر أملاكها لموانا، مسرورة لسعادة ابنتها الكونتيسة الشابة، لاتحيا إلا بها ومن أجلها. فإذا وجّه شيوخ حذرون، أو أعمام مهمون اللوم لهذا السلوك بقولهم: إن السيّدة دي إغلمون قد تندم يوماً، لأنها منحت كل ثروتها لابنتها، فإذا كانت واثقة من قلب السيّدة دي سان هيرين فهل يمكن أن تكون بذات الثقة تجاه أخلاق صهرها؟ وقام ضد هذه النبوءات استكار عام، وكانت عبارات المديح تكال من جميع الجوانب لموانا.

قالت امرأة شابة: يجب الاعتراف بهذا الفضل للسيدة دي سان ـ هيرين فأمها لم تلحظ أي تغير حولها. فهي في سكن مريح، وتحت تصرفها عربة على الدوام، ويمكنها أن تذهب أنى شاءت كمافي السابق...

- باستثناء مسرح الإيطاليين، علّق بصوت هامس أحد المشوّشين القدامى، أحد هؤلاء الأشخاص الذين يعتقدون أن من حقّهم أن يكيلوا لأصدقائهم التهكمات بذريعة البرهان على استقلاليتهم. فالنبيلة العجوز لاتحبّ إلا الموسيقى، وهي في

الحقيقة أشياء غريبة عن ابنتها، وقد كانت موسيقيّة بارعة في زمنها! ولكن بما أن مقصورة الكونتيسة الشابة مغزوة دائماً بتلك الفراشات الفتيّات، ومن الممكن أن تتضايق تلك الابنة الصغيرة التي تعامل كفتاة مدلّلة، فإن الأم المسكينة تمتنع عن الذهاب إلى مسرح الايطاليين.

قالت إحدى الفتيات ممن هن في سن الزواج: تحرص السيدة دي سان هيرين على تأمين سهرات ممتعة لأمّها، فصالونها ملتقى لكل المجتمع الباريسي.

أجاب المشوّش الطفيلي: صالون لاينتبه فيه أحد للمركيزة.

قال أحد المزهوّين داعماً رأي السيّدات الشابات: الواقع أن السيّدة دي إغلمون ليست أبداً وحيدة.

أجاب الملاحظ العريق بصوت منخفض: في الصباح، في الصباح تكون العزيزة موانا نائمة. وفي الساعة الرابعة بعد الظهر تتنزه العزيزة موانا في غابة بولونية. وفي المساء تذهب العزيزة موانا إلى حفلة رقص أو إلى مسارح الفكاهة والتهريج . . . لكن من الحق الاعتراف أن الوقت متوفّر للسيدة دي إغلمون لرؤية ابنتها العزيزة أثناء ارتداء ثيابها، أو على مائدة العشاء إن شاءت المصادفة أن تتعشّى موانا العزيزة مع أمّها العزيزة[1]. وأردف المشوّش الطفيلي وهو يمسك بذراع مربّ خجول وفد حديثاً على المنزل حيث تدور هذه المسامرة:

- لم تمض ثمانية أيام على رؤيتي تلك الأم المسكينة حزينة، تجلس وحيدة قرب النار.

سألتها: مابك؟. نظرت إلي المركيزة وهي تبتسم، لكنها كانت بالتأكيد قد بكت وقالت لي:

---

(١) تتصرّف جولي تجاه موانا كتصرف الأب غوريو تجاه ابنته وتجد العقوق ذاته.

twitter @baghdad_library

أفكر إنّه أمر غريب أن أوجد وحيدة، بعد أن كان لي خمسة أولاد، لكن هذا قدرنا! ثم إنني سعيدة عندما أعلم أن موانا تستمتع لاهية! يمكنها أن تركن إليّ، أنا التي عرفت سابقًا زوجها، وهو رجل مسكين أسعده أن يتزوجها وهو مدين لها بالتأكيد، بتسميته عينًا وبالوظيفة التي يشغلها في بلاط شارل العاشر [1].

لكن أخطاء كثيرة تنزلق في أحاديث المجتمع يُطرَق فيها بخفّة إلى مصائب أكثر عمقًا، يضطر فيها مؤرخ الطبائع إلى أن يزن بتعقّل الادعاءات المطروحة دون اكتراث من قبل أشخاص لامبالين. أخيرًا قد يكون من الأفضل عدم النطق بحكم فاصل، يحدّد أيّهما على خطأ، وأيّهما على صواب، الأمّ أو الابنة؛ فبين هذين القلبين لايوجد إلا حكم واحد ممكن، وهذا الحكم هو الله! الله الذي يعزز غالبًا انتقامه في قلب العائلات، ويستخدم دومًا الأولاد ضد الأمّهات، والآباء ضد الأولاد، والشعوب ضد الملوك، والأمراء ضد الأمم، والكلّ ضد الكلّ، يستبدل في العالم المعنوي بالعواطف عواطف أخرى، كما تدفع أوراق الشجر الفتيّة في الربيع الأوراق القديمة، متصرفة وفق نظام ثابت نحو هدف لايعلمه إلا الله، فكلّ شيء يذهب إلى أحضانه، أو بالأصح يعود إليه.

هذه الأفكار الورعة، الطبيعية جدًا في قلوب الشيوخ، كانت تتردّد مشتّتة جدًا في روح السيّدة دي إغلمون، وهي فيها نصف نيّرة، تارة فاسدة، وتارة أخرى متبسطة كليًا، كأزهار تلفّها العاصفة على سطح المياه. كانت جالسة، تعبة، أضعفها التأمّل الطويل، في إحدى أحلام اليقظة التي تتجلى فيها كل الحياة، وتنبسط أمام أعين أولئك الذين يحسّون مسبقًا بقرب الموت.

كانت تلك المرأة، التي شاخت مبكرة، لوحة فضولية بالنسبة لشاعر يمر في

---

(١) تلميح إلى الأخطاء الأولى ودور جولي في نجاح المركيز دي إغلمون.

الجادة، فعند رؤيتها تجلس في ظل شجرة سنط خفيف، ظل السنط عند الظهر، يعرف كل انسان أن يقرأ أحد آلاف الأشياء المسجّلة على ذلك الوجه الشاحب والبارد، حتى وسط أشعة الشمس الدافئة؛ ووجهها الممتلئ تعبيراً يمثل شيئًا ما أكثر رصانة، مما هي حياة في انحطاطها، أو أكثر عمقًا من روح أضعفتها التجربة. كانت أحد تلك النماذج التي تستوقفكم للحظة، لأنّها من بين آلاف الوجوه المحتقرة لعدم تميّزها، تدفعكم إلى التفكير، كتأثركم بشدة بين آلاف اللوحات في متحف، سواء برأس سامٍ عبَّر من خلاله موريلو[1] عن الألم الأمومي، أو بوجه بياتريس سينسي الذي لوّن فيه لغيد البراءة الأكثر إثارة للشفقة وسط أكثر الجرائم بشاعة[2]، أو بوجه فيليب الثاني القاتم الذي عرف كيف يطبع عليه فلاسكيز[3] الإرهاب الجليل الذي توحي به الملكية. فبعض الوجوه البشرية صور مستبدة تكلمكم، وتسألكم، وتجيب على أفكاركم الرهيبة، حتى وتنظم قصائد كاملة. فوجه السيدة دي إغلمون الجليدي هو أحد هذه القصائد المرعبة، أحد هذه الوجوه المتشرة بالآلاف في كوميديا دانتي اليغيري الإلهية.

---

(١) موريلو، بارتولي (١٦١٨ ـ ١٦٨٢): رسّام اسباني تميّز بلوحاته الدينية والواقعية.

(٢) لم يكن لبياتريس سينسي إلا مدافع واحد هو الرسام لغيد Guide le (غيدو ريني ١٥٧٥ ـ ١٦٤٢) ولوحته تحكم على البابا، وقد كانت بياتريس ضحية أهواء مشينة واتهمت بالتحريض على قتل والدها وأعدمت بأمر من البابا في العام ١٥٩٩، وقد قصّ ستندال حكاية بياتريس سينسي في قصة ظهرت في مجلة العالمين بتاريخ الأول من تموز ١٨٣٧ كما أن المركيز دي كوستين، وهو أحد أصدقاء بلزاك كتب أيضًا مسرحية بعنوان بياتريس سينسي مُثلت في العام ١٨٣٣ ويبدو أن بلزاك كان يفكر بكتابة مسرحية بهذا الموضوع الذي لمح إليه في الصفحة الأخيرة من رواية «بيروت» وفي هذه الرواية.

(٣) ـ ڤلاسكيز، دييغو (١٥٩٩ ـ ١٦٦٠) رسّام اسباني اشتهر بلوحاته الدينية والتاريخية لكن بلزاك أخطأ في اسم الملك الذي ترك فلاسكيز رسومًا له، فهو فيليب الرابع وليس فيليب الثاني.

twitter @baghdad_library

خلال الفصل السريع، الذي تبقى فيه المرأة كالأزهار، تخدم ميزات جمالها بشكل مدهش الرياء الذي يكرهها عليه ضعفها الطبيعي والقوانين الاجتماعية. فتحت اللون الغني لوجهها النضر، وتألق عينيها، وشبكة قسماتها الناعمة الجذابة، والخطوط المتضاعفة المنحنية أو المستقيمة، إنّما النقيّة والمحدّدة بشكل تام، يمكن أن تبقى جميع انفعالاتها خفيّة. فالحمرة عندئذٍ لا تكشف عن شيء وهي تلوّن ألوانًا سبقت حيويتها، وجميع المراكز الداخلية تمتزج جيّدًا آنذاك في نور هاتين العينين المتألقتين بالحياة حتى أنّ أي ألم عابر يظهر حُسنًا جديدًا. وهكذا فلا شيء أكثر كتمانًا من وجه شاب، لأن كل شيء ثابت فيه. ففي وجه المرأة الشابة هدوء سطح بحيرة ونعومته ونضرته، والمظهر المميّز للنساء لا يبدأ قبل الثلاثين. فحتى ذلك العمر لا يجد الرسّام في وجوهن إلاّ اللونين الوردي والأبيض، والابتسامات والتعابير التي تردّد ذات الفكرة، فكرة الشباب والحبّ، فكرة متناسقة خالية من العمق. ولكن عند الشيخوخة، يتكلّم كل شيء في المرأة. فالعواطف تنطبع على وجهها، وقد كانت عاشقة، وزوجة، وأمًّا، وتوصّلت تعابير المسرّة والألم الى إرهاق قسماتها وتبديل مظهرها، ووسمها بألف تجعيدة لها لغة واحدة، ويغدو رأس المرأة عندئذ ساميًا من الرهبة، جميلاً في الكآبة، أو رائعًا بهدوئه، وإذا سُمِحَت متابعة الاستعارة الغريبة السابقة، نقول إن البحيرة الجافّة تُظهر عندئذ آثار جميع السيول التي كوّنتها. فرأس المرأة الهرمة لا ينتمي آنذاك، إلى العالم المذعور، رغم لامبالاته، لملاحظة دمار جميع أفكار الأناقة التي اعتاد عليها، ولا إلى الفنانين العاديين الذين لا يكتشفون فيه شيئًا، وإنّما إلى الأدباء الحقيقيين، أولئك الذين يمتلكون إحساسًا بالجمال مستقلاً عن جميع الأعراف التي يستند إليها العديد من الأحكام المسبقة المتعلقة بالفن والجمال.

وبالرغم من أن السيدة دي إغلمون تعتمر قبعة أنيقة، كان من السهل رؤية

شعرها، وهو الحالك السواد سابقًا، وقد عممّت الانفعالات القاسية البياض فيه، لكن الطريقة التي تفصله فيها إلى ضفرتين تعبر عن ذوق أصيل، وتكشف عن عادات المرأة الأنيقة المتميّزة بنعومتها؛ وترسم بشكل تام جبينها الذابل المجعّد، الذي ماتزال تلوح عليه آثار بريق سابق، بينما يعطي منظر وجهها وانتظام قسماته فكرة، ضعيفة في الحقيقة، عن الجمال الذي كانت تعتزّ به، لكن هذه القرائن تبرز بشكل أوضح الآلام التي بلغت حدّتها درجة حفرت بها ذلك الوجه، وجفّفت الصدغين، وأضمرت الخدين، وكَدَمت الأجفان، وعرتها من الأهداب وحرَمتها من عذوبة النظرة. وبدا كل شيء صامتًا في تلك المرأة، فلسيرها وحركاتها ذلك البطء الرزين، المتأمل، الذي يفرض الاحترام؛ وقد تحوّل تواضعها الذي ألفته منذ عدة سنوات إلى خجل نتيجة اعتيادها أن تستحي أمام ابنتها. ثم أنّ كلماتها كانت نادرة، ورقيقة كما هي نتيجة اعتيادها أن تستحي أمام ابنتها. ثم أنّ كلماتها كانت نادرة، رقيقة كما هي عند جميع أولئك الأشخاص الملزمين بالتفكير والتركيز، والانطواء على أنفسهم، وهي توحي بهذا الموقف، وذلك المظهر بعاطفة لاتُحدّد، فلا هي الخشية. ولا هي الشفقة، إنّما تنصهر فيها بغموض جميع الأفكار التي توقظها هذه الانفعالات المتنوّعة. أخيرًا فإنّ طبيعة تجاعيدها، والطريقة التي تغضّن فيها وجهها، وشحوب نظرتها المتألمة، تشهد كلّها بجلاء على هذه الدموع التي يفترسها القلب فلا تسقط أبدًا إلى الأرض. والتعساء المعتادون على أن يتأمّلوا السماء ليبثوها آلام حياتهم، يتعرفون بسهولة في عيني تلك الأم على عادات قاسية في ترديد صلاة في كل لحظة من النهار، وعلى الآثار الخفيفة لهذه الرضوض الخفيّة التي تنتهي إلى تدمير أزهار الروح وحتى عاطفة الأمومة. إن للرسامين ألوانًا لهذه الصور الشخصية، لكن الأفكار والكلمات عاجزة عن الإعراب عنها بأمانة، إذ يصادف عبر الدرجات اللونية، وعبر ملامح الوجه مظاهر غير قابلة للشرح تلتقطها الروح بالنظر، لكن سرد الأحداث التي تعود إليها مثل هذه الانقلابات الرهيبة في المظهر هي المصدر الوحيد الباقي للأديب للعمل على إفهامها. فهذا الوجه يعلن عن عاصفة هادئة

twitter @baghdad_library

وباردة، وعن معركة خفيّة بين بطولة الألم الأمومي وعجز عواطفنا المنتهية كانتهائنا، حيث لايوجد فيها شيء لانهائي. وقد أحدثت هذه الآلام المكبوتة دون انقطاع، مع الزمن، مالا أعلم من السقم لدى تلك المرأة، ولا شك أن بعض الانفعالات العنيفة جداً أفسدت فيزيائياً هذا القلب الأمومي، حتى أن بعض الأمراض، وربّما أُمدم* كانت تهددها دون علمها. فالآلام الحقيقية هي في الظاهر أكثر هدوءاً في عمق السرير مما هي في الواقع، أو حيث تبدو هاجعة، ولكنها تستمر هناك تقرض الروح مثل ذلك الحمض الرهيب الذي يثقب الكريستال! في تلك اللحظة خدّدت دمعتان وجنتي المركيزة، فنهضت وكأن فكرة أكثر حدّة من جميع الأفكار الباقية قد طعنتها بعمق؛ خمّنت على الأرجح مستقبل مُوانا، وإذ بتوقعها للآلام التي تنتظر ابنتها تسقط مجدّداً جميع مصائب حياتها الخاصة على قلبها.

يمكن فهم وضع الأم بشرح وضع الابنة.

كان الكونت دي سان-هيرين قد سافر منذ ستة أشهر تقريباً ليقوم بمهمة سياسية. وخلال غيابه ضمت موانا إلى كل مظاهر زهو السيدة الشابة نزوات تصرف الابنة المدلّلة، فلَهَت بطيش أو استجابة لألف غنج لدى المرأة، أو ربّما في محاولة لتجربة قدرتها على التلاعب بهوى رجل حاذق إنّما دون قلب، ولاحظت السيد دي اغلمون التي أكسبتها التجارب الطويلة الخبرة في الحياة، والحكم على الناس، والارتياب بالمجتمع، نجاح تلك المغامرة، وتوجّست من ضياع ابنتها برؤيتها تقع بين يدي رجل لايراعي حرمة شيء. أليس شيئاً مريعاً بالنسبة لها أن تصادف **فاسقاً** عديم الأخلاق، في الرجل الذي تستمع إليه موانا بسرور؟ فابنتها العزيزة على حافة هاوية

---

* أُمدم Anévrisme: توسع شرياني أو وريدي محدود فيه دم سائل أو منخثر بعضه ناجم عن تبدل جدار الوعاء، بحيث ينغلب عليه ضغط الدم فيوسعه. (م. المترجم).

إذن . إن لديها يقيناً رهيباً بذلك ولاتجسر على إيقافها، لأنها ترتعش أمام الكونتيسة، وهي تعرف مسبقًا أن موانا لن تستمع إلى أيّ من تحذيراتها الحكيمة؛ فليس لديها أيّة سلطة على تلك النفس الفولاذية بالنسبة لها، الشديدة اللين بالنسبة للآخرين. كان يمكن لحنانها أن يتعاطف مع هموم عاطفة مبرّرة بالمزايا النبيلة لغاو. لكن ابنتها تتبع حركة غنج، والمركيزة تحتقر الكونت الفريد دي فاندنس، لأنها تعرف أنه رجل يعدُّ صراعه مع موانا كمباراة شطرنج وبالرغم من أن الفريد دي فاندنس يثير روع تلك الأم التعيسة، فإنها كانت ملزمة على أن تدفن في عمق ثنايا قلبها الأسباب الرئيسةلكراهيتها؛ فهي مرتبطة بصداقة وثيقة مع المركيز دي فاندنس والد ألفريد، وتلك الصداقة المحترمة في أعين الناس تتيح للشاب أن يحضر بلا تكلّف إلى منزل السيّدة دي سان هيرين، التي يتظاهر بالنسبة لها بهوى مكنون منذ الطفولة، مع أن السيّدة دي إغلمون قررت عبثًا أن تطرح بين ابنتها وألفريد دي فاندنس[1] كلمة رهيبة تفصل بينهما، لكنها كانت واثقة من عدم نجاحها، رغم قدرة تلك الكلمة التي ستلحق بها العار في نظر ابنتها. وألفريد غائص في الفساد، وموانا أذكى من أن تصدّق ذلك الاعتراف، وستتهرّب منه عادةً إياه خدعة أمومية. فالسيّدة دي اغلمون قد أقامت زنزانتها بيديها، وأوصدت بنفسها بابها، لتقضي فيها نحبها وهي ترى ضياع حياة ابنتها الجميلة، تلك الحياة التي غدت مجدها، وسعادتها، وعزاءها، وهي وجود بالنسبة لها أكثر معزّة بألف مرة من وجودها. يا للآلام الرهيبة، التي لاتصدق، ولايحيط بها كلام يا للّجج التي لاقاع لها!.

(١) الفريد هو ابن شارل دي فاندنس عشيق جولي أي أنّه أخ غير شقيق لموانا. لكن زواج شارل وأرملة كرجاروه في رواية «ابنة لحواء» تمّ في العام ١٨٣٣، وبالتالي لايمكن لألفريد دي فاندنس أن يكون في العام ١٨٤٤ ذلك المنهتك الذي تظهره هذه الرواية.

twitter @baghdad_library

كانت تنتظر بنفاد صبر استيقاظ ابنتها، ومع ذلك كانت تخشاه، فهي أشبه بإنسان بائس حكم عليه بالموت، وهو ينتظر أن تُنهى حياته، غير أنه يحسّ بقشعريرة برد وهو يفكر بالجلاّد.

وقرّرت المركيزة أن تقوم بمحاولة أخيرة، ولكنها كانت تخشى على الأرجح، أن تفشل في محاولتها أكثر من تلقيها أحد هذه الجراح الشديدة الإيلام لقلبها حتى أنّها استنفدت كلّ شجاعتها؛ فحبّها كأمّ وصل إلى تلك الدرجة من التعبد لابنتها، والخشية منها، لأجلها تتقبل طعنة خنجر وتواصل السير قدمًا. فالعاطفة الأمومية من السعة في القلوب المحبة حتى لتصل الأم إلى الموت أو إلى اللجوء لقدرة كبيرة كالدين أو الحب قبل أن تستسلم للامبالاة. ومنذ نهوض المركيزة خطّت لها ذاكرتها المشؤومة العديد من هذه الوقائع، الصغيرة في الظاهر، لكنها أحداث كبيرة في الحياة المعنوية، فكم في الواقع أحيانًا من حركة تحدث مأساة، ونبرة كلمة تمزّق حياة، ولامبالاة نظرة تقتل أسعد العواطف. والسيدة دي إغلمون رأت للأسف كثيراً من هذه الحركات، وسمعت كثيراً من هذه الكلمات، وتلقّت كثيراً من هذه النظرات المروّعة، حتى لتعجز ذكرياتها عن خلق آمال لها. فكلّ شيء يبرهن لها أن ألفريد قد أضل قلب ابنتها عنها حيث لم تعد فيه مصدر متعة بل مجرّد شعور بالواجب؛ فآلاف الأشياء حتى التفاهات دلائل على سلوك الكونتيسة الكريه نحوها، نكران جميل ربّما نظرت إليه المركيزة عقابًا لها، فهي تجد أعذاراً لابنتها في أحكام القدر لتتمكن من الاستمرار بعبادة اليد التي تلطمها. وتذكّرت خلال ذلك الصباح كل شيء، وصدم كلّ شيء قلبها بعنف، حتى أن نفسها الممتلئة بالأحزان معرضة لتطفح وتفيض إن تعرّضت لأي عناء مهما كانت خفّته. فنظرة باردة يمكن أن تقتل المركيزة. ولئن كان من الصعب تصوير هذه الوقائع المنزلية، فإنّ بعض أمثلة عنها تكفي للدلالة عليها كلّها؛ فقد ثقل مع العمر سمع المركيزة، لكنها لم تستطع أبداً أن تحصل من موانا على

وجوب الانتباه لرفع صوتها عند مخاطبتها؛ وفي يوم وبدافع سذاجة الكائن المتألم، رَجَت ابنتها أن تكرر لها عبارة لم تستوعبها، وأطاعت الكونتيسة إنّما بتذمّر حرم السيدة دي إغلمون من تكرار رجائها المتواضع. ومنذ ذلك اليوم، وعندما تروي موانا خبراً أو تتكلّم تحرص المركيزة على الاقتراب منها، لكن الكونتيسة تبدي غالبًا انزعاجها من هذه الآفة التي تلوم أمّها بطيش عليها. هذا مثال من ألف مثال لايمكن أن يؤثّر إلا على قلب أم. وقد تفوت هذه الأشياء على الملاحظ، إذ أن هذه الدقائق غير محسومة إلا على أعين كعيني امرأة. وهكذا ففي يوم قالت السيّدة دي إغلمون لابنتها إنّ الأميرة دي كادينيان قد حضرت لرؤيتها. فصاحت موانا بكل بساطة: ـ ماذا! أحضرت من أجلك أنت! اصطبغ المظهر الذي قيلت فيه هذه الكلمات ولهجة تعبير الكونتيسة عنها بألوان خفيفة من دهشة، وازدراء أنيق يجعل القلوب الشابة والحنون على الدوام تجد حبًا بشريًا في العادة التي يتبعها المتوحشون لقتل عجزتهم عندما لايستطيعون الثبات على غصن شجرة يهتز بشدّة. ونهضت السيّدة دي إغلمون وابتسمت وذهبت تبكي خفية. فالأشخاص المهذّبون، وبصورة خاصة النساء منهم، لايكشفون عن عواطفهم إلا بلمسات غير محسوسة لكنها قادرة على التلميح إلى نبضات قلوبهم أمام أولئك الذين يجدون في حياتهم أوضاعًا مماثلة لوضع تلك الأم المعذبة. فالسيدة دي إغلمون المرهقة بذكرياتها وجدت في كلّ من هذه الوقائع المجهرية من شدة الوخز، وشدّة القسوة شكلاً من الازدراء لم تر حتى تلك اللحظة أبغض منه رغم الابتسامات المبطن بها. لكن دموعها جفت عندما سمعت حفيف إزاحة ستائر الغرفة التي تستريح فيها ابنتها. وهرعت متجهة نحو النوافذ، عبر الممر المحاذي للشبك الذي جلست قربه سابقًا، ولاحظت أثناء سيرها العناية الخاصّة التي بذلها البستاني في تسوية رمل ذلك الممرّ المهمل منذ بعض الوقت، وعندما وصلت السيد دي إغلمون إلى تحت نوافذ ابنتها، أسدلت الستائر فجأة، فنادت:

twitter @baghdad_library

- موانا، لكنها لم تلق جوابًا؛ وعندما دخلت إلى المنزل سألت إن كانت ابنتها قد نهضت من النوم، أجابتها وصيفة موانا:

سيدتي الكونتيسة في الصالون الصغير.

كان قلب السيّدة دي اغلمون طافحًا بالمشاعر، ورأسها منشغلاً بكثير من الأفكار، فلم تهتم في تلك اللحظة بالظروف التافهة، ومرّت بسرعة إلى الصالون الصغير حيث وجدت الكونتيسة في مبذل وقلنسوة ملقاة بلامبالاة على شعرها المشعث، وهي تنتعل خفًا منزليًا ومفتاح غرفتها في زنّارها، وملامح أفكار عاصفة بألف لون تكسو وجهها، وهي جالسة إلى ديوان وتبدو مستغرقة في تأمّل عميق.

قالت بصوت قاس: ما الذي جاء بك؛ واستأنفت بمظهر شارد بعد أن قاطعت نفسها: ـ آه! أهذه أنت يا أمي؟

- نعم، يا ابنتي، هذه أمك. . . .

اصطبغت نبرة صوت السيدة دي اغلمون وهي تنطق بهذه العبارة بتدفّق عاطفة قلبية، وانفعال حميم يصعب إعطاء فكرة عنهما دون استعمال كلمة قداسة. والواقع أن قداسة الأمومة كانت متجلية في مظهرها حتى أنّ ابنتها بدت مندهشة، والتفتت نحوها بحركة تعبر في آن واحد عن الاحترام، والقلق، والندم. وأغلقت المركيزة باب ذلك الصالون بشكل لايتمكن فيه أي شخص من الدخول دون إحداث ضجة في الغرف المجاورة له. وبذلك أمنت بهذه العزلة أي فضول.

قالت المركيزة: يا ابنتي، إن من واجبي أن أنوّرك حول إحدى الأزمات الأكثر أهميّة في حياة المرأة، التي قد تكونين واقعة فيها دون علمك، وأنا لا أحدثك عنها، بصفة الأم، وإنّما بصفة الصديقة. بالزواج أصبحت حرّة في تصرفاتك، ولست

مسؤولة عنها إلا أمام زوجك. لكنني لم أشعرك إلا قليلاً بالسلطة الأمومية (وقد يكون هذا خطأ)، حتى إنني لأعتقد أن من حقّي أن أطالبك بالاستماع إليّ، مرة على الأقل، في الوضع الخطير الذي تحتاجين فيه إلى النّصح. فكّري يا موانا إنني زوّجتك لرجل ذي إمكانات عالية، يمكنك أن تفخري به، و . . . .

صاحت موانا بمظهر متمرّد مقاطعة أمّها: أمّي، أنا أعلم ماذا ستقولين . . . ستعظينني بخصوص ألفريد. . . .

استأنفت المركيزة برصانة، وهي تحاول حبس دموعها: لم تخمّني جيّدًا يا موانا، فإذا لم تشعري. . .

قالت شبه مزهوة: ماذا؟ ولكن يا أمي في الحقيقة . . .

صاحت السيّدة دي إغلمون وهي تبذل جهدًا خارجًا عن المألوف: موانا، يجب أن تستمعي بانتباه لكل ما يجب أن أقوله. . .

قالت الكونتيسة وهي تصالب ذراعيها، وتتظاهر بإذعان متكلّف: إنني مصغية، ثم أضافت ببرود غير معقول: لكن اسمحي لي يا أمي أن استدعي بولين، لأصرفها في مهمة . . . ورنت الجرس.

- ياابنتي العزيزة، لايمكن لبولين أن تسمعنا.

استأنفت الكونتيسة بمظهر رصين، من شأنه أن يبدو غير مألوف للأم: أمي يجب. . . لكنها توقفت عن الكلام لرؤية وصيفتها قادمة فنادتها: بولين، اذهبي بنفسك إلى محلات بودران، واسألي لماذا لم يرسلوا لي القبعة التي أوصيت عليها. . .

twitter @baghdad_library

وعادت إلى الجلوس، وهي تنظر إلى أمّها بانتباه. وكان قلب المركيزة طافحاً بالغم، وعيناها جافتان؛ وشعرت آنذاك بأحد تلك الانفعالات التي لايمكن إلا للأمهات إدراك ألمها؛ فتناولت الكلام لتطلع موانا على الخطر الذي يتهدّدها؛ ولكن سواء أوجدت الكونتيسة الشكوك التي تتصوّرها أمّها عن ابن المركيز دي فاندنس مهينة لها، أو أنها كانت فريسة إحدى هذه الحماقات الغامضة، التي يكمن سرّها في قلة تجارب الشباب إجمالاً؛ فقد استغلت لحظات توقّف أمّها عن الكلام لتقول لها وهي تفتعل ضحكة متكلفة: ـ أمّي، كنت أعتقد أنك لاتغارين إلا على الأب...

عند هذه العبارة أغمضت السيد دي إغلمون عينيها، وطأطأت رأسها، وأطلقت أخفّ التنهدات، وألقت نظرها في الهواء، كأنّها تذعن لعاطفة لاتُقهر تدفعنا إلى التضرع إلى الله في أزمات الحياة الكبرى؛ ثم وجهت عينيها نحو ابنتها، وقد شعّ منهما جلال رهيب لكنه مشوب بألم عميق، وقالت بصوت يهدّجه الوقار:

ابنتي، كنت أشدّ قسوة على أمّك من الرجل المهان من قبلها، بل أكثر مما سيقسو الله على الأرجح[1].

نهضت السيّدة دي إغلمون، لكنها التفتت عند وصولها إلى الباب فلم تر إلا الدهشة في عيني ابنتها، فخرجت واستطاعت الوصول إلى الحديقة حيث خانتها قواها، وهناك أحسّت بألام شديدة في قلبها فتهالكت على مقعد، ولاحظت عيناها التائهتان على الرمل الآثار الحديثة لخطوات رجل تركت جزمته علائم واضحة جداً، فابنتها دون أي شكّ قد ضاعت، وخيّل إليها أنّها فهمت سبب المهمة التي عهدت بها موانا لبولين، وترافقت هذه الفكرة القاسية بانكشاف أكثر بشاعة من كل ما عداه،

(١) هذه العبارة تشير إلى أن المركيز دي إغلمون عرف خيانة زوجته وغفرها لها.

فافترضت أن ابن المركيز دي فاندنس دمّر في قلب موانا هذا الاحترام الواجب على الابنة نحو أمّها، وتزايد عذابها، فأغمي عليها بشكل غير محسوس، وبقيت كالنائمة. واعتقدت الكونتيسة الشابة أن أمّها سمحت لنفسها بأن توجّه لها ضربة لاذعة لا تخلو من فظاظة، وفكّرت أن مداعبة وديّة في المساء أو بعض اهتمامات خاصّة كفيلة بإصلاح ذات البين. وعندما سمعت صرخة امرأة في الحديقة، التفتت بلا مبالاة في اللحظة التي كانت فيها بولين، التي لم تخرج حتى ذلك الحين تنادي طالبة المساعدة، وهي تحتضن المركيزة بين ذراعيها.

كانت الكلمة الأخيرة التي لفظتها تلك الأم: لاترتاعي ياابنتي.

رأت موانا أمّها تُحمَل شاحبة، بلا حيوية، تتنفّس بصعوبة، لكنّها تحرك ذراعيها كأنها تريد المقاومة أو الكلام. وصعقت من هذا المشهد، فتبعت أمّها، وساعدت بصمت على تمديدها في سريرها، وتجريدها من ثيابها. وأحسّت بفداحة غلطتها. وعرفت أمّها في تلك اللحظة السامية دون أن تتمكن من تصحيح شيء. وأرادت أن تبقى وحيدة معها وعندما لم يبق أحد في الغرفة، وأحسّت ببرودة تلك اليد المتودّدة إليها على الدوام، أجهشت بالبكاء. وأيقظ هذا النحيب المركيزة فاستطاعت أن تشاهد عزيزتها موانا، وعلى ضجة هذه الزفرات التي بدت وكأنها تريد تحطيم هذا الحضن المرهف المضطرب، تأمّلت ابنتها مبتسمة، وبرهنت هذه الابتسامة لتلك الشابة قاتلة الوالدة أن قلب الأم لجّة، في عمقها يوجد دائمًا الصفح والمغفرة، وما أن عرفت حالة المركيزة الخطرة، حتى أرسلت الخدم على الخيول لاستدعاء الطبيب، والجرّاح، وأحفاد السيّدة دي اغلمون.

وحضرت المركيزة الشابّة أرملة الابن البكر ومعها أولادها في ذات الوقت

twitter @baghdad_library

الذي وصل فيه رجال الطب وشكّلوا حشداً مهيباً، صامتاً، قلقاً؛ اختلط به الخدم. ولم تسمع المركيزة الشابة أيّة ضجّة، فقرعت برفق على باب الغرفة. وعند هذه الحركة استيقظت موانا، دون شك، من آلامها، ورفعت فجأة مصراعي الباب، ونظرت بعينين شاردتين إلى ذلك الحشد العائلي، وبدت في اضطراب فاق كل لغة. وبقي كل إنسان صامتاً أمام هذا المظهر من تبكيت الضمير الحيّ. وكان من السهل ملاحظة قدمي المركيزة المتصلبتين الممددتين بتشنج على سرير الموت. واستندت موانا إلى الباب ونظرت إلى ذويها، وقالت بصوت غائر: **لقد فقدت أمّي!**

باريس ١٨٢٨ ـ ١٨٤٤

twitter @baghdad_library

دراسة حول الرواية والمؤلّف

إعداد برنار غانيين ورينه غيز

يعـود عنوان **المرأة في الثـلاثين** إلـى حَدَث فـي هـذه الـروايـة مُعـنـونَ **في عـمر الثلاثين** بصيغتها الأخيرة التي تركها لنا بلزاك؛ وهو يتعلّق بقصة امرأة تبكي، وهي بكامل نضجها الفكري والجسماني، غراماً انفصمت عراه، وترفض، مدة طويلة، تودّدات دبلوماسي شاب. وينتهي الحدث بمشهد تعاطف تقطعه عودة الزوج، الرجل الفظ الأحمق، غير المتبصرٍ.

يرسم بلزاك صورة مرهفة وبمنتهى الدقّة للأحاسيس الخاصة بعاشقين، ويجعلنا على هذا النحو مؤتمنين على عواطفهما الفيّاضة؛ وقد استحق بلزاك على هذا الوصف المصوّر تقريظ نُقّاد عديدين بدءاً من سانت بوف وانتهاءً بأندره موروا، مروراً ببول بورجه، وألن، وبرنار غـويون، وموريس باردش[1]. لكن ـ يجب الاعتراف ـ إنّ هذا التقريظ لم يكن للمؤلّف المتنافر تقريباً الذي نقرأه حالياً تحت عنوان المرأة في الثلاثين. وللاكتفاء بشهادة واحدة نستذكر هذا الرأي لسانت ـ بوف المستخلص من أحاديث أيامٍ الاثنين حيث ترد الجملة التالية: «لم يبدأ تاريخ نظرية

---

(١) سانت ـ بوف: أحاديث أيام الاثنين، الجزء الثاني، باريس ١٨٥١.

بول بورجه: سياسة بلزاك في دراسات وصور، الجزء الثالث، باريس ١٩٠٦، وأيضاً: فنّ الرواية عند بلزاك في بعض الشهادات، باريس، ١٩٢٨.

ألن، إميل شارتيه: من خلال بلزاك في تحية إلى بلزاك، باريس ١٩٥٠.

موريس باردش: بلزاك الروائي، باريس، ١٩٤٠.

برنار غويون: فكر بلزاك السياسي والاجتماعي، باريس ١٩٤٧.

أندره موروا: بروميثيوس أو حياة بلزاك، باريس ١٩٦٥.

المرأة بجميع ميزّاتها، وتفوّقاتها، وشمائلها النهائية إلا اليوم. والسيد دي بلزاك مبتكرها، وهذه هي أحد اكتشافاته الأكثر واقعية في طراز الرواية الحميمية؛ وقد كان مفتاح نجاحه الباهر مكتملاً تمامًا في هذه التحفة الصغيرة الأولى». وقد بلغت شخصيّة البطلة، وهي في منتهى الروائية، من الشهرة حتى أن كلمة «بلزاكية» في البرازيل تشير إلى امرأة في الثلاثين من العمر، وتعبير «امرأة في العمر البلزاكي» يعني في روسية امرأة بين الثلاثين والأربعين من سني حياتها، فاتنة وخطرة بخبرتها.

تتشكّل رواية **المرأة في الثلاثين** من تتابع قصص نُشرت بين ١٨٣١ و ١٨٣٤ في مجلات مختلفة، وطبعات متعددة من **مشاهد من الحياة الخاصة**، إنّما جميع هذه القصص تهدف إلى التصدّي لمصير النساء اللواتي خابت آمالهن في الزواج، وقاومن الإغراء، ثم عوقبن بقسوة لأنهن أحببن خارج الروابط الزوجية، وسواء تعلّق الأمر بجولي دي إغلمون أو بالمركيزة دي ڤيومسنيل، أو بالسيّدة دي ڤردون، أو المركيزة دي بالان فإننا نجد دائمًا نموذج المرأة «ضحية القوانين بزواجها، وضحية الرجال بحبها».

بجمع هذه الوقائع المختلفة، يحاول بلزاك في «مذكرة» موجهة لناشر مؤلفاته في العام ١٨٣٢، أن يقنعنا أن الموضوع يتعلّق «بحياة واحدة أدركت منذ بدايتها وتوبعت حتى خاتمتها، وعُرِضَت لهدف أخلاقي سام». كانت العملية محفوفة بالمحاذير، كي لانقول إنّها متعذّرة التحقيق، وعندما نقرأ في الوقت الحاضر رواية امرأة في الثلاثين تسترعي انتباهنا الأمور غير الواقعية المتضمنة في هذا المؤلّف، وعدم التوافق بين القصص الثلاثة الأولى، وكلّها موشّحة بالرقّة والحساسية، والقصص الثلاثة الأخيرة المتعلقة بمأساة بل بشجاعة، وتجعلنا نشهد تتابع مصائب وكوارث. يمكن أن نذهب إلى أبعد من ذلك، ونقابل القصص الثلاثة الأولى حيث تبقى جولي طاهرة من كل عيب تبادل فيها السير آرثور حبًّا عفيفًا، ثم تنقاد تدريجيًا لتقع في غرام شارل دي فاندنس لكن دون أن تستسلم له، بينما القصص الثلاثة الأخيرة تظهر جولي فريسة القَدَر الذي يثقل على النساء المذنبات اللواتي انجرفن في

twitter @baghdad_library

حبّ آثم. يتضح هذا التفكك وهذا الانفصام في الأسلوب عندما نتمكن من إعادة بناء تكوّن مؤلَّف امتد إنشاؤه ـ وبشكل متقطع أيضاً ـ إلى عدة سنوات.

التكوّن

إذا تركنا جانباً **نظرة على تورين** النصّ المنشور في مجلة **سيلويت** Silhouette عدد شباط ١٨٣٠، الذي سيشكل جزءاً صغيراً من القصة الأولى، نجد في البدء في **الكاريكاتور** Caricature عدد ٢٥ تشرين ثاني ١٨٣٠، **العرض العسكري الأخير لنابوليون**، وفيه تبدو شابة ترنو بإعجاب لفارس وسيم أنيق في البزّة الزرقاء الخاصّة بالضباط المرافقين، وهو يمتطي حصاناً أسود. ينذر الأب ابنته بأن هذا الضابط لا يستحق الاهتمام الذي تبديه له، لأنه لايعرف كيف يحقق لها السعادة؛ وستتضمن الصفحات الأولى من الرواية هذا المشهد.

بعد عدة أسابيع تظهر في مجلة باريس La Revue de paris عددي ٢٣ و ٣٠ كانون ثاني ١٨٣٠ **قصة اللقاءان**، وهو عمل مُعد بسرعة، قريب في أسلوبه وأحداثه لمؤلفات بلزاك أيام شبابه، حيث تستخلص عديدٌ من الذكريات المستمدّة من الكتب، وخاصة في حكاية القراصنة التي تختتم القصّة. وهذه المشجاة منشأة بشكل لوحة فنيّة مزدوجة مثل عديد من قصص بلزاك؛ على أحد مصراعيها يشاهد السيد دي ڤردون، العسكري القديم، والرجل الشريف، وقد وقع تحت تأثير نظرة مغامر ساحرة، واضطر نتيجة تلك القوة الشريرة أن يترك ابنته تهرب مع الغريب المجهول؛ بينما يلتقي الأب والابنة وفق المصراع الثاني في أغرب مصادفة على متن سفينة المغامر، خلال هجوم للقراصنة: إنّه دور «القبطان الباريسي» في أن يظهر شهماً بالعفو عن النبيل الذي أنقذ في السابق حياته. لم يكن بلزاك مخطئاً في عدّ هذا النصّ غير صالح لإدراجه في **الملهاة الإنسانية**، وفقاً لما كتبه للسيدة هانسكا بعد اثني عشر عاماً، في ٢ آذار ١٨٤٣ «لم يتوفّر لي الوقت لإعادة صياغة هذه المشجاة غير الجديرة بي، ومايزال قلبي يدمى، وأنا رجل الأدب المستقيم». غير أن هذا العمل أدرج بعد ذلك، قسماً خامساً في رواية امرأة في الثلاثين.

في آذار ١٨٣١ أمكن لقراء مجلة باريس أن يطّلعوا على نصّ جديد لبلزاك: **إصبع الله** وهو قصة قصيرة جداً. ستشكّل النصف الأول من القسم الرابع الحالي من رواية **امرأة في الثلاثين**. وهي مختلفة عن السابقة في الموضوع، والأسلوب، والتقنية. رجل وامرأة يتنزهان على ضفة نهر البيڤر مع ولديهما، صبيين: يدفع أحدهما الآخر إلى الماء حيث يغرق. مأساة قصيرة، قاسية، محكيّة من قبل متكلّم قاص، جعلته المصادفة شاهداً على الحادثة. لاشيء يشجي، عرض مرهف، يتمّ كلّ شيء فيه بالإيماء دون إفصاح، ودون تسمية، عدا اسمي الولدين، فرانسيك وجورج. لكن القاص والقارىء يفهمان المأساة: استغلت الأم النزهة الصباحية للقاء عشيقها، وهو أيضاً والد الابن الأصغر المرح «ابن الحب»، بينما الابن البكر، فرانسيك، كئيب «ابن الواجب»، غير المحبوب، وقد استجاب لدافع أغراه بقتل الأخ المفضّل عليه. هكذا عوقبت الزوجة الخائنة في أعزّ مالديها، من قبل إصبع الله الذي يحل محلّ العدالة البشرية. وهي بعكس **اللقاءين**، وكأن بلزاك قد حرص بفاصل شهرين، على أن يبيّن لقراء **مجلة باريس** وجهاً آخر من موهبته، ولايوجد هنا استعارات أدبية واضحة، إنما حقيقة سيرة ذاتية كامنة كما سنرى فيما بعد.

خلال أيلول. تشرين أول ١٨٣١ نشرت مجلة **العالمين الموعد**، التي تشكل حالياً النصف الثاني للقسم الأول من رواية **امرأة في الثلاثين**. استغرق إنشاء هذه القصة ما يقرب من سنتين. من نهاية ١٨٢٩ حتى خريف ١٨٣١؛ وقد تمّ تصوّرها قبل تلك القصص التي سبق أن تعرّضنا لها، لكنها لم تنته على مايبدو إلا بعد أن فكّر بلزاك في أن يجمع هذه القصص المختلفة في جزء جديد من **مشاهد من الحياة الخاصّة**. توجد إذن مرحلتان في تكوّن **الموعد** ومن المهم التمييز بينهما.

بين السيرورات الإبداعية التي نجدها غالباً لدى بلزاك، وخاصة في سنوات ١٨٢٩ ـ ١٩٣٢، توجد واحدة متميّزة تقريباً: ينطلق الكاتب من حدث، من مشهد، بتعبير آخر ينشىء انطلاقاً من الخاتمة؛ فالأمر بالنسبة إليه يتعلق بخلق شخصيات تتصرف وفقاً لوضع معيّن. هكذا يخصّهم منذ البداية، بسيكولوجية تجعل تطوّرهم

twitter @baghdad_library

وسلوكهم النهائي معقولين. هكذا يتهيأ مخطّط، نوع من مسار روائي، يتمثل في ذهن بلزاك، بخطوطه الكبرى، عندما يتصدّى لتنفيذ العمل. وبما أن فعل الكتابة هو فعل إبداعي بشكل رئيس، فيه يتوضّح هذا المخطّط ويتنسّق، ويكتمل؛ ويحدث أحيانًا أن تطرأ عليه عناصر جديدة تبدّل من الانطباع المتولّد عن المؤلّف، فيبدو حلّ العقدة في نهاية المسار ضعيفًا لايتناسب مع غنى المسلك الذي أوصلنا إليه. كما يحدث أيضًا أن تؤثر هذه العناصر الجديدة على المشروع البدائي مما يدفع بلزاك إلى التوقف عن عمله مدّة من الوقت ليغدو مشروعة أكثر نضجًا، وكيّف المخطّط المتوقّع وفق المعطيات الجديدة.

يبدو لنا تكوّن الموعد متعلّقًا، في مرحلتيه، بحركة من هذا النوع. فعند نقطة الانطلاق للعمل المبدع، توجد ذكرى طرفة شاعت في كلّ باريس تعود إلى ما تحمّله السيد جوكور برباطة جأش، من ألم عضوي كي لا تنكشف لزوج خيانة زوجته. استمد بلزاك من تلك الطرفة، وهو المعجب الكبير بالقدرة، موضوعًا ملائمًا لقصة. ونشأت الفكرة في خاطره منذ بداية التحرير لأن عنوان الموعد الذي يبقى للقصة بكاملها، يتجلى على الصفحة الأولى من المخطوطة، غير أنه جعل بطل القصة إنكليزيًا، ليموّه من جهة الطرفة المتعلّقة بالسيد جوكور، وهو مركيز وعضو في مجلس الأعيان الفرنسي، مايزال على قيد الحياة خلال ١٨٣٠ ـ ١٨٣١. كما أنّه رآها من جهة أخرى فرصة سانحة لاستذكار هذه المناظر التي يحبّها من تورين، حيث كان يصادف في حداثته شخصيات إنكليزية نفاها نابوليون. أمّا المرأة التي يضحّي من أجلها البطل فهي عروس شابة، خاب أملها في الزواج الفظّ الذي تركها وحيدة في المقاطعة ملتحقًا بالجيش المتمركز في مناطق أخرى. هكذا راحت العروس تكشف تدريجيًا عن خيبة أملها لصديقة، اكتسبت في بلاط لويس الخامس عشر خبرة في الحياة الغرامية ومازالت تحتفظ بالحنين إليها.

يبدو أن بلزاك توقّف عن كتابة قصته، في بداية ١٨٣٠، عند تدبيج رسالة جولي ـ التي ذُكر اسمها للمرة الأولى ـ لصديقتها لويزا. وقد أجرى عليها فيما بعد،

وهو ينهيها، تحولات عديدة لتوضيح بعض القضايا في **فيزيولوجية الزواج**، المتعلّقة بالأزواج الجهلة والأفظاظ، ولتقريب ذلك الفصل إلى **قصة اللقاءين** بعد أن فكّر في إدراجهما ضمن جزء واحد. لكن بأية رقّة سيصف نمو الحبّ بين جولي المتضجرة من الوحدة والفراغ، الخائبة الأمل في الزواج، والفارس الإنكليزي الذي يرود تحت نوافذها! كلّما تزايد الانسجام بين القلبين بدت المقاومة أكثر صعوبة وألما.

يبين **الموعد واللقاءان** أخيراً أن زواجاً مرموقاً اجتماعياً يمكن أن ينتهي إلى تعاسة - إنه زواج جولي والعقيد دي إغلمون - بينما يمكن بالعكس لمعاشرة مترسخة على هامش المجتمع أن تحقّق السعادة. وفي تلك السنة ١٨٣١، دون شكّ، وبعد أن وقّع بلزاك مع دار نشر «مام»، في ٢٨ نيسان ١٨٣١، العقد الذي يتضمن ضمن مشاريع أخرى، نشر جزأين ثالث ورابع **لمشاهد من الحياة الخاصّة**، بدل اسم السير أرتور غرنفيل، باسم جورج ستونتون الذي أطلقه في البدء على الفارس الانكليزي الكئيب. كما أنّه اختار اسم هيلين لابنة جولي الصغيرة وهو الاسم نفسه المُطلَق على ابنة العقيد دي فردون التي افتتنت بالخارج عن القانون اللاجئ إلى المنزل الأبوي. وتتعدّد الأحداث؛ ويغدو الإنكليزي طبيباً ويعنى بجولي ويشفيها، لكن الهدف يبقى كما هو بالذات: الموعد المشؤوم الذي قضى على العاشق.

يتأكّد السعي إلى وحدة المجموعة وترابطها المنطقي بوضوح بعد عدة أشهر. عندما ظهرت في **مجلة باريس**، بتاريخ ٢٩ نيسان ١٨٣٢، القصة الرابعة **المرأة في الثلاثين**، وهي التي تحتل الآن القسم الثالث من الرواية تحت العنوان النهائي **في الثلاثين من العمر**، ويبدو جلياً أنّها قد أعدت لبنيان تلك المجموعة في مرحلة لانستطيع تحديد هابدقة، لكنها تقع دون شكّ نحو نهاية العام ١٨٣١، وقد فكّر بلزاك أن يزلق **إصبع الله** بين **الموعد واللقاءين** وانطلق الترتيب، على ما يبدو لنا، من الرغبة في إعطاء مشجاة **اللقاءين** انطباعاً متناسقاً مع **مشاهد من الحياة الخاصة**. يكفي من أجل ذلك منح مزيد من الأهمية لهيلين والنزاع المستتر الذي تناوئ به أمّها. ألم تشعر الشابّة بشعور بالإثم مبهم نحو أمّها؟ ستغدو الولد المذنب في **إصبع الله**.

twitter @baghdad_library

هكذا ستحلّ فتاة صغيرة محل الصبي الصغير فرانسيسك، وهاهو القارىء يحاول أن يحدّد هويّة الشخصيات في القصتين خاصة وأن اسمي العاشقين في **إصبع الله** بقيا مغفلين، وسينتبه بدءاً من كون هيلين ابنة جولي دي إغلمون، إلى إقامة علاقة بين **الموعد وإصبع الله**. لنشر إلى أن وحدة المجموعة تنتظم أولاً حول شخصية هيلين. يبقى على بلزاك أن يعطي تبريراً لتصرفها في قصة **إصبع الله**. إلا أنّ هيلين في **الموعد** هي سبب تعلّق أمّها بالحياة، والفكرة تتوقف عند اللحظة التي كادت الأم تستسلم فيها لغرنفيل. هنا تفرض نفسها وقائع قصة **امرأة في الثلاثين**؛ ونرى فيها كيف تستجيب أخيراً امرأة للإغراء: إنّها جولييت دي ڤيومسنيل، وقد اختير اسمها ليذكر بتماثل بين تلك المرأة وجولي **الموعد** إنما دون تصريح بأنها هي بالذات. لكن تفاصيل أخرى تثير الانتباه في الاتجاه نفسه. ألم تجعل جولييت من رجل ضعيف الشخصية عيناً من أعيان فرنسة؛ ومن إنسان تافه قدرةً سياسية؟ وهذا ما فعلته جولي أيضاً. ألم يذكر عن اللورد ملڤيل (المماثل للورد غرنفيل في طبعة لاحقة) أنه قد مات من أجلها؟ وعلى مدى القصة يكتشف قارئ الجزء الرابع من **مشاهد من الحياة الخاصة** في العام ١٨٣٢، تفاصيل أخرى ذات صدى يختلف عن ذلك الذي تثيره قصة امرأة في الثلاثين المنشورة في مجلة باريس. يبقى الإيحاء للقارئ أن العلاقة التي نشأت في قصة امرأة بين جولييت دي ڤيومسنيل وشارل دي ڤاندنس قد استمرت وأدت إلى ولادة ابن سفاح: الطفل الضحيّة في فصل **إصبع الله** الذي غدا اسمه شارل بدلاً من جورج، وهكذا ترسخ التنسيق.

مجموعة بلزاك مركبة، بل إنّها شديدة التركيب. القصص الأربعة التي تشكّلها، مع احتفاظها باستقلالها، المؤمَّن في الجزء الأكبر منه بالحالة المدنية المختلفة لبطلاتها، وأيضاً بواقع أن هذه القصص متعاصرة تقريباً، مترابطة بشبكة من التوافقات المتحفظة والإيحائية. يمكن إذن أن نقرأ القصص الأربعة، إنّما يمكن أن نلحظ أيضاً ما بين السطور حكايات عديدة عن المرأة. تحت ثلاثة أسماء مختلفة ـ والمتعلقة بثلاث مراحل مختلفة من حياة المرأة التي تجعل منها ثلاث نساء مختلفات تقريباً ـ لدينا حياة جولي. في البداية السيدة دي إغلمون، المرأة المتشدّدة، العاشقة

للورد غرنفيل، إنّما دون أن تستسلم له، ونراها وقد سولت لها نفسها الانتحار لأنّها «تعهّرت» لزوجها؛ وهذا لايسعدها. ثم السيدة دي فيومسنيل، التي تعلّمت كيف تخلّ بمبادئ الأخلاق وقوانين الزواج وتجد السعادة في الحبّ. أخيراً السيدة دي فردون، المستقرّة في وضع تسوية؛ فعلاقتها تعود إلى الماضي؛ وهي تُربي أولادها، من الزوج، ومن العشيق: تبدو لنا امرأة سعيدة، تظهر وكأنّها لاتعاني كثيراً من رحيل ابنتها البكر. فالحياة موجودة أيضاً مع قصة هيلين التي تتطوّر كأنها اهتزاز وتر في معزوفة حياة جولي. ابنة الواجب هذه المهملة منذ أن اكتشفت أمّها الحب وانصاعت له وأعطتها أخاً ابن سفاح، انقادت في يوم لنزوة حسد آثمة وسببت موت الأخ الأثير وعانت الضيق والحرج، وهي المذنبة ضمن تلك العائلة السعيدة. رأت وأدركت كثيراً من الأشياء التي تحول دون توقها لسعادة تقوم على التسوية؛ وهي ترفض أن تحيا حياة أمّها، وتتمرّد على المجتمع، وتكتشف الحبّ، وتظهر لنا أيضاً في نهاية **اللقائين**، امرأة سعيدة؛ وبلزاك الذي كتب هذه القصص، ثم نظمها بعد نشرها في رواية، هو أيضاً مؤلف **فيزيولوجية الزواج** لكن بلزاك الذي ينشر في العام ١٨٣٢ **مشاهد من الحياة الخاصة**، ويريد أن يكون مدافعاً عن مبادئ الملكيّة وتقليديّ التفكير، ويعلن احترام العائلة والزواج، لايمكنه أن ينشر مؤلّفاً يظهر سعادة المرأة في غرام يزدري بالقوانين والزواج، وعندئذٍ يضيف خاتمة أخلاقية، وهذا قد يدعو إلى الأسف، إنّها ثماني صفحات بعنوان **عبرة** تأتي لتضاف إلى **اللقاءين**، فتُصفّي بطريقة متكلّفة قصة هيلين: لم تَدُم سعادتها اللاأخلاقية؛ ولم تلق أمّها إلا بمصادفة خارقة لتموت تحت ناظريها، وهي في الرمق الأخير الذي أتاح لها أن توجّه لأختها موانا، الموعظة المستخلصة من مغامرتها: «لن تلقى الفتاة السعادة أبداً في حياة مغامرة عاطفية خارجة عن المبادئ المألوفة». أيكون بلزاك غرّاً غافلاً عن مدلول هذا التكلّف وتفاهته؟ يلزم القارئ مزيد من الإرادة الطيّبة ليقتنع بهذه الخاتمة.

twitter @baghdad_library

لكن حكاية هذا المؤلَّف من **مشاهد من الحياة الخاصة** لم تنته. فمتطلبات دار النشر تثقل غالبًا على الإبداع البلزاكي؛ وبدا هنا عند الطبع أن المؤلَّف خفيف قليل الصفحات، ويجب إضافة شيء إليه دون أن يخلّ بوحدة المجموعة. وقد سبق أن عوقبت الأم المذنبة بابنتها هيلين سيكرّر بلزاك هذه الخاتمة، ويضيف قصة **التكفير**، التي ستظهرها لنا معاقبة هذه المرأة بابنتها موانا. عندئذٍ يظهر تجسّد جديد لجولي، السيدة دي بالون. لها خمسة أولاد، ولم يبق منهم إلا موانا الابنة التي ضحت من أجلها بكل شيء بيد أن هذه الابنة التي غدت السيّدة دي هيرين، تهمل أمّها، التي كادت تموت من الألم عندما علمت أنّ لابنتها موانا عشيق. قصة كتبت بسرعة وعلى القياس، يضفي فيها بلزاك طابع المأساة بسهولة، لأن عشيق الابنة هو ابن عشيق الأم، أي أنه الأخ غير الشقيق لموانا! هوذا ارتكاب المحارم بين النتائج المشؤومة للزنا! هكذا يأمل بلزاك أن يقنع قارئاته بأن السعادة لاتوجد إلا في احترام العائلة والزواج؛ ولايتردّد، في مذكّرة إلى الناشر تدعو القارئ لرؤية استمرارية في هذه المجموعة من القصص، يكتب فيها «تمّ تصوّر هذه النظرة العامة لحياة امرأة من أجل هدف أخلاقي كبير».

في ١٣ تشرين أول ١٨٣٣، يوقع بلزاك مع السيدة بيشه عقدًا لإعادة طباعة **مشاهد من الحياة الخاصة**، التي أدرجت منذ ذلك الحين في **دراسات طبائع**. رؤي أن يشكل الجزآن الثالث والرابع من **المشاهد** الدفعة الثالثة من إرسالية المشتركين التي ستظهر في حزيران ١٨٣٤. وقد عمد بلزاك للاستعاضة عن قصص الجزء الثالث غير الكافية، إلى كتابة **البحث عن المطلق**؛ بيد أن التنضيد الذي تبنّته السيدة بيشه في إصدار دراسة الطبائع أكثر كثافة من ذلك المستخدم من قبل مام. يجب إذن لاستكمال الجزء إضافة قصة جديدة أو ابتكار وسيلة انتقال تسهل قراءة المجموعة، إذ أنها في العام ١٨٣٤ ما تزال في نظر بلزاك مؤلفة من أحداث منفصلة، لكنها تُظهر توافقًا وتوازيًا، وغاية واحدة، وفكرة واحدة، وفقًا لقوله، اعتمادًا على مهلة إضافية وافق عليها الناشر لاستكمال هذا الجزء كتب بلزاك في أيار ١٨٣٤ **وادي السيل**، كما كتب في صيف تلك السنة نفسها **آلام مجهولة** والنص الأول مُلحق

بإصبع الله الذي أعطي عنوان **البير**، تلك القصة المؤلمة التي يدفع بها صبي صغير (غدا فيما بعد فتاة صغيرة) أخاه المحبوب إلى النهر. وليس في وادي السيل إضافة رئيسة للرواية، لكنه يندمج فيها بشكل جيّد. لكن لم يفصح عن أيّ من الأشخاص الثلاثة البالغين، إنّما كل شيء يشير إلى التعرّف على جولييت دي ڤيومسنيل، وزوجها وعشيقها شارل دي ڤاندنس. غير أن بلزاك سيتخلّى فيما بَعْد عن هذا الدلال غير المبرّر ويصرّح باسم العشيق. نرى إذن في هذه القصة أن الرابطة التي شرع بالتخطيط لها منذ كتابه في **سن الثلاثين** تتواصل مع تواطؤ من الزوج تقدّر ضمناً. هي مرحلة نمو وضع الزوجين الذي سنجده في بداية **اللقاءين**. إضافة إلى أن الولدين، هيلين وغوستاف يحملان اسمي الولدين الأولين في عائلة ڤردون؛ وتبدو الروابط بين مختلف القصص أكثر ظهوراً، دون ضرورة حقيقية، وأيضاً دون وضوح كاف قد يدفع إلى الحيرة من تفكّك التفاصيل. **يأتي وادي السيل**، علاوة عن ذلك، ليغذي رواية هيلين: المشهد هنا ليظهر مدى تأثرها بذكرى مأساة البيُمر، وليطلق الإحساس بالذنب الذي يظهر في **اللقاءين**؛ ولهجة هذه الصفحات، مع شخصية الموثق كروتا، ببلادته، تضخّم لحسن الحظ تشكيلة هذه المجموعة المتنوّعة النغمات.

آلام مجهولة هي نمط آخر من جميع وجهات النظر. فالقطعة تتمم قصّة جولي. البطلة، المركيزة، لم تسمّ فيها، لكن المسارات التي تجربها، وما يفصح عنه بلزاك، تشير كلها بداهةً إلى جولي دي إغلمون، حتى وجود هيلين الصغيرة الابنة غير المحبوبة تضيف إلى أننا نعيش مع المركيزة أزمة قنوط انتابتها بعد موت غرنڤيل، وقبل اختلاطها بالمجتمع الذي التقت فيه بڤاندنس. هذا المشهد الذي يندرج بشكل طبيعي بين **الموعد وامرأة في الثلاثين** أتعب بلزاك كثيراً، وقد أنهاه في ١٣ آب ١٨٣٤، وفقًا للتاريخ الذي وضعه في نهاية القصّة، وقد كتب في ٢٦ آب إلى السيدة هانسكا: «ستقرئين **آلام مجهولة** التي كلّفتني جهود أربعة أشهر متواصلة وهي أربعين صفحة. كنت لا أكتب أكثر من عبارتين في اليوم. هي صرخة رهيبة، دون رونق أسلوب، ودون ادّعاء مأساة، الأفكار فيها كثيرة، والمأساة فيها ماثلة لايمكن

twitter @baghdad_library

تنحيتها. إنّها تدبّ القشعريرة في النفس لمدى واقعيتها. لم أشعر أبداً بمثل هذا الانفعال في مؤلَّف».

قد لاتحمل هذه الصرخة المحركة للمشاعر أي عنصر جديد لقصّة جولي دي إغلمون، لكنها تستحضر بطريقة مؤثّرة الألم الذي يمزّق قلب المرأة التي حُرمت فجأة من الحبّ؛ وقد تعرّض بلزاك لهذا الاعتزال الإرادي في قصص أخرى مثل **جنة الرمّان**، **أو المرأة المهجورة**، **أو الرسالة**، لكنه لم يحلّل في أيّ مكان آخر بمثل هذه الشفافية عواطف المرأة السيّئة الحظ. لم يتناول أبداً بمثل هذه الحميّا مؤسسة الزواج، القَسْر الاجتماعي، المعاكس لقوانين الطبيعة. هي قطعة تظهر براعة بلزاك، واستحق عليها مراسلات هامة، لكنها لم تتمكن من خلق مرحلة انتقالية مع **اللقاءين**، عامل آخر يخلُّ بالتوازن الدقيق الذي قام في العام ١٨٣٢: يعطي بلزاك عنوانًا لكامل الجزء، **القصة نفسها**، ويوضح فكرته في مقدمة مؤرخة ٢٥ آذار ١٨٣٤، وهو تاريخ كاذب يثير الاستغراب، لأن تلك المقدّمة تشير إلى نصوص لاحقة. توجد في مطلع الرواية هذه الوثيقة الثمينة لتاريخ المؤلَّف، لكنها تضرُّ، في رأينا، القراءة الغنيّة المتعدّدة التي يتيحها نصّ العام ١٨٣٢، مع مذكّرة الناشر.

وجد بلزاك نفسه، مع إضافات الطبعة ١٨٣٤، قد دخل في رهان مستحيل على تحويل مجموعة قصص إلى رواية حقيقية. فُقد توازن العام ١٨٣٢، ولم يعد يحظى هذا العمل برضاه. وأفضل دليل على ذلك تلك الطبعة الغامضة من العام ١٨٣٧. حاولنا ونحن نضع على محكّ النقد أن نستخلص المشاكل التي ظهرت في تلك الطبعة وأن نجد إلى حدّ ما حلولاً لها. كان من المغري أن نرى فيها؛ بحذف العنوان العام والمقدّمة، دلالة على رغبة بلزاك في العودة إلى مجموعة القصص. لكن يجب، وفق ماحسبناه، الامتناع بالقبول أن هذا الحذف قضيّة ظرف ولا يستجيب لرغبة متعمدة؛ والطبعة تدلّ بالأحرى على جهد لمتابعة توحيد كليّ متعذر للمؤلّف. في **الموعد** يحذف المؤلّف العنوانين الفرعيين الأخيرين مقتصراً على ثلاثة تقسيمات ثانوية: **الشابة**، **المرأة**، **الأم**. بذلك ينتهي تقريباً التبدّل المفاجئ في هذه القصة؛ ولم تَعُدْ الخاتمة وهي نقطة الانطلاق في التكوّن، ذات قيمة، وموت اللورد

دي غرنفيل حادثة عرضية. فنَسق القصة هو مراحل حياة امرأة شابّة. تتحول الجهود بعد ذلك إلى **اللقاءين** فتطرأ على تلك القصة إضافتان هامتان، تهدف الأولى إلى شرح موقف الأب (العبرة من كلمة الشرف مع طرفة فوكس) أمّا الإضافة الأخرى فتهدف إلى عدم استبعاد هرب هيلين (المقطع المتعلّق بقراءة شيلر لكن مظهر المشجاة في ذلك القسم كان يضايق بلزاك ويغيظه. إنّه تنافر يأسف على اضطراره لإبقائه في طبعة ١٨٤٢. أخيراً، ومن أجل هذه الطبعة يستخدم بشكل شبه نظامي طريقة الظهور المجدّد للشخصيات الثانوية: فنجد السيدة دي ليستومير ـ لاندون محل السيدة دي بلورجي، والسيّدة دي سريزي وأخاها السيد دي رونكرول يحلاّن محل السيدة دي رولاي والسيد دي فليسيل. كما تحلّ السيدة فيرمياني محل السيدة دي فيتا جليانو، إلخ...

في طبعة فورن، العام ١٨٤٢، حصل مجموع العمل أخيراً على عنوانه النهائي، **المرأة في الثلاثين** وتناول بلزاك نصه في تغيير أخير: وحّد اسم البطلة. هكذا اختفت التجسّدات المختلفة للزوجين دي إغلمون التي كانت في السيد والسيدة دي فيوسنيل، والسيد والسيدة دي ڤردون، والسيدة دي بالون. وقد كان هذا التحول الأخير ضمن منطق تطوّر المؤلَّف. لكن هل قدّر بلزاك جميع النتائج؟ لايبدو ذلك؛ لأن هذا التغيير شوّش كلّ التسلسل التاريخي الداخلي في الرواية. تبرهن بعض تنقيحات التفاصيل على أن بلزاك أحسّ بهذه المشكلة، لكن تعذّر عليه عملياً حلّها، لأن بداية المؤلّف كانت محدّدة في الزمن، ومرتبطة بشكل وثيق بأحداث تاريخية بحيث لايمكن تعديل التأريخ، والسنوات المنصرمة بين ١٨١٣ و١٨٤٢ لاتكفي لتطور حقيقي في حياة امرأة منذ انفعالاتها الأولى شابة حتى وفاتها أمّاً وجدّة مذنبة. حاول بلزاك أن يبسط ويمدّ الزمن قدر الإمكان؛ وتشير بعض التصحيحات النادرة التي أجراها على نسخته الشخصية التي أعاد النظر فيها، العام ١٨٤٤ إلى استمرار تلك الرغبة في تحسين التأريخ، فالتحول لم يكن كاملاً، ولايمكن اكتماله، فهو يتطلب دون شك تصحيحات أخرى أكثر أهمية، وتوحيداً في

twitter @baghdad_library

النبرة أيضاً، إضافة إلى حذف كلّ فصل اللقاءين أو جزء منه. ولا نعلم إن كان بلزاك قد اقتنع بالتصدي لهذا العمل. لكن المؤلّف بقي قبل كل شيء، مجموعة قُصص تحولت بشكل غير كامل إلى رواية.

المصادر والمواضيع

كُتِبَت الحكايات المختلفة التي تشكل الآن **امرأة في الثلاثين** بين العام ١٨٢٩ (بداية النص الأول **للموعد**) والعام ١٨٣٤ (**آلام مجهولة**). وقد استوحاها بلزاك إمّا من قراءته، وإمّا في قسمها الأعظم من تجاربه الشخصيّة وبالرغم من أنّ جولي دي إغلمون مختلفة في وضعها عن جولي ديتانج- فهذه متزوجة من رجل فظّ تافه، وزوج تلك شخص لطيف محترم- لايمكن الامتناع عن ملاحظة بعض أوجه الشبه بين السير أرثور وسان برو. فالأمر يتعلق بحبين متعذرين، بسبب القسم الزفافي، وهو لاينفصم في هذه الحالة وتلك إلا بموت أحد الزوجين. وتأثير **هلويز الجديدة** ظاهر جداً منذ **ستيني**، رواية شباب بلزاك، ونصوص أخرى له، وهو ما يزال ماثلاً إذن في ذهن بلزاك وتحت ريشته خلال سنوات ١٨٣٠ - ١٨٣٢، ولكن تبرز تأثيرات أدبية أخرى في **امرأة في الثلاثين**. فاللورد غرنفيل سمّي أولاً- في المخطوطة- لورد جورج ستونتون. بيد أن **مذكّرات** الدوقة دابرنتس تتعرض لنبيل طيب يحمل هذا الاسم، ومن المعروف أن جورج، لورد ستونتون، كان أسيراً في فرنسة، بعد أن درس الطب في مونبيليه. ألم يتوجّه جان جاك روسو ولورنس ستيرن، وهما مؤلّفان أثيران لدى بلزاك إلى تلك المدينة، وأقاما فيها مدة من الوقت طلباً للمعافاة من أوضاع صحيّة ضعيفة؟.

تذكّر بعض أفكار المؤلّف حول أوهام العاطفة الغرامية بمؤلّف ستندال **حول الحبّ**؛ فباستثناء نهاية **الأخطاء الأولى**. تدلّ الأقسام الثلاثة الأولى من الرواية على موهبة تحليل متميّزة يمتلكها بلزاك، وتكشف عن سيكولوجية رائعة للروح الأنثوية. بينما تتراجع الأقسام الثلاثة الأخيرة- كما رأينا- أمام رغبة المؤلّف في المأساة أو

المشجاة. غير أننا نجد فيها عدة مشاهد، وخاصة ذلك المشهد الذي يقوم فيه المجرم بتنويم عائلة دي إغلمون مغناطيسياً لبلبّي رغبات هيلين المفتنة بالنظرة المغناطيسية، وهو يذكّر ببعض مقاطع من ملموث لماتورن، بينما يدفع اقتحام «سان فرديناند» من قبل قراصنة **عطيل** إلى التفكير بواقعة **القرصان الأحمر** لفنيمور كوبر. أما المجرم الذي ردّ الحب إليه مكانته، فيحقّ التساؤل إن كان بلزاك لم يستوحه من **لارا** أو من **مانفرد** بايرون، كما أمكنه أن يغرف من **الزورق الشبح** لهاين فكرة جذب هيلين الشابة لمقاسمته مصير القرصان.

غير أن التجارب التي عاشها بلزاك هي التي قدّمت، رغم كل شيء، المواضيع الأكثر وضوحًا المعالجة في هذه الرواية المتباينة والجذابة في آن واحد، الملأى بالأمور المستبعدة وبأحاسيس تثير الإعجاب. وإذا كان اسم جولي يذكر باسم بطلة ***هلويز الجديدة***، فاسم عائلتها دي إغلمون يذكر بصهر بلزاك السيد دي مونتيغل*، زوج أخته لورنس المخيّب للآمال، تلك الأخت التي قضت نحبها وهي في الثالثة والعشرين من العمر معذّبة بزواجها. ومن المعروف أن بلزاك لم يكن يخشى استخدام أسماء الأشخاص المقرّبين منه بعد إجراء تعديلات طفيفة عليها.

صاغ بلزاك شخصية جولي دي إغلمون، مثل معظم شخصياته الروائية، من ذكرى عدة كائنات عزيزة عليه، لور دي برني، والدوقة دابرنتس، وخاصة المركيزة دي كاستري. وقد كُتبت قصة **المرأة في الثلاثين** خلال بداية مرحلة ذلك النوع من المغامرة الخطرة بين الكاتب وسيدة ضاحية سان جرمن الكبيرة. كان على **آلام مجهولة** أن توفّق بين هذين الكائنين المشبوبي العاطفة باستحضار الوفاء لذكرى حبّ كبير غيّب الموت فيه العشيق، وصورة هنرييت دي كاستري ماثلة في كلا النصين. أما شارل دي ڤاندنس فيستحضر كل مايريد بلزاك حيازته: الفصاحة، والنبل، ورقة العواطف، وحتى النجاح. ويحمل بلزاك (أو يستعير) مثل شخصيته الروائية لقب أحد هذه البيوتات العريقة وشعار نبلها «التي ستبقى أسماؤها مقترنة لمدة طويلة بمجد

---

* Aiglemont مقلوب Montaigle (م. المترجم).

twitter @baghdad_library

فرنسة» وهو مثل بطل الرواية يرنو إلى لعب دور سياسي، ويختبر «الدنيا» ويلاحظ الآخرين، ويحكم عليهم.

علم بلزاك في الأيّام التي كان ينشئ فيها **إصبع الله** أن أخاه هنري هو ثمرة علاقة آثمة بين أمّه والسيد دي مارغون، صاحب قصر ساشه: ووجد جرأة هذا الكشف تفسير الشعور العدائي الذي يخالجه باستمرار تجاه أخيه؛ بل ربّما كان في تلك القصة ذكرى محاولة من هذا النوع، عرفها بلزاك في طفولته، خلال نزهة على ضفاف اللوار، خاصة وأن **إصبع الله** هي القصة الأولى الأقدم عهداً، والأكثر قسوة، بين مؤلفات بلزاك التي يُعبّر فيها عن موضوع الأخوين؛ وقد تبعها بعد ذلك على التوالي، **الولد الملعون** ثم **المارانا**، وفيما بعد روايتان كبيرتان، **الزنبقة في الوادي** و**المصيّدة**، حيث طرأت تطورات أخرى على هذا الموضوع.

أمّا مصير جولي دي إغلمون، على الأقل ذلك العائد للأم المذنبة، الملازم للأقسام الثلاثة الأخيرة من **المرأة في الثلاثين**، فإنّه يذكّر بشكل غريب. بمصير السيدة بلزاك الأم. كان للسيّدة بلزاك، على الأقل، علاقتان غراميتان خارج الزواج، عرف بهما بلزاك: علاقة بالسيد دي هِرديا الإسباني. ثم علاقة بالسيد دي مارغون، والد هنري. وقد أحبّت جولي أولاً اللورد غرنفيل الأجنبي، ثم شارل دي ڤاندنس الذي أنجبت منه ولداً. (وبلزاك في قصة بريتيش الكبرى ينسب إلى إسباني، السيد دي فرديا مغامرة مماثلة لمغامرة اللورد غرنڤيل في الموعد. كان للسيدة بلزاك خمسة أولاد: ثلاثة صبيان وبنتان. فقدت منهم صبياً لم يتعد مرحلة الطفولة، وهذا ما يحدث في قصة جولي. غدت السيدة بلزاك أرملة بعد أن فقدت ابنتها لورنس؛ ثم خاب أملها بشكل قاس في ولدها هنري، ابنها الأثير، وقضت شيخوخة حزينة. منها دون شك تولّد لدى مؤلف الملهاة الإنسانية ذلك الإحساس بأن الأمهات المذنبات سيعاقبن في أولادهن ومن قبل هؤلاء الأولاد.

يجب أيضاً إمكان التنويه بالدور الذي يلعبه المنظر الطبيعي في **امرأة في الثلاثين**: مشاهد من مقاطعة تورين؛ تذكر مونكنتور، «أحد هذه القصور الصغيرة،

[. . .] البيضاء، الجميلة، ذات البريجات المنحوتة [. . .]» أو سان ـ لانج «الذي لاتنقص منافذه العظمة أوالجلال»؛ ومظاهر باريس، سواء في حدائق التويلري أو قرب غوبلنز، أو ضاحية سان جرمن؛ أو قصر السيد والسيّدة دي فردون (أو دي إغلمون) الذي رآه بعض النقّاد قَصرَ السيّدة دابرنتس في ڤرساي. جميع هذه الأوصاف تشهد مرة أخرى على نظرة المؤلّف الثاقبة وذاكرته البصرية المدهشة.

المرأة في الثلاثين، في شكلها الأخير، هي أولاً وقبل كل شيء حكاية امرأة حساسة، ذكية، جميلة، أخطأت في الزواج من ضابط تافه وفظّ، ولقيت عقوبة فادحة على خطئها في حبّ دبلوماسي شاب تتوفر فيه جميع المزايا التي تنقص الزوج. إنّه موضوع أثير على بلزاك موضوع أولئك النساء المتزوجات استجابة للمصالح، دون خفقات القلب. ثم يجدن أنفسهن سريعًا فريسة نزاع بين الواجب والحبّ. خلال الفصول الأولى من الرواية تقاوم جولي دي إغلمون هوى السير أرثور المحترم والصامت؛ ثم هوى شارل دي ڤاندنس العاصف اللّجب، ويجهل القارئ في نهاية الفصل المعنون **في عمر الثلاثين**، إن كانت جولي ـ التي يناديها الدبلوماسي الشاب برقّة جولييت ـ قد استسلمت للعاشق المتيّم. ويبدو أن هذا الصراع بين احترام الروابط الزوجيّة ونداء القلب قد انتهى لمصلحة الأخير إذ نرى في القسم الرابع العشيقين يغدقان الحب والحنان على ابنهما غير الشرعي المفضّل على الابن الشرعي.

المرأة في الثلاثين هي، نوعًا ما، تعليق على **فيزيولوجيا الزواج** وإيضاح له. إنّها الصيغة الروائية لبعض نصوص هذا الكتاب. وكلُّ القسم الأول. **الأخطاء الأولى** (المعنون سابقًا الموعد) تصوير للأخطار التي تتعرض لها الحياة الزوجية نتيجة عدم إدراك الزوج، ثم الأعراض التي تشير إلى نفور امرأة من مثل هذا الزوج: لجوء المرأة إلى الأمومة لتعفي نفسها من الواجب الزوجي، تواطؤ الطبيب وصديقة النُّزُل، إلخ. . . نشهد بعد ذلك تلك الحرب البطيئة التي يتم التوصل في نهايتها إلى السلام الزوجي الذي يقتصر على الرضوخ والتسوية. **المرأة في الثلاثين** هي المؤلّف، الذي يدافع فيه بلزاك، أكثر منه في أيٍّ من مؤلفاته، عن قضية المرأة.

twitter @baghdad_library

ويلاحظ فيه كيف يرى كل شيء من خلال عينيها، وهما خاصة عينا القلب، وكيف في استعراض عسكري لنابليون يسترعي ارتعاش الشابة العاشقة الانتباه، وكيف تختلف المناظر الطبيعية في تورين وفقًا لحالة جولي النفسيّة، وكيف تسيطر الوجوه النسويَّة، بشكل عام على الرجال وتحجبهم. حاول بلزاك عبثًا، تقيّدًا بالأصول، أن يدين في النهاية جولي، فهو متأثر بالانطباع المتولّد لديه للتجرؤ على الانفتاح على الحب في عمر الثلاثين، ففي تلك السن يُدرك الوضع البائس الذي يمكن أن يوصلنا إليه الزواج، وما تزال لدى المرأة الجرأة على أن تختار الحب والتفتح المشرق. وما يدينه بلزاك في بطلته هو الأم المذنبة لا الزوجة الخائنة.

استؤنف موضوع المرأة غير الموفّقة في الزواج في فصل **الآلام المجهولة** حيث لا تأسف جولي إلا على الإنكليزي الوسيم الذي لقي الموت من أجلها، وهذا الموضوع مستمر في فصل **سن الثلاثين** حيث لاوجود مطلقًا لشخصية الزوج؛ ووساوس جولي منحصرة في الحب المفقود. وليس في روابط الزواج الذي لايكاد يذكر أو يشار إليه.

في **آلام مجهولة**، ترى جولي لاتهتم بابنتها هيلين وتأسف لأنّها لم تنجب ولدًا غير شرعي، وفي **إصبع الله واللقاءين** تذهب إلى أبعد من ذلك وتعبر عن تفضيلها لابن الحبّ على حساب ابن الواجب. وكثيراً ما يتردّد هذا الموضوع في نتاج بلزاك فلا نستطيع أن نمتنع عن التفكير بتلك الطفلة الصغيرة التي أنجبتها ماريا دو فرسناي قبل كتابه **آلام مجهولة** بوقت قصير، والتي أحبها بلزاك وتعلّق بها مثل ابنة له.

ويتناول الكاتب فيما بعد هذا الموضوع في **الزنبقة في الوادي**، ليؤكّد مرة أخرى أيضًا على وجوب إنجاب الولد عن حبّ، وإلا كان نوعًا من ملامة حيّة. بيد أن النزاع بين الولدين سينقلب إلى مأساة. فالبكر، هيلين (في النصّ الأول، فرانسيسك) تنقاد إلى نزوة تقتل خلالها أخاها الأثير. في الفصل الأخير المعنون في البدء **التكفير عن الذنب** (وهو الآن **شيخوخة أم مذنبة**)؛ يبين بلزاك أن ابن الحبّ

كان دائماً بالنسبة لأمّه موضع إيثار، ومحطّ أحد «هذه الميول الفطريّة» التي لاتتفسّر إلا بأنها تفوق الحدّ.

يتضاعف التباين بين ابن الحب وابن الواجب بنزاع الأم والابنة، وفي اللقاءين يعرض بلزاك «برودًا في مودة هيلين لأمّها». ولن يجد ناقد سيكولوجي أية صعوبة في أن يميّز في هذا النص عقدة الكترا* مما يجعل الشابّة تحسّ بشعور مبهم بالذنب. هذه الغيرة من الابنة تجاه أمّها- الحائزة على حبّ الأب- عنصر جريء وجديد يشهد على حدس بلزاك السيكولوجي؛ وقد تجرأ في فيزيولوجية الزواج على التحدث عن غيرة أم من ابنتها الشابة الجميلة. وقد شعر هنا بالحاجة إلى اقتراح، مايشبه فرضية، تقضي بوجود «سرّ محتمل» في حياة تلك الأم، رغم أنّها «أمينة لواجباتها بمنتهى الورع». ستتيح الفرضيّة، فيما بعد، لتطعّم ذلك الوضع بفكرة الأم المذنبة. كما أن ابنة الحب ستتعرض بدورها لسوء الطالع الذي يثقل على وجودها. وستشعر أنّها معزولة عن المجتمع بذنبها، ولايمكنها أن تكفّر عنه إلا بأن تنقذ بدورها كائنًا آخر على حافة الهاوية. لهذا السبب انجذبت هيلين** مباشرة من قبل الخارج عن القانون المستجير بوالدها بعد أن ارتكب جريمة شنعاء. كان هذا المجرم قد تصرف، على نسق راسكولنيكوف، ليغيّر سلطة مدنيّة غير مستقرّة. فالمجتمع هو الذي أجبر ذلك الشخص على أن يكون خارجًا عن القانون.

نجد شخصية الرجل ذي النظرة الساحرة في عديد من روايات بلزاك. إنّه يتعلّق بإحدى أمنيات الكاتب: الإغراء بالنظرة، والسيطرة على الآخر بواسطة قوّة مغناطيسية. يؤمن مؤلّف الملهاة الإنسانية بأنّ الإنسان قادر على أن يتحرك ضمن وسط منير وهو يلقي حوله طاقة مسيطرة. ألم يوهب كورنتن، وفراغوس، وڤوترن قدرة خارقة؟ ألم يستخدم سارازين «قوة شبه شيطانية» ليتسلّط على زامبينيلا عن

* إلكترا: احدى بطلات الميثولوجية الإغريقية، ابنة أغاممنون. وعقدة الكترا تثبيت شهواني في البنت على والدها. (م. المترجم).

** هكذا ورد هذا المقطع في النص وهو يبدو لنا متناقضًا: فهيلين ليست «ابنة الحب»، إنما هي «ابنة الواجب» وشعورها بالعزلة ناتج عن أنّها سببت قتل أخيها. (ملاحظة المترجم).

twitter @baghdad_library

بعد؟ ألم يَرشُق رودولف فرانسيسكا «بنظرة ثابتة، ثاقبة، جذّابة طافحة بكل الإرادة البشرية» لتتعرف عليه (في قصة السيرة الذاتية التي كتبها **اليرساڤاروس**). وعند ذكر البصّارين، سيؤكد بلزاك في رواية **النسيب يونس** أن الفكرة «قادرة على أن تطلق أشعة ذات شدة خارقة» وفي **لويس لامبر** يصرّح دون مواربة: «يمكن للإرادة بحركة تقلّص كليّة في الكائن الباطني أن تتجمع، ثم تنقذف بحركة أخرى إلى الخارج، بل وأن تحلّ في أشياء ماديّة. هكذا يجب أن تمتلك القوة الكليّة في إنسان خاصة التأثير على الآخرين، وأن تُنفِذَ روحًا غريبة عن روحهم، إن لم يدافعوا عن أنفسهم ضد تلك العدوانية. [. . .]».

لكن مثل ڤوترن، يضع القاتل، والقَرَصان، وكلّ بطل ملعون، نفسه خارج القانون، لأن القوانين خدّاعة، وظالمة، ومستبدّة. كذلك تكافح جولي ضد الأعراف التي تجعل من الزواج «بغاءً شرعيًا»، تتحدّى ابنتها هيلين المجتمع بالزواج من قاتل، يرى نفسه في الحقيقة، محققًا للعدل. لكن أليس المجتمع في النهاية هو الأقوى؟ لأن هيلين وجولي في آخر الأمر تعاقبان بقسوة. يشير بيير سيترون، عن حقّ، في المقدمة الرائعة التي وضعها **لامرأة في الثلاثين** إلى أن هذه الرواية، مع ذلك، مؤلف أخلاقي[1]. فالأم المذنبة لم تعاقب فقط بأولادها الشرعيين الذين فقدتهم واحدًا بعد الآخر، إنما أيضًا بأولادها الأثيرين: تتركها هيلين لتلحق مغامرًا ـ وتلقى بدورها عقابًا رهيبًا ـ وتقتلها موانا بكلماتها المماثلة لطعنات الخناجر. هذه الرواية التي تمجّد الحب، وتخصّ الابن المولود خارج العلاقة الزوجيّة بالحظوة والسعادة تنتهي بعبرة أخلاقية: يحمل الإنسان أخطاءه إلى حافة القبر.

---

(١) دار نشر غارنيه ـ فلاماريون، ١٩٦٥ صفحة: ٤٦.

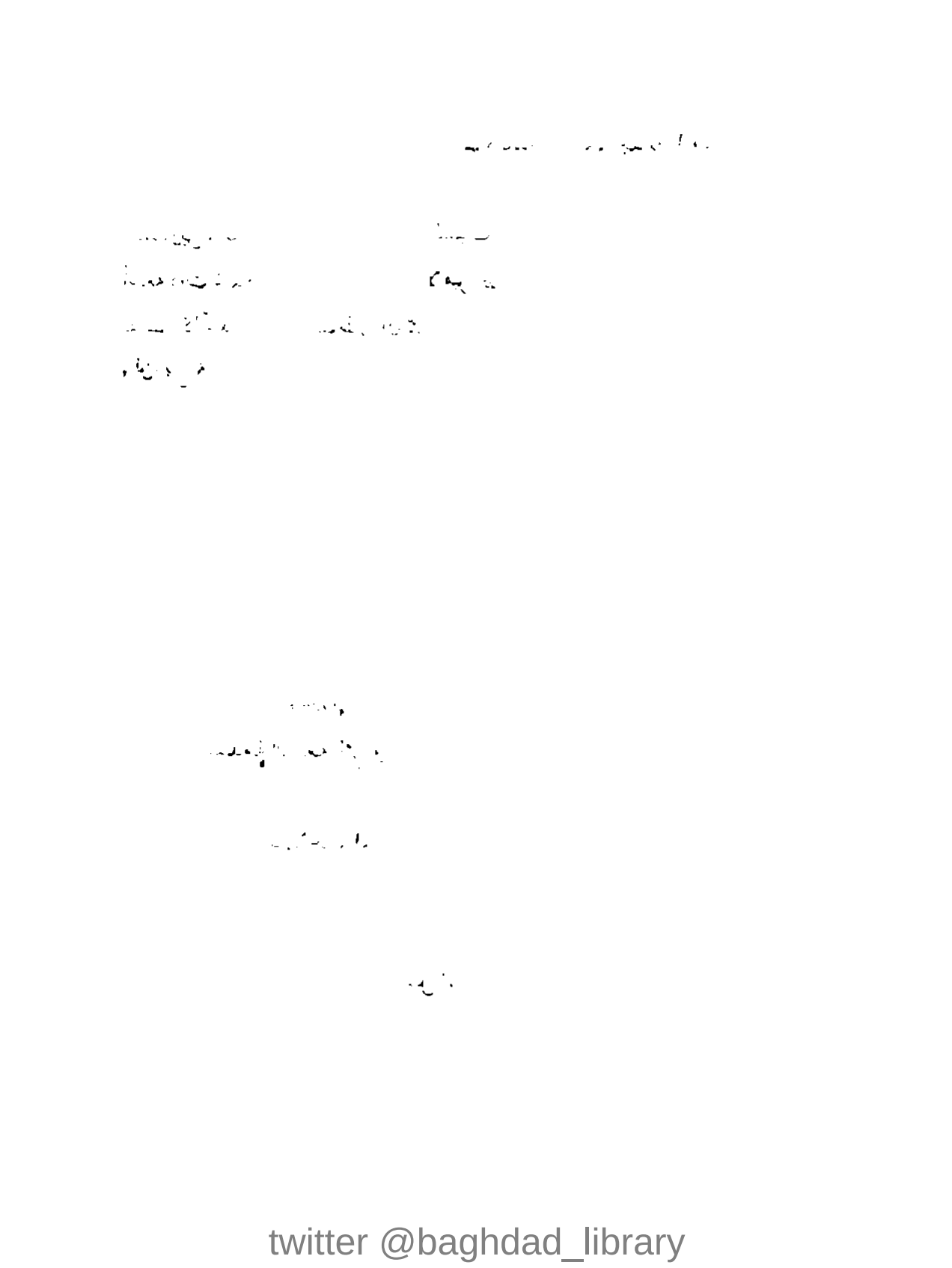

twitter @baghdad_library

الفهرس

	الصفحة
الإهداء	٣
مقدمة طبعة بيشة BECHET	٥
I - الأخطاء الأولى	٧
II - آلام مجهولة	٧٦
III- في عمر الثلاثين	٩٥
IV- إصبع الله	١٧١
V - اللقاءان	١٣١
VI- شيخوخة أم مذنبة	١٨٥
دراسة حول الرواية والمؤلف : إعداد برنار غانيبين ، ورينه غيز	٢٠٣

الطبعة الأولى / ٢٠٠١
عدد الطبع ١٥٠٠ نسخة

twitter @baghdad_library

المرأة في الثلاثين حكاية امرأة حساسة، ذكية، وجميلة، أخطأت في الزواج من ضابط تافه وفظّ، همّه أن يستمتع بمفاتن زوجته، دون الانتباه إلى مراعاة عواطفها وأحاسيسها في بدء الحياة الزوجية.

إنّها رواية تهدف إلى تصوير الأعراض التي تشير إلى نفور الزوجة من علاقة تتجلّى فيها أنانية الزوج ولامبالاته فتسعى إلى الأمومة لتعفي نفسها من الواجب الزوجي.

تنجب ابنة لاتشعر نحوها بأية عاطفة -إنها ابنة للواجب- تريد المحافظة على قدسية الرباط الزوجي لكنها تستجيب لنداء حب عذري مع نبيل انكليزي تُفجع به. ثم تسقط في حب شهواني مع دبلوماسي شاب تنجب منه أبناء غير شرعيين؛ وتعاقب بقسوة على أخطائها: تدفع الطفلة، ابنة الواجب، أخاها -ثمرة الحب المحرم- إلى النهر ليموت غرقاً، وتكبت الأم ألمها والابنة إحساسها بالذنب لتهرب في عمر الشباب مع مجرم قاتل غدا قرصاناً شهيراً. ثم تقع ابنة الحب الثانية -موانا- في غرام ابن عشيق الأم- الأخ غير الشقيق لموانا- وتقضي الأم كمداً وحسرة.

إنّها رواية أراد بلزاك منها أن يقنع قراءه - وقارئاته خاصة- بأن السعادة لاتوجد إلا في احترام العائلة والزواج.

الطباعة وفرز الألوان مطابع وزارة الثقافة
دمشق ٢٠٠١

سعر النسخة داخل القطر
١٢٠ ل.س

في الأقطار العربية ما يعادل
٢٤٠ ل.س

twitter @baghdad_library